الأستاذ الدكتور
طه حبيشي

المرشد المعرف

بمعاني وأسرار قواعد التصوف

الشيخ أحمد زروق

المجلد الأول

مكتبة الإيمان

مكتبة الجامعة الأزهرية

أحمد زروق

سيرة ومسيرة

تأليف

أ . د / طه الدسوقي حبيشي

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٥٢٢

الترقيم الدولي: ٦-١٦٩-٤٤٩-٩٧٧-٩٨٧٨

مكتبة الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع

٤ ش أحمد سوكارنو- العجوزة- القاهرة

فاكس: ٣٣٠٤٤٨٤١- ت: ٣٣٤٥٢٣٠٢

محمول: ٠١١١٣٣٧٥٣٧٥- ٠١٠٠٠٩٦٦٥٧٨ - ٠١٢٨١٨٢٠٠٠٩

البريد الإلكتروني والمواقع الخاصة بالمكتبة:

www. elemanlibrary.com

elemanliblary@gmail.com

elemanliblary@yahoo.com

https: //www.facebook.com/elemanliblary

مقدمة الطبعة الثانية

من كتاب المرشد المعرف بمعاني وأسرار قواعد التصوف

شرح وتعليق أ .د / طه حبيشي – حفظه الله – على كتاب قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق – رحمه الله –

بقلم فضيلة الأستاذ الدكتور / جمال الدين حسين عفيفي .

أستاذ العقيدة والفلسفة المتفرغ بكلية أصول الدين بالقاهرة .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد ،،،،،،

فإن علم التصوف هو أحد العلوم التي تتميز عن غيرها من العلوم التي عرفها المسلمون ، ويأتي تميز هذا العلم عن غيره من العلوم من خلال أن هذا العلم يتناول الجانب الروحي في الإنسان تناولًا دقيقا فهو علم يهتم بالسمو بروح الإنسان وقلبه إلى أسمى الدرجات فيجعل الإنسان يتسامى عن الجوانب المادية بحيث يصبح الإنسان في صفاء نفسه أشبه ما يكون بالملائكة فيفيض الله عليه من فضله فيشعر بلذة روحية تجعله يستطيع أن يرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وعلى الرغم من تلك القيمة الرفيعة لهذا العلم إلا أنه لم ينل حظه من الاهتمام مثل ما حدث لغيره من العلوم ، بل إن هذا العلم - مع عظم قدره - قد أحاطت به بعض المشكلات من خارج البيئة الإسلامية ومن داخلها على السواء .

فمن خارج البيئة الإسلامية : نجد أن كثيرًا من أعداء الإسلام من المستشرقين يجردون الإسلام عن معرفة التصوف الحقيقي ، ويذهبون إلى القول بأن التصوف الإسلامي إنما يرجع إلى مصادر أجنبية كالمصدر الهندي أاو الفارسي أو الفلسفة الأفلاطونية الحديثة أو إلى الديانة النصرانية ويؤيدون أفكارهم الباطلة بأدلة باطلة هي أبعد ما تكون عن الموضوعية ودافعهم إلى هذا إنما هو الحقد على الإسلام وتجريد المسلمين من كل ما هو في أعلى درجات الرقي الروحي وأعني به علم التصوف .

أما من داخل البيئة الإسلامية فإننا نجد أن التصوف الصحيح قد واجه المشكلات التالية :

١- مشكلة من ينكرون وجود ما يسمى بالتصوف الإسلامي الصحيح ويزعمون عن جهل منهم أن التصوف دخيل على البيئة الإسلامية ، ويزعمون أنه لم يكن معروفًا إلا بعد اتصال المسلمين بغيرهم وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، والصحابة – رضوان الله عليهم – لم يعرفوا ما يسمى بالتصوف .

٢- أما المشكلة الثانية فتتمثل في أن بعض من جهل حقيقه التصوف الصحيح لم يتمكنوا من التفرقة بين المتصوف الحقيقي وبين مدعي التصوف ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إنهم يتهمون رجال التصوف الحقيقي بأقبح أنواع الاتهامات .

٣- المشكلة الثالثة أن كثيرًا من الذين كتبوا في التصوف الإسلامي لم ينجحوا في تصوير الجانب المضيء من التصوف الإسلامي وذلك لأن هؤلاء قد وقعوا تحت تأثير أحد عاملين :

العامل الأول : هو الكتابة السطحية في قضايا التصوف ، ومثل هذا النوع من الكتابة له ضرر كبير على بيان وتوضيح معالم التصوف الصحيح .

أما العامل الثاني الذي وقع بعض من كتبوا في التصوف الإسلامي تحت تأثيره : فهو تناول بعض قضايا التصوف بأسلوب غامض بحيث لا يستطيع أحد أن يفهمه وهذا العامل أكثر ضررًا على التصوف ؛ لأنه يجعله شبيه بالطلاسم غير المفهومة .

وإذا كان التصوف - كعلم - قد تعرض لهذه المخاطر من الخارج أو الداخل على نحو ما بينا ، فإن هذا الأمر يجعلنا نؤكد على أنه لم يأخذ حقه من الدراسة التي تبين حقيقته على الوجه الأمثل

ولكننا على الرغم من ذلك قد وجدنا بعض الأنوار الساطعة التي أطلت علينا فبددت ما حولها من الظلام ، وذلك من خلال أن الله – سبحانه وتعالى – قد هيأ بعض الصالحين من العلماء فقاموا بالكتابة في هذا العلم كتابات دقيقة وضحت معالم هذا العلم بطريقة علمية صحيحة ولعل من أهم هذه الكتابات ما قام الشيخ أحمد بن محمد البرنس الشهير باسم الشيخ أحمد زروق المغربي الفاسي في كتاب سماه (قواعد التصوف) شرح فيه معالم التصوف الإسلامي الصحيح .

ومن حسن حظ هذا الكتاب أن قام بشرحه وتحليليه أحد فرسان العلم في العصر الحديث وهو الأستاذ الدكتور طه حبيشي – حفظه الله وأطال في عمره – في كتاب سماه (المرشد المعرف إلى معاني وأسرار قواعد التصوف) .

وأود في هذا المقام أن أتوقف مع هذين العالمين الجليلين أعني المؤلف – رحمه الله – والشارح والمحلل – حفظه الله - .

أولا : بالنسبة للمؤلف – رحمه الله – وقد ذكرت منذ قليل أن اسمه أحمد بن محمد البرنس المعروف باسم أحمد زروق الذي ولد في فاس ببلاد المغرب عام ٨٤٦هـ .

ولقد قام هذا العالم الجليل – رحمه الله – بوضع كتاب (قواعد التصوف) وجعله مشتملا على مائتين وثلاث وعشرين قاعدة ، ولقد جعل هذه القواعد شاملة لكل معالم الطريق الصوفي الصحيح ، كما ناقش فيها كثيرًا من القضايا التي لها تعلق بكثير من جوانب الدين الإسلامي من وجهة نظر متصوف ناضج الفكر يعرف طبيعة العلاقة بين الحقيقة والشريعة ، ومن يطالع عناوين هذه القواعد يتبين له فضل مؤلفه ودرجة وعيه بحقائق التصوف الصحيح بمجر قراءة هذه العناوين لهذه القواعد فما بالك بمن يقرأ ما بداخل هذه القواعد .

ولقد أشار الشيخ زروق إلى أهمية وضع العلم في مجموعة من القواعد فقال إنها تؤدي إلى ضبط مسائله وفهم معانيه وتجنب وقوع الخلط فيه وإقامة الحجة على من يناظر فيه بالباطل وتمييز الحق من الباطل فيما يتعلق بالآراء المختلفة وكل هذه الأمور إنما تدل على وعي مؤلف كتاب (قواعد التصوف) بأهمية إبراز معالم علم التصوف في صورة صحيحة .

أما بالنسبة للوقفة مع الشارح والمحلل لكتاب (قواعد التصوف) وهو أستاذي ووالدي الحبيب فضيلة الأستاذ الدكتور طه حبيشي – أطال الله في عمره وأعلى قدره في الدنيا والآخرة – الذي شرحه في كتاب (المرشد المعرف بمعاني وأسرار قواعد التصوف) فسوف أتوقف عند الكتاب ؛ لأسجل بعض الأمور ، ثم أنتقل إلى الكاتب – حفظه الله - .

أولًا : بالنسبة للكتاب يمكن أن نقف معه في الأمور الآتية :

الأمر الأول : أن صاحبه – حفظه الله – قد جعله في خمسة أجزاء . ولقد جعل الجزء الأول منها مختصًا بعرض سيرة المؤلف وسماه (أحمد زروق سيرة ومسيرة) وإحقاقا للحق أقول : إن أستاذنا بأسلوبه الذي يجمع بين جودة الصياغة ودقة التعبير في هذا الجزء بحيث جعل القارئ كأنه يعرف الشيخ زروق عن قرب وجعله يشعر بقيمته العلمية بصورة واضحة .

الأمر الثاني : أنه – حفظه الله ليّ وللإسلام وأمد في عمره – قد قسم قواعد التصوف على باقي الأجزاء الأربعة ، وقد أفاض في عرض هذه القواعد بأسلوبه العميق الذي يجذب القارئ الذكي إلى متابعة قراءته حتى يحقق النتائج المرجوة من قراءته .

الأمر الثالث : أن فضيلته قد استطاع أن يستخرج كنوز التصوف التي كانت كامنة في باطن كتاب قواعد التصوف والتي لولا فضيلته لما استطعنا أن نتوصل إلى هذه الكنوز .

الأمر الرابع : أن فضيلته بهذا العمق في الشرح والتحليل لكتاب قواعد التصوف قد أستطاع أن يهدم المقولة التي يزعم أصحابها أن المتقدمين من العلماء تاريخيًا لم يبقوا شيئًا للمتأخرين وأن المتأخرين عالة عليهم ، أستطاع أستاذنا ببراعته في الشرح والتحليل أن يثبت عكس ذلك وأن يثبت أن المتأخر تاريخيًا إذا كان بارعًا في علمه مثل فضيلة أستاذنا – حفظه الله – فإنه يستطيع أن يصل بفطنته إلى ما غاب عن هؤلاء السابقين ومن هنا فلا أعد مبالغًا إذا قلت إن كتاب (قواعد التصوف) هو الذي استفاد من شرح أستاذنا وليس العكس .

أما وقفتي مع الشارح والمحلل للكتاب – حفظه الله لي وللمسلمين والعلوم المختلفة – فاستطيع أن أقول إن الأستاذ بموسوعيته ودقته في تناول العلوم المختلفة لهو خليفة حجة الإسلام الإمام الغزالي ، فكما احتار العلماء – قديمًا وحديثًا – في نسبة الإمام الغزالي إلى علم معين فكذلك حال أستاذي إذا أردتَ أن تنسبه إلى علم معين فلن تستطيع ؛ لأنه موسوعة علمية دقيقة ، قل أن يجود الزمان بمثلها فضلًا عن ما يتمتع به فضيلته من السمات النفسية والعقلية التي ندر وجودها في هذا الزمان .

ولا أستطيع في نهاية حديثي عنه إلا أن أتوجه إلى الله - سبحانه وتعالى – أن يديم عليه وعلى أهل بيته الكرام الصحة والعافية وأن يجمع الله بيننا في الدنيا والآخرة إنه - سبحانه وتعالى – نم المولى ونعم النصير

تلميذكم المحب لكم

جمال الدين حسين عفيفي

قسم العقيدة والفلسفة – كلية أصول الدين بالقاهرة .

تقريظ

بقلم/أ .د عبد الفتاح بركه

أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية الأسبق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ليسلم لنا ديننا، فاللهم آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا، واجعلنا ممن اهتدى بك فهدى، واحشرنا تحت لواء نبيك الخاتم غداً.

والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين في الدنيا وفي يوم الدين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى الملائكة والمقربين وأصحاب اليمين.

وبعد،،،

يقول فضيلة الأستاذ الدكتور طه الدسوقي حبيشي: إن الشيخ أحمد زروق المغربي الفاسي كتب خلاصة تجربته في كتاب نفيس سماه "قواعد التصوف".

ثم إني عرفت من هذه القواعد التي حواها هذا الكتاب النفيس ما نستطيع أن نقرر أن أستاذنا قد استعمل هذه القواعد العلمية العامة، وبها يستقيم العلم على منهجه، ويستقيم بها التعليم والتعلم بطرقه ووسائله، تلك التي ذكرها الأستاذ الدكتور في مقدمته.

ومن هذه القواعد:

القاعدة الحادية عشر، وهى: لكل شيء [والعلم خاصة] أهل ووجه وحقيقة.

والقاعدة الرابعة والعشرون، وهى: ما ظهرت حقيقة قط في الوجود إلا قوبلت بدعوى مثلها، وإدخال ما ليس منها عليها، ووجود تكذيبها، ليظهر فضل الاستئثار بها، وتبين حقيقتها بانتفاء معارضها.

والقاعدة الثالثة والثلاثون، وهى: إنما يظهر الشيء بمثاله، ويقوي بدليله.

وهذه نماذج لقواعد أخرى – في الموضوع نفسه – تتميز بالدقة والتحقيق

والشمول، وهو – وإن قصد بتقريرها أن يتوصل إلى تطبيقها في علم خاص هو علم التصوف وإلى علماء مختصين هم علماؤه العاملون فإنه – يذكرها باعتبار تطبيقها بصورة عامة، في العلم والعلماء عامة، ثم يعطفها إلى العلم الخاص الذي ذكره في العنوان بقوله "على قواعد التصوف" وما نقلته عنه هنا إنما أنقله باعتبارها قواعد عامة يصح أن نصف أستاذنا بأنه قام بتطبيقها تطبيقًا علميًا وعمليًا فنيا في هذا الكتاب، فصدَّق صاحب الأصل مرتين، مرة بالتسليم له بقواعده، ومرة بتطبيقها على صاحبها، ثم على نفسه، باعتبار كونه هو شخصيًا من فرسان العلم وميدانه المبرزين.

ولشدة التزامه بهذه القواعد العلمية، واندماجه نفسيًا وروحيًا وعمليًا والتزامه بمضمون الكتاب وقواعده لم يجد مناصًا من أن يضع صاحب هذا النص الدقيق، والذي ساقه في أسلوب شائق رقيق، في صورة واضحة، تشرح لنا مشخصاته الظاهرة من بداياته إلى نهاياته والتي برز عنها هذا النص النفيس الذي يستوعب موضوعًا مهمًا ذا عناصر متماسكة متشابكة، ولها أبعاد متفاوتة، متقاربة أو متقابلة، فإذا بأستاذنا تسترِقُه نفسُه من نفسه، فينغمس إلى الأذقان في سيرة شيخنا زروق، لا يكتفي فيها ببعض لمحات عن بيئته، وبعض ملامح من شخصيته، وجهوده في جهاده العلمي والاجتماعي، وبعض أساتذته وتلامذته، وحديقة إنتاجه العلمي، بل ينغمس إلى مستوى يجعله يسايره في مسيرته، فيحضر معه في ميلاده، يأسى له في فقدانه وليدًا لوالديه، ثم لحواضنه، ويتابع تربيته وشخصيات المربين، ومدى انطباعه بهم وبما هَدَفُوا إليه في تربيته، ثم في مسيرته بعد ذلك عندما يستقل بفكره ويتعرَّف على ميوله وتوجهاته الخاصة نحو العلم في فروعه المختلفة، وعن علاقاته بأساتذته، وما تناوَبَهَا من تقلُّبات غير هادئة ولا مستقرة في كثير من الأحيان، خاصة مع شيوخه في إرادته وسلوكه، ثم تابعه في أسفاره وتنقلاته خلال مجال واسع من البلاد ما بين المغرب والحجاز ذهابًا وإيابًا، وما فيهما وبينهما من بلاد وعواصم ومدن، ومن إقامة وترحال، خاصة في القاهرة بلد الأزهر وعلمائه الفطاحل من جانب، وحيث مَهْوَى العلماء من المتصوفة من أهلها ومن غير أهلها من جانب آخر، ويعيش أستاذنا معه في رسائله ومساجلاته ومنافراته، وفي أوقات

أنسه وصفائه، وفي أوقات محنته وبلائه، وصاحبنا يتجاوب معه في مختلف مشاعره، وفي مختلف تقلُّباته، وفي إقباله وإدباره، وترغُّبِه ونِفارِه، فيرق له في أزماته، ويسيح معه في سياحاته، ويُسَايِرُه في تصوراته وخيالاته، فإذا استوحش شاركه وحشته، وإذا تأوه تألم لأناته، وإذا انبسط انشرح له صدرًا، وقرَّ بِهِ نفسًا، لكأنه انطباع المرآة الصافية بالصورة البريئة، وكأنه جاسوس الفكر والعقل يريد أن يستوعب ما يمكن مما تناولته يد المشاعر والعواطف من تقلبات وتغيرات، ومسائل ومشاكل، وأفراح وأتراح، عندما يَمَلّ ويَسْأم، وعندما يهدأ ويرتاح، كل ذلك وأمثاله كان صاحبنا يتبعه ويتابعه، انطباعًا بانطباع، تجاوبًا مع الطباع، وشيخنا زروق – وإن كان ينظر إلى صاحبنا دهشا إلا أنه – كان يميل إليه، ويعطف عليه، ولا يبخل بجواب لأي سؤال، أو ما يخطر ويمر له على البال، ويزوده مع ذلك بشيء من الأمان، والثقة والاطمئنان، وصاحبنا يسجل ويملي ما حلا له، مما صار حِلاً له، ويسوقه إلينا في ثوب قصصي رائق، وأسلوب ثري شائق.

وأكثر من ذلك، فقد يبدو أن شيخنا زروق أَمَدَّه بمفاتيح الصناديق المصونة، ذاتِ القواعد المكنونة، في حِقَاق الذهب والفضة، من كل قاعدة محكمة غَضَّة، كأنها اللؤلؤ والمرجان، يَعْكِسُ بهيج الألوان، بأنوار علوم الإسلام والإيمان والإحسان.

كما يبدو أن صاحبنا كان على تمام أهْبَتِه، وكامل استعداده وعُدَّته، فأقبل عليها إقبال المنهوم، يفتحها صندوقًا صندوقًا، وينثر حقاقها بين يديه حقًا حقًا، ويمد إلى كنوزها يد الخبير المحنَّكة، فيستخرج منها جوهرة بعد جوهرة، ولؤلؤة بعد لؤلؤة، ويتأمل الوجوه المختلفة لكل منها، وما ينبعث من كل وجه من وجوهها من ضوء أو شعاع، أو نور باهت أو خافت أو باهر، فيضع كلاً منها بيده الصناع في المكان والصورة التي تُبْرِزُ خَوَافِي أنوارها، وتوجه أشعتها بحيث يسفر فجرها، وتشرق شمسها، ويضيء ضحاها بين أترابها، ثم يسلط عليها عدساته العلمية، فتبرز ما استَكَنّ، وتظهر ما استَجَنّ، فإذا نحن في غابة واسعة الأركان وارفة الأغصان ملتفة الأفنان، نستظل بوارف ظلالها، ونعجب لحسنها وبهائها، ونطرب لأهازيج أطيارها، أو كأنما نحن في حديقة غناء محوطة بأفق السماء، تتخللها جداول الماء، وتتبادل أغصانها تأويب الأطيار، وتتناثر على خضرائها ألوان الأزهار، وإذا نحن

بين ريح نَدِيّ، وعَرْفٍ شَذِي، وعِطرٍ ذَكِيّ، فما أعجبها من حديقة ماتعة زاهرة، وروضة يانعة باهرة.

هذه وتلك هي قواعد التصوف لشيخنا أحمد بن أحمد البرنسي الشهير بالشيخ زروق، وهي كما أشرنا كنز ثمين كان مطمورًا، وابتداع جميل في العلم كان مغمورًا، ثم هي- بعد ذلك – شرح وتحليل على يد أستاذ جليل الدكتور طه الدسوقي حبيشي الذي أبرز الكثير من وجوهها اللألاءَة، وأماط الكثير عن جواهرها الوضاءة، تقبل الله منهما، وأفادنا بهما، وأفاء علينا من علمهما، ونفحنا ببركاتهما.

وما أريد أن أستبقك إلى ما في طَيِّ هذه الكتب من فوائد وفرائد، وما يحويه من عجائب ونفائس، فهاك وهاك، ثم أنت وذاك.

والله من وراء القصد؛ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

أ. د./عبد الفتاح عبد الله بركة

أستاذ العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين

١٤ من جمادي الأولى سنة ١٤٣٦هـ

٥ من مارس سنة ٢٠١٥ م

تقديم بقلم

أ.د/ محمــد مهنــا

أستاذ القانون الدولي العام بجامعة الأزهر

بسم الله، وصلاة وسلاماً على مُصطفاه، في مبدأ كل أمر ومنتهاه، وبعد؛

فقد أحسن بنا الظنَّ أستاذنا في الله الدكتور/ طه الدسوقي حبيشي، العالم الجليل طالباً إليَّ أن أكتب مقدمةً لسِفره القيم، في شرح وتحليل قواعد التصوف لمحتسب الصوفية والعلماء الشيخ زروق- رضي الله تعالى عنه- والذي جمع فيه قواعد علم السَّيْرِ إلى الحق- تبارك وتعالى- ومبادئه ومدارجه وخوافيه ومزالقه وآدابه على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة، ويصل الأصول والفقه بالطريقة وعلى نسقٍ فريد لم يسبق إليه، بل ولم يلحق به من بعده أحدٌ.

وليس لمثلي أن يُقدِّم لمثل هذا العالم الجليل ولا لمثل هذا العمل الكبير، ولكن جرأتي على ذلك ترجع لما أثاره هذا الطلب في نفسي من ذكرياتٍ داعبت فكري وظني كنتُ قد عشت فيها بيقيني منذ أكثر من عشرين سنة تقريباً حينما تمنيت على شيخنا الجليل مولانا الشيخ محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية- رحمه الله- أن يكتب لنا شرحاً على قواعد التصوف للشيخ زروق؛ لما لها من أهمية في هذا الزمان الذي اندرس فيه الطريق، ومضى الشيوخ الذين كان بهم اقتداءٌ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم اهتداء وزال الورع وطُوِي بساطه واشتدَّ الطمع وقوي رباطه، وارتحلت عن القلوب حُرمة الشريعة، ودان الكثيرُ من المنتسبين للطريقة بترك الاحترام وطرح الاحتشام، وأمسى حالُ التصوف كما وصَفَه القشيري- رحمه الله- بقوله:

لا والذي حجت قريش بيته ... مستقبلين الركن من بطحائها

ما أبصرت عيني خيام قبيلة ... إلا بكيتُ أحبتي بفنائها

أمَّا الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

ولكن حالَ دون أمنيتي في شرح هذه القواعد تقدُّم العمر بشيخنا الإمام محمد زكي إبراهيم – رحمه الله- والذي تجاوز التسعين آنذاك، فضلاً عن تلك الأمراض

التي أثقلت كاهله وهموم التصوف ومُتطلبات الإصلاح التي كافَح من أجلها طوال عمره المديد- رحمه الله- فأشار إليَّ أن أقوم بذلك في مجلة المسلم حال لسان العشيرة المحمدية، وسرعان ما قصر بي الحال، وصرفني عن ذلك صروف الزمان بعد أن مضيت فيها خمس عشرة قاعدة فقط على قدر ما يسَّر الله لي.

فطويت رأسي تحت طي جناحي، آملاً مترقباً طوال هذه السنين حتى أراد الله تعالى أن يكون هذا الشرح العلمي الدقيق من نصيب أستاذنا الجليل الدكتور/ طه حبيشي ليملأ فراغاً لَكَم تعجبت من وجوده طوال هذه القرون منذ الشيخ زروق حتى يومنا هذا باستثناء شرح ابن زكري الفاسي المتوفى سنة أربع وأربعين ومائة وألف من الهجرة، والذي لم يظهر منها إلا شرح لاثنتين وخمسين قاعدة فقط، ولا يُدرى إذا كان قد أتمها من عدمه، وإن كان في ثنايا كلامه إشارات تُوحي بتمامه، والله أعلم.

وكأن الله قد اختصَّ بهذا الفضلِ فضيلة أستاذنا الجليل الدكتور/ طه حبيشي، ولا غروَ كما قال زروق في نفس هذه القواعد:

"إذا حُقِّق أصل العلم، وعُرِفت موادُّه، وجرت فُروعُه، ولاحت أصولُه، كان الفهمُ فيه مبذولاً بين أهله، فليس المتقدم فيه بأولَى من المتأخر، وإن كانت له فضيلةُ السبق، فالعلم حاكم، ونظر المتأخِّر أتم؛ لأنَّه زائد على المتقدم، والفتح من الله مأمول لكلِّ أحد، ولله دَرُّ ابن مالك- رحمه الله- حيث يقول: (إذا كانت العلوم منَحًا إلهية، ومواهبَ اختصاصيَّة، فغيرُ مُستبعَد أن يُدَّخر لبعض المتأخِّرين ما عسر على كثيرٍ من المتقدِّمين)، نعوذ بالله من حسدٍ يسدُّ باب الإنصاف، ويصدُّ عن جميل الأوصاف"، انتهى وهو عجيب.

ولا شكَّ في أهمية هذا الشرح لأهل السلوك عامة، ولأكاديمية الدراسات الصوفية بالعشيرة المحمدية بصفة خاصة، والتي جعلت من الأبعاد الصوفية للعلوم الشرعية التي تدرسُها أساساً لمناهجها الدراسيَّة، ومن ثَمَّ كانت أهميَّةُ هذه القواعد لضبط هذه الأبعاد كما عَبَّر عنها زروق- رحمه الله تعالى- في قواعده بقوله:

"ضبط العلم بقواعده مهم؛ لأنها تضبط مسائله، وتُفهِم معانيه، وتُدرِك مبانيه، ويُنتفَى الغلط من دعواه، وتهدي المتبصِّر فيه، وتُعين المتذكِّر عليه، وتُقيم حجةَ

المناظر، وتُوضح المحجةَ للناظر، وتُبيِّن الحـق لأهلـه، والباطـل فـي محلِّـه، واستخراجها من فروعه عند تحققُها أمكَنُ لمريدها، لكنَّ بُعدَ الأفهام مـانعٌ مـن ذلك؛ فلذلك اهتمَّ بها المتأخِّر والمتقدِّم"، والله سبحانه أعلم.

هذا فضلًا عن أنَّ تذليلَ هذه القواعد سوف يُسهم في ترشيد التصوف المعاصر الذي يُعَدُّ منهجًا أصيلًا للبناء والإصلاح أحوج ما تكون إليه الأمة في أيامنـا هـذه، ويعود بالصوفية إلى سابق عهدهم الذي وصفهم به الإمام المحاسبي بقوله:

"قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثارَ الآخِرة علـى الـدنيا، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم مجتمعين على نُصح الأمة لا يُرَجُّون أحداً في معصيته، ولا يُقنطون أحداً من رحمته.

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء، والرضا بالقضاء، والشكر علـى النعماء.

يُحببون الله تعالى، إلى العباد، بذِكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد علـى الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى، وعظيم قُدرته، وعلماء بكتابه وسنته، فُقَهـاء فـي دينه، علماء بما يحبُّ ويكره، ورعين عن البـدع والأهـواء، تـاركين التعمُّـق والإغلاء، مُبغضين للجدال والمراء، مُتورعين عـن الاغتيـاب والظلـم والأذى، مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، وَرِعين في مطـامعهم وملابسهم، وجميع أحوالهم، مُجانبين للشبهات، تـاركين للـشهوات، مُجتـزِئين بالبُلغة من الأقوات، مُتقلِّلين من المباح، زاهدين في الحلال، مشفقين من الحساب، وَجلين من المعاد، مشغولين بشأنهم، مُؤثِرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكـلِّ امرئ منهم شأنٌ يُغنيه.

علماء بأمر الآخرة وأهاويل القيامة وجزيل الثواب، وأليم العقاب. ذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المضني، فشُغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.

ولقد وَصَفوا للآداب صفات وحدوداً، ضاق لها صدري، وعلمت أنَّ آداب الدين وصدق الورع بحرٌ لا ينجو من الغرق فيه شبهي، ولا يقوم بحدوده مثلي، فتبـيَّن لي فضلهم، واتَّضح لي نصحهم، وأيقنت أنهم العالمون بطريق الآخرة والمتأسون

بالمرسَلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشدهم، فأصبحتُ راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محبًّا لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئاً، ولا أُوثِر عليهم أحداً.

ففتح الله لي علماً انفتح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن أقرَّ به أو انتحله، وأيقنتُ بالغوث لمن عَمِلَ به، ورأيتُ الاعوجاج فيمَن خالَفَه، ورأيت الرَّيْنَ مُتراكمًا على قلب مَن جَهِلَه وجحَدَه، ورأيتُ الحجَّةَ البالغة لمن فَهِمَه، ورأيتُ انتحالَه والعملَ بحدوده واجباً عليَّ.

فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه بضميري، وجعلتُه أساسَ دِيني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلَّبت فيه بأحوالي.

وسألت الله- عزَّ وجلَّ- أن يُوزِعني شُكر ما أنعم به عليَّ، وأن يُقوِّيني على القيام بحدود ما عرَّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أُدرك شكرَه أبداً" ا.هـ.

فأسأل الله- سبحانه وتعالى- أن ينفع بهذا الشرح الأمَّةَ على اختلاف مَشارِبها، وأن يجزي شارحه عن الأمة خيرَ الجزاء، ونستغفر الله من كلِّ قول وعملٍ أردنا به وجهَه فخالطنا فيه ما ليس له.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د/ محمد مهنا

القاهرة في ٦ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ

الموافق ٢٦ مارس ٢٠١٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه.

ثم أما بعد:

فإن العهد قد انقطع بيني وبين القراءة في التصوف مذ سنوات ذوات عدد ثم شاء الله في هذه الأيام أن تهيأتُ للأسباب وهُيأتْ لي الأسباب فانعطفتْ بي وانعطفتُ بها إلى القراءة في التصوف راغبًا أن أميز فيه بين الغث والثمين.

أما الأسباب التي هُيأتْ لي وتهيأتُ لها فكان من بينها هذه الضجة العالية التي أثارها غربون يطعنون في التصوف طعنة من يحمله الشنآن على الانتقام فتأملت وجوه الطاعنين فلم أجد واحدًا منهم من أهل النظر فقلت في نفسي أنا بين أمرين:

إما أن أحكم للطاعنين.

أو أحكم عليهم.

ثم علمت أنه لا يجوز أن أحكم لهم أو عليهم إلا بعد قراءة متأنية في هذا التصوف الذي طعن بسكين ووقف طاعنه ينتشى بلعق السكين.

ومن الأسباب التي هُيأتْ لي وتهيأتُ لها أني وأنا أطالع فكر ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وجدت الرجلين على غاية الإنصاف من التصوف يلومون على أدعيائه مع اللائمين وينصفون المحقين فيه مع المنصفين فأسندت ظهري إلى مقعدي وأنا أنصت إلى كلام ابن تيمية وابن القيم في التصوف ثم أرسلت زفرة أتبعتها بقولي: (رب صديق يدعي صداقتك وهو بسلاح الجهل يقتلك).

ومن الأسباب التي هُيأتُ لي وتهيأتُ لها هذه الطرائق التي اتبعها النبي- ﷺ - في التعليم والتربية يعلم أمته ويربيهم.

ومن هذه الطرائق التي أثرت عن رسول الله- ﷺ - التعليم بالتلقين.

والتعليم بالتلقين ليس له من معنى إلا أن يقول المعلم والمتعلمون ينصتون إليه ويتلقون عنه ما يقول.

ولهذه الطريقة شروط وآداب كما أن لها مجالات وموضوعات.

ومن هذه الطرائق التي أثرت عن رسول الله- ﷺ - التعليم بالاستنباط.

والتعليم بالاستنباط ليس له من معنى إلا أن يقوم المعلم أو المربي بطرح الأسئلة على الرواد الراغبين في التعليم تاركًا المجال لأذهانهم أن تسبح في كل اتجاه شريطة ألا يكون السؤال غامضًا وألا تكون سبل النتيجة مغلقة.

ومن هذه الطرائق التي أثرت عن رسول الله- ﷺ - يتبعها المعلمون مع المتعلمين طريقة الحوار.

وطريقة الحوار ليس لها من معنى إلا أن يتحاور اثنان على مستوى متقارب في المعرفة يسأل أحدهما والآخر يجيب ثم ينتهي السائل والمسؤل إلى حكم واحد يتفقان عليه.

وهذه الطريقة تتمثل في حديث جبريل مع النبي على نحو ما رواه ابن عمر وأبو هريرة وأخرجت الكتب الصحاح.

ومن هذه الطرائق التي أثرت عن رسول الله- ﷺ - يتبعها المربي مع كل راغب في التربية التطبيق العلمي لتلك القضايا التي يريد المربي أن ينقلها للراغبين في التربية بحيث يكون المربي قدوة لتلاميذه يقطعون الطريق الموصل إليه وهو جالس على القمة وهم يصعدون إليه من السفح الهابط في اتجاههم إلى هذه القمة السامقة.

وكمال الأسوة في أن يبقى المعلم على القمة وحده يتلألأ كالقمر المضيئ وهم يصعدون إليه الواحد بعد الواحد يقترب منه الصديقون ويتدرج الباقون على هذا السفح الذي يصعدون غليه دون أن يتمكن واحد منهم أن يشارك القدوة مكانته فيبقى هو القدوة وحده يتربع سنام الأخلاق.

وهي مرتبة لم تتحقق إلا للنبي الذي قال ربه: «وإنك لعلى خلق عظيم».

لقد تأملت هذه الطرائق التي هيأت لي وتهيأت لها باعتبارها سببًا من الأسباب التي حملتني على القراءة في التصوف.

فوجدت أن هذه الطرائق لم تكتمل أمامي في وجهة من الجهات إلا في التصوف فعلمت أن التصوف لا يعني إلا أن يكون معبرًا عن صدق التوجه إلى الله - تعالى وأساسه في الإسلام مقام الإحسان الذي قال عنه رسول الله- ﷺ - وهو يشرح معناه: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

لقد قرأت في مجال التصوف بعد أن هيأت لي الأسباب وتهيأت لها بتوفيق من الله واستخلصت من بين قرائتي رجلين أقدمهما للقراء يعبران عن التصوف أصدق تعبير.

أما أحدهما فهو الشيخ/ أحمد ابن تيمية الذي أعجبت بكتاباته في التصوف أيما إعجاب برغم إنني أخالفه في بعض كتاباته الأخرى.

وحين هممت أن أكتب عن ابن تيمية متصوفًا وأنشر بعض آثاره علمت أن أحد أبنائي يكتب فيه وهو حديث عهد بالتخريج من كلية أصول الدين هو خادم آل البيت وعلومهم/ محمود الأزهري فتركت له ما يريد إلى حين.

أما الشخصية الثانية فهي شخصية الشيخ/ أحمد زروق المغربي الفاسي الشاذلي القادري الأزهري.

فتفرغت لقراءة آثاره فوجدته قد جمع لنفسه معظم الطرق التعليمية تعلم بها وعلم، ثم كتبت خلاصة تجربته في كتاب نفيس سماه «قواعد التصوف» فرغبت في أن أقدمه للناس بعد أن حاولت حل ألفاظه وبيان مراميه وشرح أسسه لكني قد رأيت أن أقدم للناس مقدمة بين يدي قواعد التصوف تكون هديًا للساري وكشافًا للمتأمل.

وأسميتها: «أحمد زروق سيرة... ومسيرة»، وهي الجزء الأول من هذا الكتاب، ويليه أربعة أجزاء في شرح وتحليل قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق.

ولعل العنوان ينضح على موضوع البحث ويفيد.

ولعل البحث يفيد قارئه في مشواره الطويل في قراءته في قواعد التصوف التي نعتزم بفضل الله أن نقدمها للقارئ على الوجه الذي نرجو أن يكون في مرضات الله وعلى الوجه الذي نرجو أن يكون حافزًا للقارئ على أن يقرأ في التصوف قبل أن يحكم عليه أو له.

أ. د/ طه حبيشي

٨/ محرم ١٤٣٤هـ

٢٠١٢/١١/٢١م

نشأته وصباه

نحب أن نفتتح هذا العمل بالحديث عن الشيخ زروق الشخصية المحيرة والمؤثرة في وقت واحد.

ميلاد غريب:

في أواخر النصف الأول من القرن التاسع الهجري، والموافق لأواخر النصف الأول كذلك من القرن الخامس عشر الميلادي، اجتاح منطقة المغرب الأقصى، وربما شمال إفريقيا على العموم وباءٌ له طغيان وجبروت لا يُبقي على والدٍ مع ولده، ولا يحتفظ لوالدة بولدها، ولا يجزي فيه أحد عن أحد فمن أصبح في هذه المنطقة لا ينتظر المساء، ومن أمسى بها فلا أمل له في أن يصبح.

بيئة قد أصبحت شديدة الوطأة، انقطعت فيها الآمال، وقل فيها الرجاء.

وفي صباح يوم الخميس الموافق الثاني والعشرين من المحرم شهر الله الحرام من سنة ٨٤٦هـ، والموافق ٧ يونية ١٤٤٢م انفصل مع مطلع الشمس للشيخ أحمد بن محمد البرنس، وفي ضاحية من ضواحي مدينة فاس مولودٌ عن أمه، وفرح أهله به بالقدر المناسب، وسموه لأول عهده محمدًا.

فرحت به أمه على طريقة فرح الأمهات حين ينفصل عنها وليدها، فنظرت إليه نظرة مزدوجة، جمعت بين شعوري الاستقبال والوداع في وقتٍ واحد.

إن حال النساء لعجيب؛ إننا لا نكاد نرى امرأة إلا وفي طبعها قبول الشيء وضده، فهي تضحك وتبكي في وقت واحد، حيث نراها وقد اختلطت لديها الضحكات بالدموع، وهي تسعد باستقبال الحياة ووداعها في وقت واحد حين تكون في فترة المخاض، إنها ترى الموت بعينيها لا تكاد تشك في رؤيتها له، وهي تستشعر الحياة تدب في أوصالها حين تسمع صراخ وليدها يستقبل الحياة لأول مرة.

هكذا تكون طبيعة المرأة ولا مزيد.

وهكذا كانت طبيعة والدة الشيخ محمد زروق وعليها مزيد.

والمزيد الذي تميزت به أم الغلام كان أن اجتمع لها وهي تنظر إلى ولدها نظرة الاستقبال ونظرة الوداع في وقت واحد.

وهي لحظة لم يشعر بها الشيخ زروق، ولكنه قد علمها فسجلها وهو يؤرخ لنفسه استمتعت أمه بالنظر إليه ومصاحبته يومي الخميس والجمعة، لتفارقه يوم السبت ثالث أيام ولادته.

أما أبوه فقد لحق بأمه في اليوم السادس لولادة الغلام.

والغلام يسجل ذلك كله ويرويه وهو يكتب سيرته، وينسب تحقيق الواقع لذويه، قال: [كان مولدي عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ست وأربعين وثمانمائة (٨٤٦هـ- ١٤٤٢م) "، قال: أخبرتني بذلك جدتي أم البنين الفقيهة، وكانت من الصالحات، ثم توفيت والدتي يوم السبت التالي لتاريخه عن ثلاث وعشرين سنة، ثم توفى والدي يوم الثلاثاء سادس ولادتي].

توفيت الوالدة ولحق بها الوالد في أسبوعٍ واحدٍ وتركا الغلام في رعاية ربه يقابل مصيره، لم يُبق له الوباء الذي اشتهر في التاريخ باسم "وباء عزونة" أمًا ولا أبًا.

وهما قد ودعاه وهو يحمل اسمًا اختاراه له، حيث سمي مُحمدًا ".

ولم يشأ الله للفتى أن يستمر على هذا الاسم، وإنما قد تحول عنه ليُسمى "أحمدًا".

ومرجحات الاسم الجديد في فهم الغلام ثلاثة:

أولها: هذا الحرص الشديد على بقاء اسم أبيه على الأفواه، وفي الوعي، وفي الذاكرة، وهو رجل قد رحل عن الدنيا في شرخ شبابه، وقد تعلقت به القلوب، وتشبثت به الأفئدة.

وثانيها: أن اسم "محمد" قد حُرِف على ألسنة المغاربة خاصة من يجيدون اللغة الأمازيغية منهم، الأمر الذي يباعد بين جَرْسه بعد التحريف، وجرسه قبل أن يُحَرف وهو مرتبطٌ بالحبيب "محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين".

وثالثها: هذه البشرى التي جاءت على لسان عيسى بن مريم وذكرها القرآن، وفيها: "**ومبشرًا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**" (الصف/٦).

رحلت الوالدة والوالد، وكتاب السير والمؤرخون للرجال يستظهرون أن الغلام

لم يشاركه في والديه بنت ولا ولد.

لقد ماتت الأم على كل حال، ولم تترك للغلام من أثرٍ إلا والدتها الفقيهة في دينها، الحريصة على دنياها وآخرتها.

فمات الوالد وقد خلف وراءه مالاً وأمًّا مسرفة، ووصيته بالغلام أن تقوم على تربيته جدته لأبيه..

وصاحب السيرة يحكي عن هذه الفترة أن الله لم يشأ لجدة الغلام لأبيه أن تقوم على تربيته، فاحتفظت به جدته لأمه.

وفي هذه المرحلة من حياته يقص علينا صاحب السيرة في كناشه طبيعة جدته التربوية، حيث حفرت في هذا الفؤاد الناشئ أشياء تشكل بها وجدان الصبي في صباه، وانطبع بها سلوكه بعد أن صار مكلفًا.

فهي قد علمته الارتباط بالله منذ نعومة أظفاره، حيث كانت تعد الطعام في غيبته، فإذا جاء يشكو الجوع ويطلب الطعام قالت له بأسلوب تربوي: ما عندنا شيء، غير أن خزائن ربنا ملأى، وهو بعباده رحيم، اجلس معي ساعة نمد أيدينا إلى الله نسأله الرزق ونطلب منه المدد، فيجلس الصبي مع جدته يطلبان من الله المدد، بعدها تقول للصبي: إن رزق الله خفي، فقم بنا نبحث في جنبات المنزل علنا نجد عطاء الله لنا.

فيقوم الطفل معها ويبحثان، فإذا ما عثرا على الطعام، قالت الجدة للصبي: ألم أقل لك إن ربنا رزاقٌ جواد.

يفرح الطفل بهذا الطعام فرحًا شديدًا، وجدته تقول له: يا غلام لا تتناول الطعام ولا أتناوله قبل أن نشكر الله الذي رزقنا به، فإن الشكر على النعمة يترتب عليه الزيادة منها، فربنا يقول: "**لئن شكرتم لأزيدنكم**" (إبراهيم/٧).

وجدته قد علمته أن الله عز وجل له من عباده متطلبات وتكاليف، ومنها: الصلاة، فقد رغبته فيها وهو لا يدرك شروط صحتها من نحو: الوضوء، فكان يصلي بغير وضوء، فكانت تعترض بعض المحيطات به وتوجه الاعتراض لجدته: إنه يصلي بغير وضوء، وتقول الجدة مصححة: دعيه يصلي بغير وضوء حتى

يصلي بعد ذلك بالوضوء.

والفتى يحكي عن نفسه في كناشه أنه حين بلغ الحلم كان يقوم من نومه فيجد على وسادته درهمًا.

ويخبر جدته بهذا الدرهم الذي يراه، وجدته تقول له: قم إلى الصلاة فإذا انتهيت من صلاتك فخذه.

والجدة تذكر لبناتها خالات الصبي: إن هذا الدرهم سيغريه دائمًا بالصلاة، ليعلم أن عمل الخير مُثاب، وإن هذا الدرهم سيكفيه حاجاته ولا يحتاج معه إلى مزيد.

والجدة من ناحية أخرى قد علمت الصبي الزهد في الدنيا، فلم تُغْرِه بالطمع في زينة، ولم تحمله على أن يتطلب الترف أو ينغمس فيه.

وكان يشجع جدته على ذلك خاله الذي كان يخشى عليه الترف، كما كان يخشى عليه عين الحاسدين إذا علته الزينة وعلاه البهاء.

والفتى يسجل على طريقته طرفًا من هذه المرحلة الصعبة من حياته، فيقول: ["ولما حضرت والدي الوفاة عهد بي لأمه، وكانت مبذرة جدًا، وأوصى بثلث ماله لمؤذني جامع الأندلس، قالت: جدتي، فقلت له: يا ولدي إما هذا الذي صنعت؟ أوصيت بالثلث فنقصته لهذا الولد وهو علقة، وما قنعت حتى أوصيت به أمك وتعلم أنها تعطيه للطرارح؟ فقال: ما أوصيت به قدمته لموضع أنا أحوج فيه منه... بنيت به قصرًا في الجنة والباقي أوصيت به لأمي، وولدي هذا توكلت به على الله. ثم نظر إليّ وقال: أبشر يا ولدي! استودعتك الله، ثم مات – رحمة الله عليه- لا أدري في وقته أم بعده. فوالله ما انتفعت بماله في شيء معتبر...

ولقد حدثتني جدتي أنهم أخذوا مرضعة بأجرة من مال أبي، فحلف لها زوج خالتي أن لا تخرج له من دار ينفق عليها مدة رضاعي، فكانت تأخذ ذلك ولا يعود على منه شيء. ولقد حججت أول حجة بمائة وسبعين دينارًا ما أعلم منها يوم عزمت عليه درهمًا واحدًا أملكه، ولا يوم خرجت من البلد إلا حمارًا، وكذلك الثانية، لولا حمار وكتيبات لم يعد ذلك على نفقتي بشيء].

ويتحدث الفتى عن جدته وأثرها عليه فيقول: ["وعلمتني الصلاة وأمرتني بها وأنا ابن خمس سنين، فكنت أصلي إذ ذاك، وأدخلتني الكتاب في هذا السن، فكانت تعلمني التوحيد والتوكل والإيمان والديانة بطريق عجيب، وذلك أنها كانت في بعض الأيام تهيئ لي طعامًا، فإذا جئت من الكتاب للفطور تقول: ما عندي شيء، ولكن الرزق في خزائن مولانا جل وعز. اجلس نطلب الله. فتمد يديها وأمد يدي إلى السماء داعين ساعة. ثم تقول: انظر لعل الله جعل في أركان البيت شيئًا، فإن الرزق خفي، فنقوم نفتش أنا وهي، فإذا عثرت على ذلك يعظم فرحي به وبالله الذي فتح به. فنقول: تعال نشكر الله قبل أن نأكله لأجل أن يزيدنا مولانا: فنمد أيدينا ونأخذ في الحمد والشكر له ساعة ثم نتناوله، ونفعل ذلك المرة بعد المرة حتى عَقِلت".

ويستمر الفتى في عرض حاله مع جدته في تلك المرحلة من صباه، فيقول:

["وتحققتُ ليلة أني نظرت في نجم وسألت جدتي عن أمر الله فيه فبينت لي واجب الاعتقاد، وكانت بعد ذلك تقول: يستدل على التوحيد وهو ابن سنتين!

... وكانت تحدثني بحكايات الصالحين وأهل التوكل وغير ذلك من مغريات الإيمان. وما كانت تحدثني في موضع الخرافات إلا بمعجزاته (ﷺ) وغزواته وغرائب الكرامات والمنقطعين إلى الله تعالى.

وكانت تأمرني بالصلاة فأصلي بلا وضوء، فتقول لها خالتي في ذلك، فتقول لها: دعيه يصلي بلا وضوء حتى يصلي بالوضوء.

ولما ناهزت الاحتلام كانت تهيئ لي كل يوم درهمًا، إذا قمت في الصبح أمد عيني وإذا بدرهم مطروح على الوسادة، فتقول لي: صل الصبح وتعال خذه. وتقول: هذا الدرهم يعينه على الصلاة، ويمنعه من الفساد ويقيه التشوف للناس في للشهوات.

وكانت تتركني كثيرًا لا أحلق رأس ولا أغسل ثياب إلا بعد مدة طويلة، وتقول: الصغير إذا تنظف تبعته العيون فانفسد، وسمعت خالها يقول لها: لا ترديه خياطًا لأنها تستدعي النظافة وهي داعية الفساد.

وكانت تدربني على نضد الكتب، وتحذرني من الشعر وتقول لي: من يتـرك العلم ويشتغل بالشعر كمن يبدل القمح بالشعير، وكانت تقول: لابد من تعلم القـراءة للدين، والصناعة للمعاش"].

العيون الساهرة تتابع اليتيم:

أرأيت إلى هذه الجدة كيف صنعت بهذا الصبي، فصبغت فـؤاده بـصبغة الله، مادتها الأولى الشريعة، وتختلف في مظهرها إذا ظهرت في السلوك.

إنها صبغة أخلاقٍ تُسقى بماء واحد وتتباين في ظاهرها حيـث تـدب فيهـا الحياة على الأرض.

فلله ضَرُّ المربية حين تكون المربية على قدرٍ من الفقه، وعلى قدرٍ من رعاية الله، وعلى قدرٍ من الزهد في الدنيا، وعلى قدرٍ من الرغبة في نعيم الآخرة.

ومع ذلك فإن الله لم يجعل للصبي ينبوعًا واحدًا يرعاه بالحنـان الحـازم، أو بالحزم الحنون، ولكنه قد هيأ للطفل هذه العيون الساهرة على رعايته كلما توجه أو مسار تصحح له وترعاه في توجهه ومسراه.

[فإذا كان الصبي يعامل في البيت بجزم، فهو الحزم الواجب وليس القـسوة أو الشدة على الإطلاق، ولم تكن جدته وحدها هي التي ترعاه، فإن آخرين من أفـراد الأسرة وأقاربها كانوا يعتنون به ويحرصون على تلقينه أصول الـسلوك وطـرق التصرف في الحياة والمجتمع بما ينطبق مع مقاييس مجتمعهم ذاك. وحـين جلـس الصبي مرة إلى القصاص في سوق المدينة يستمع إليه في شغف وانتباه... كعـادة كل الصبيان – مر به عم جدته وغضب منه، فنهره قائلاً: "إنما يجلس هنا مـن لا خير فيه". ولم يعد زروق لفعلته تلك أبدًا. وكما يقـول... وحـين رأت أم هـاني العبدوسية يديه وقدميه مصبوغتين بالحناء أنّبته كثيرًا لأنه ارتـضى لنفـسه شـيئًا خاصًا بالنساء. وهو لم يصبغ بعد ذلك أبدًا. ولما لاحظ زوج جدته – سيدي أحمـد العجل– أن الصبي تعود على أن يسبق الأضياف إلى الطعام، منعه مـن أن يفعـل هذا، وأطاع الصبي الأمر"].

يتيم يتفادى آثار اليتم:

هذه رعايات تعددت من حول الصبي كأنها قد أحاطت بــه إحاطــة الـسوار بالمعصم، أو السياج بالدور، أو الإطار بالمتاع.

والشيء العظيم الملاحظ والذي لا يُخطئ الناظرين، ولا يخطئه المتأملون في تجارب بني الإنسان أن اليتم في مجال الطفولة شديد، إذ هو تعبير عن فقــد الأب، وهو أحد ينبوعي الحنان في حياة الصبيان، فكيف بنا ونحن نتصور فقد الأم ينضم إلى فقد الأب ليجف ينبوع الحياة الأبوي، وينبوعها الأمي.

إن هذا لأمر عظيم يعرض لبعض الصبيان فيذوقون قسوته ومرارة تجرعه بما يسمى في عرف الشريعة قهرًا، يحرم على المجتمع معه أن يعرِّض واحــدٌ مــنهم اليتيم للون آخر من ألوان القهر "فأما اليتيم فلا تقهر".

ونحن نتصور اليتيم يلعب مع الصبيان ويلهو مع أترابه، فإذا جاء وقتٌ يعــود فيه الآباء إلى بيوتهم تفرق الصبيان على منازلهم رغبة أو رهبة.

ويجد اليتيم نفسه بمفرده وقد التصق جسمه بجدار لا يحدثه أحــدٌ ولا ترافقــه الأقران، فيُفيق على لحظة حزن تملأ إهابه، وتكاد تأخذ بفؤاده.

ونحن نجد اليتيم في وضعٍ آخر قد يحدث له، نجده وقد أُحاط به الناس من كل جانب، الكل يبتغي فيه رضي ربه، فيحيط به التدلل. ويغمره النعيم.

والطفل اليتيم يستغل هذا الوضع الجديد، ويشتهي أن يغترف منه ويقول:هــل من مزيد؟

حالتان محتملتان يتعرض اليتيم إلى إحداهما. فتعصره الـشدائد والآلام بــين فكيها، ويتعرض للثانية فترخي له العنان إلى حد التسيب من غير ضابط.

فإذا شب اليتيم عن الطوق ظهر على واحدة من اثنتين: إما أن يكــون مكتئبًــا منطويًا، أو يكون شرسًا عنيفًا لا تحكمه ضابطة، ولا يحده في السلوك حد.

والفتى أحمد قد نجاه الله من ذلك كله على يد المحيطين به، فهيأ له الله الرعاية الكاملة فأخذته بالضوابط، وهيأ له العيون الساهرة فأخذته بالرحمة والنصائح.

الصبي من البيت إلى الكتَّاب:

استطاعت جدة الصبي أن تهيأه إلى مرحلته الجديدة، فالتعليم للدين، والصناعة للمعاش.

ونحن لا نجد أحدًا سليم العقل والطباع وهو يفرط في دينه، أو يُعرض عن أسباب معاشه.

وتبدأ قصة الصبي مع الكتاب بهمة مبذولة، ورعاية من المحيطين به لا تتسلل إليها الغفلة.

وليس هناك من يكون أصدق لهجة من الإنسان يتحدث عن نفسه ويروي تجاربه.

لقد لخصنا ما كان للصبي في المنزل تلخيصًا يوضح هذا الجانب من الصورة فيما نرى، أما في الكتاب [" فقد كان زروق تلميذًا مواظبًا وشديد الهدوء حتى إنه لم يلعب قط في ساحة الجامع أو يجر فيه، كما يفعل باقي الأطفال، فيما عدا مرة واحدة. وهو لم يتخلف عن حفظ واجبه اليومي المرتب له من السور حتى أتم حفظ القرآن الكريم وهو لا يزال في العاشرة من عمره.

وقد تعودت الجدة أن تعيد على مسمع حفيدها كل يوم: "لابد من تعلم القراءة للدين والصناعة للمعاش"].

تعلم الصنعة في الصبا ضمان لأسباب الرزق:

تعودت الجدة ان تسمع الصبي هذه العبارة كل يوم.

نعم. "القراءة للدين. والصنعة للمعاش".

وقد أخذ الصبي من تعلم القراءة بطرف، حيث يذهب كل صباح إلى الكتاب، ثم هو يقص علينا أنه قد أخذ أيضًا إلى تعلم الصناعة طريقًا.

ونحن نلخص بين يديك طريقه إلى الصناعة على ما ذكره وسطره.

شب الصبي عن الطوق.

[" فلما شب عن الطوق أُرسل ليتعلم الخرازة إثر مشورة أحد الأقارب، وهو لم يُرسل لتعلم الحياكة لأن هذه الحرفة كانت تتطلب قدرًا وافرًا من النظافة والأناقة لم

يحظ بهما في طفولته. وكان الولد يذهب لدكان الخراز ثلاث مرات في الأسبوع بعد العصر والفراغ من درسه في الكتاب. فلما بلغ العاشرة توفيت جدته أم البنـــين، ولا ندري من الذي تولي تربيته بعدئذ، ولعل أحد أقاربه فعل، ولعله صار يكسب قوته، بعد وفاة جدته من العمل كصبي خراز حتى بلغ السادسة عشرة من عمره"].

* * *

من الصبا إلى الشباب

رحلت الجدة وتركت حفيدها أمام وصيتها "الكتابة والتعليم للدين والصنعة والعمل للمعاش".

رحلت الجدة عن حفيدها وهو يتردد بين الكتاب والخراز، يتعلم من الكتاب ما يثري مستقبله الديني، ويلتقط من الخراز ما يعينه على المعاش.

وأنت إذا تأملت في هذين المسارين ربما وجدت أنهما مساران متوازيان ولا يلتقيان؛ ففي الصباح عملٌ ينشط العقل، ويفتق الوجدان، ويفتح الآفاق أمام تكوين العقل، وأمام تنمية الوجدان، وفي المساء عمل يدوي لخدمة الطرف المقابل من الإنسان؛ فصنعة الخرازة لا تُعني إلا بالخفاف والنعال، ونحن لا ننتقص من الخرازة ولا من الخراز، وإنما نقول: إن من كمال النفس التقريب بين المقاصد، وهو أمر لم يتوفر للفتى.

بلغ الفتى السادسة عشرة من عمره ونظر في نفسه فإذا بها تحركه وتلح عليه حين يتوجه إلى حانوت الخراز، إنها تلح عليه قائلة: أيها الفتى ما لهذا خُلقت ولا لهذا تحددت مقاصدك.

والفتى يلتفت إلى نداء النفس فيجد خلفه رصيدًا وغرسًا قد وضعتهما في فؤاده جدته، واطمأنت على نضجهما فيه قبل الرحيل، ولما. لا، وهي قد شهدت له بأنه تطلع إلى إثبات وجود الله صانع الكون ومدبر العالم وهو ما يزال في السنة الثانية من عمره.

أنصت الفتى إلى نفسه وهي تلح عليه: ما لهذا خُلقت، ولا لهذا تحددت مقاصدك.

وعلم الفتى وهو في السادسة عشرة من عمره أنه لا يجوز أن يسلك طريقين متوازيين، ينتهيان به إلى مقصدين مختلفين، ولا مفر أمامه من توحيد المقاصد، وكان القرار الصارم الذي انتصر لأحد الطريقين على حساب الآخر.

لقد اتخذ قرارًا بترك الخرازة ومواصلة تلقي العلم، والجلوس بين يدي العلماء، فهو لهذا خلق، ولهذا تحددت مقاصده.

بلغ زروق السادسة عشرة من عمره، وأصبح شابًا، يملك مصير نفسه.

وهنا قرر أن يغير مجرى حياته تمامًا من صبي خراز إلى طالب فقه وعلم مجد يعوض ما فات. فانتظم في سلك طلبة جامع القرويين والمدرسة العنانية معًا وصار يتردد عليهما لدراسة أمهات كتب المذهب المالكي والحديث والأصول وقواعد العربية.

ومن المرجح أنه درس بعضًا من كتب التصوف كذلك في الفترة المبكرة من عمره، وهو أمر متوقع في ذلك الجو الفكري والديني في فاس، وتتلمذ على أشهر علمائها وفقهائها آنذاك، وما حولها من البلاد، والتقى برجالها الذين أعانوه في دراسته لكتب اللغة والدين. وكان زروق فخورًا بهؤلاء الأساتذة المشهورين، فسجلهم في (كناشه).

الفتى بين يدي معلميه:

حول الفتى مجرى حياته لتتقارب المقاصد في شخصيته، ولم يعد يختلف إلى حانوت الخراز، وإنما صار يختلف إلى حلقات العلم ومجالس المعرفة.

وكأن مدينة فاس في أحضان سلسلة جبال أطلس الصحراء قد صممت على أن تلقي بهديتها إلى العَالَم مشكاة هداية لم ينل منه اليتم، ولم يؤثر فيه فقد الأم، ولم يقعد بعزيمته رحيل الجدة المعلمة الأولى، والمُلهِمة المخلصة.

وكأني بالفتى على موعدٍ بمدينة فاس الراغبة في أن تثبت للعالم من حولها، أنه ليس من الضروري أن يكون منشأ الحضارة شواطئ المتوسط، كما أنه ليس من الضروري أن يقتصر مثبت الحضارة على شواطئ المحيط الأطلنطي، وإنما لعمق الصحراء من ذلك كله نصيب، وربما يكون النصيب الأغلب؛ ففي الصحراء اتساع الأفق وامتداده، وفي الصحراء نقاء الهواء الصالح للتنفس، وفي الصحراء شموخ الجبال ورسوخها، وإصرارها وعنادها في إرادة حديدية لا تلين، وفي الصحراء توقع الشدائد، وضيق العيش التي ينبغي أن يُحسب لها ألف حساب.

وهذه وغيرها أمور تختلط وتتفاعل لتصنع بيئة يشب فيها الفتيان، وقد استوى عودهم، واتسعت أفكارهم، ولم تلن لهم أمام الشدائد قناة.

نشأ الفتى في هذا الجو، ودربه من حوله على هذا الجو.

والفتى حين اتخذ قراره بتغيير المسار، وأقبل على العلم، جلس بين يدي أساتذته على تنوعهم، يأخذ من كل أستاذ خلاصة فكره، ويختزنه في هامش الشعور ليتمكن من تحصيل الجديد في كل يومٍ، بل في كل لحظة.

وأساتذته كانوا محل التقدير من نفسه، حتى سجل منهم قائمة وهو يكتب سيرته، ويطلع الناس على جانب من حياته، في كناش كان فيه صادق اللهجة، وفيًا لكل يد امتدت له.

ونحن نذكر بين يديك قائمة بأسماء رجال جلس الفتى بين أيديهم جلسة المتعلم المتلقي.

ونحن نجتهد في اختيار أسماء هذه القائمة، ولن ننقل عن مجتهد؛ إذ الفتى لم يلجئنا إلى هذا، ولم يضطرنا إلى ذاك.

فالقائمة التي سنذكرها الآن بين يديك قد سجلها الفتى بنفسه لتحتوي **مجموعة من الأساتذة استفاد منهم الفتى، وهم:**

١- عبد الله بن محمد بن قاسم القوري (توفى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م).

٢- محمد بن علي البسطي القلصاوي (١٤٨٦/٨٩١).

٣- عبد الله الفخار.

٤- عبد الله المجاحي.

٥- عبد الله التجيبي (الأستاذ الصغير - ١٤٨٢/٨٨٧).

٦- عبد الرحمن القوري.

٧- أبو سالم إبراهيم التازي (١٤٦١/٨٦٦-٢).

٨- أبو عبد الله محمد المشذالي (١٤٦١/٨٦٦-٢).

٩- عبد الرحمن الثعالبي (١٤٦٨/٨٧٣).

١٠- محمد بن الحسين (السراج الصغير- ١٤٨٢/٨٨٧).

١١- أحمد بن سعيد الحباك (١٩٦٥/٨٧٠-٦).

١٢- محمد بن قاسم الرصاع (بعد ١٤٨٥/٨٩٠).

١٣- أم هانئ العبدوسية (١٤٥٦/٨٦٠).

١٤- أبو زكريا صاحب الظهر (بعد ١٤٦٥/٨٧٠-٦).

١٥- عيسى المواسي.

١٦- أحمد بن عبد الله الزواوي (٨٨٤-١٤٧٩).

١٧- أحمد بن محمد بن زكري (١٤٩٤/٩٠٠).

١٨- محمد الغماري التلمساني (١٤٦٩/٨٧٤).

١٩- محمد بن يوسف السنوسي (١٤٩٣/٨٩٩).

٢٠- أبو الحسن المغيلي (١٤٦١/٨٦٦-٢).

٢١- عبد العزيز الورياغلي (١٤٧٦/٨٨١).

٢٢- أحمد بن سعيد المكناسي (١٤٦٥/٨٧٠-٦).

٢٣- أحمد العجل الوزروالي.

٢٤- أحمد التونسي (١٤٧٣/٨٧٨).

٢٥- أحمد بن علي الفيلالي (١٤٥٦/٨٦١-٧).

٢٦- عبد الله العبدوسي.

٢٧- علي بن عبد الرحمن الأنفاسي (١٤٥٦/٨٦٠).

٢٨- عبد الرحمن المجذوب.

٢٩- محمد بن أملال.

٣٠- محمد الزيتوني، وآخرون كثيرون.

مدينة فاس والنضج الفكري عند الفتى:

لقد حرص الفتى على الإقبال على العلم والأخذ عن العلماء بنهم شديد.

ولقد كان الفتى مقبلاً على علوم الشريعة يأخذها عن علمائها من الفقه والتفسير، والحديث وعلومه، وقراءة القرآن الكريم على حرف نافع، وكتب العقائد من نحو: الرسالة القدسية أو المقدسية لأبي حامد الغزالي.. وغير ذلك كثير.

والفتى مع إقباله على دراسة مسائل الشريعة من خلال كتبها، وعلى يد علمائها لم يغفل دراسة كتب التصوف، وعلى يد بعض البارزين في هذا المجال.

وتظهر هذه الازدواجية في الدراسة من مطالعتنا للكتب التي نص هو على أنه قد درسها، ومن إلقاء نظرة عابرة ومتجددة على أساتذته ومشايخه اللذين تلقي العلم عنهم.

أما التأمل في مشايخه وأساتذته فقد أصبح هذا ميسورًا لك لو قد التفت إلى القائمة التي سجلناها قريبًا.

أما الكتب التي قال الفتى أنه قد قرأها على مشايخه ، فهي من نحو:

١- رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

٢- الرسالة القدسية للغزالي.

٣- عقائد الطوسي.

٤- صحيح البخاري.

٥- الأحكام الصغرى لعبد الحق.

٦- جامع الترمذي.

٧- قراءة القرآن بحرف نافع.

٨- التنوير لابن عطاء الله السكندري.

ونحن إذا تأملنا في هاتين القائمتين فسيبدو لنا بغاية الوضوح هذه الثنائية التي كونت شخصية الفتى في وقت مبكر.

أما قائمة الكتب فهي وإن كان جُلُّها متصلاً بالشريعة خادمًا لها، فإنها لا تخلو من كتب في التصوف من نحو هذا الكتاب المسمى بـ (التنوير) وهو لابن عطاء الله السكندري خير دليل على أمرين:

أولهما: انشغال الفتى منذ شبابه المبكر بالتصوف يقرأ فيه ويستوعب مسائله.

وثانيهما: تعلق الفتى منذ وقت مبكر بالطريقة الشاذولية، وهما أمران استمرا مع الفتى إلى آخر حياته، ويكفيك دليلاً على صدق ما استنتجناه: أن الشيخ قد تناول الحكم العطائية بالتعليق والشرح نيفٍ وثلاثين مرة، وهذا إن دل على شيء فهو: هذه الدلالة على مدى شغف الشيخ بكتب ابن عطاء خاصة، والطريقة الشاذولية على وجه العموم.

وأما النظر في القائمة التي تحوي أساتذته، فإن النظر فيها يجد لأول وهلة أن هؤلاء الأساتذة منهم المهتم بالشريعة – وهم الأكثرون- ومنهم المهتمون بالتصوف تعليمًا وسلوكًا، وهم في الوسط الصوفي أعلام بارزون.

ويكفيك أن تكرر النظر في أول هذه القائمة وآخرها من هذه الأسماء التي سطرناها بين يديك.

أما **أولها:** فهو الشيخ عبد الله بن محمد بن قاسم القوري، وهو رجل فقيه صلته بعلوم الشريعة وثيقة.

وأما **الثاني:** فهو الشيخ محمد الزيتوني، وانشغاله بالتصوف النظري منه والعملي على السواء.

هما شيخان يمثلان الشريعة والحقيقة، والفتى يختلف إليهما جميعًا.

إنه يختلف إليهما باعتبار أن كلاً منهما يمثل اتجاهًا سيؤدي دوره في بناء شخصية الفتى، مما يُمكننا من القول: إن انتماء الفتى إلى هذين الشيخين، إنما يمثل انتماؤه إلى تيارين فكريين وسلوكيين على السواء.

أزمة غير متوقعة.

والفتى يزاول مهمته في تكوين شخصيته العلمية والسلوكية في الشريعة والحقيقة على يد مشايخ الشريعة والحقيقة، يجد نفسه وقد أُلقى به في أتون تجربة غير متوقعة هزته هزًا من الأعماق.

وهذا الحادث العارض للفتى قد وقع بينه وبين الشيخ الزيتوني أستاذه في التصوف، ومُتعَهِدُه في السلوك.

والمؤرخون يعرفون الحادث الذي وقع للفتى وهز علاقته بالشيخ الزيتوني من حيث ظاهره.

أما أسباب هذا الحادث فقد وقعت كلها في مجال التخرص والاجتهاد؛ فكل واحدٍ من المؤرخين يُسبب هذا الحادث العارض بما ترجح عنده من الأسباب.

ونحن نقص عليك ما توفر لدينا من المعلومات تتصل بهذا الحادث الأليم.

لقد كان الشيخ محمد الزيتوني من رجال التصوف البارزين في فاس، وكان

رجلاً كفيفًا حاد الطبع، له زاوية في فاس يقوم عليها، ويُلقي دروسه بها، ويستقبل فيها مريديه.

ونحن وإن كنا لا نعرف التاريخ الذي يحدد أول لقاء للفتى بالشيخ الزيتوني، إلا أن الذي نعرفه أن الفتى لم يكن مريدًا عاديًا، وإنما الشيخ قد قربه منه وأدناه، والفتى مسرورٌ بهذا التقريب وذلك الإدناء.

ولما دخلت سنة (٨٧٠هـ- ١٤٦٠م) وكان الفتى في الرابعة والعشرين من عمره، اصطحبه الشيخ في أحد أوقات هذه السنة لزيارة ضريح الشيخ عبد الرحمن أبي يعزا، والفتى على كامل السرور بهذه الزيارة في غدوه ورواحه.

وفي هذه السنة نفسها وقعت الجفوة المجهولة السبب بين الفتى والشيخ الزيتوني.

وأمامنا الآن روايتان يحكيان تفاصيل هذه الجفوة، إحداهما أقرب لتصديقها من الأخرى وإن كانت شحيحة في التفاصيل.

وسنبدؤك بهذه الرواية التي تشتمل على هذه الكثرة من التفاصيل المملة والجارحة.

يقول ابن عسكر وهو ثاني من نشر هذه القصة وتفاصيل هذه الواقعة، بعد نشر الفتى لها على غير مطابقة فيما يتصل بالسبب الذي ألقى بالفتى في أتون هذه الجفوة.

وخلاصة القصة عند ابن عسكر: أن الفتى قد تحدث عن أستاذه بين أقرانه حديث الرضى له ولأستاذه على السواء، حيث قال: إنه يحب شيخه الزيتوني ويخلص له، كما لم يتمكن أحدٌ غيرُه من هذه الدرجة من الحب والإخلاص، فأراد أن يختبره بعرضه على بعض كراماته.

وفي يوم طلعت شمسه على غير ما يهوي الفتى، ذهب إلى بيت شيخه ليكون في حاجته، أو ليحظى بالقرب منه، واستأذن الفتى، وسمع الصوت يأذن له بالدخول، ولم يجد أحدًا في الطابق الأسفل من الدار، فتسلق الدرج إلى أعلى ليجد المفاجأة غير المتوقعة؛ لقد وجد الشيخ الزيتوني بين امرأتين عن يمين وشمال، وهو

يقبل التي عن يمينه ليلتفت إلى يسار فيقبل الأخرى.

وما أن رأى الفتى ذلك، حتى وقع في خاطره أن الزيتوني زنديق وليس بشيخ، فولى وجهه منصرفًا، فهتف به الشيخ: أقبل يا أحمد يا كذاب، فأقبل الفتى على الشيخ، فإذا به يجده وحده ليس عن يمينه ولا على يساره من شيء.

ولم يتركه الزيتوني لحاله، وإنما قال له: ما كنت قد رأيته عن يميني وعن يساري إنما هما: الآخرة عن يميني والدنيا عن يساري، وظهورهما أمامك وأنا بينهما إنما هو اختبار لك، لنعلم صدق دعواك في أنك غير مسبوقٍ إلى محبتنا.

هذه **إحدى الروايتين** ذكرها صاحب كتاب "الزروق والزروقية" نقلاً عن (محمد ابن علي الشريف الحسني، دوحة الناشر).

وهذه الرواية يستوي أمامها جواز الرد والقبول على السواء، إذ لا مرجح لأحدهما على الآخر في أحسن الظروف.

أما **الرواية الثانية** فهي رواية الفتى نفسه، وهي كما قلنا: رواية قليلة التفاصيل، ناقصة الدلالة على السبب الذي كانت من أجله هذه الجفوة بين الشيخ والفتى.

والقصة عند الفتى قد أوردها في كناشه:

يحكى الفتى في روايته لهذه القصة أن الزيتوني أنبأه مرة بسرّ ما، وطلب إليه أن لا يغشيه لأحد، ثم اتهمه من بعد أنه فعل.

"وفي ما وقع للشيخ الزيتوني أن قال: (عبدين سلطانين جديدين!) ثم استكتمني إياها وكتمتها على. ثم إنه قال لي: (سمعتك تقولها لفلان).

فحلفت بكل يمين، فلم يقبل مني، فلم أقدر على تكذيبه ولا صح لي تصديقه لما أعلم من نفسي، فكنت أجوّز أن الله ابتلاني بشيطان أسمعه الآن".

هذه رواية الفتى على ما فيها من غموض.

وتلك رواية ابن عسكر على ما فيها من تفاصيل.

والروايتان تشتركان في أمور من أهمها: هذه الإشاعة التي لاحقت الفتى تقربه من اليهود إلى حد أن بعض الناس ظنوا أن الفتى قد صار يهودي.

والمتأمل يقف بين الروايتين، فيجد نفسه أميل إلى تصديق رواية الفتى، ولكنها رواية مع قربها من التصديق فيها شيء من الغموض؛ فنحن نتساءل ويتساءل معنا كثيرون عن السر الذي صدر عن الشيخ حيث أفشاه للفتى واستكتمه إياه، ما هو؟.

والأقرب عند كل باحث منصف أن يقول: إن هذا الحديث الذي دار بين الشيخ والفتى، كان يتعلق بالسياسة، وعلاقة الشيخ بالحاكم، وعلاقة الفتى بهما.

والطبيعتان على كل حال مختلفتان، فالشيخ الزيتوني فيه حدة، ربما تضعه في موقع المعارضة، والفتى قد حنكته التجارب وصقلته الظروف، فهو يميل إلى الهدوء وجمع الشمل.

والشيخ الزيتوني إما بدافع الظن أو بدافع الاحتمال يكون قد خشي من الفتى المطلع على أمره أن يفشي له سرًا يتصل بموقفه من الحكام، فرأى أن يترك الفتى فاس في فترة عقوبة دينية مدتها أربعون يومًا لعلها تصده عن الكلام، أو تُبعده عن الساحة إلى حين.

سياحة في عقوبة وعقوبة في سياحة:

ولم يعلم الفتى إلا أنه مطرود من هذه المدينة بأمر الشيخ.

ولم يكن أمام الفتى إلا أن يطيع شيخه، فخرج هائمًا على وجهه في الصحراء ومن خلف جبال سلسلتها متجهًا شمالاً في طريق طويل.

رؤيا حاسمة:

وفي حله وترحاله علم الفتى في منامه حين رأى الشيخ الزيتوني أنه يُقضِّي فترة عقوبة مدتها أربعون يومًا.

وهذه الرؤيا لم تترك له احتمال الرجوع إلى فاس، كما أنها لم تترك له الحصول على رضي شيخه قبل أن يُقضِّي فترة هذه العقوبة، سائحًا في الأرض هائمًا على وجهه.

إلى تلمسان وزيارة ضريح الشيخ أبي مدين:

وبينما الفتى يتنقل بين الوديان والمرتفعات، إذ وقع في خاطره أن يزور ضريح الشيخ أبي مدين.

والشيخ أبو مدين هو: شعيب أبو مدين بن الحسين. ولد بالقرب من اشبيلية بالأندلس، وارتحل في شبابه إلى فاس. وتتلمذ على يد أبي يعزا يلنور (المتوفي عام ٥٧٥هـ - ١١٧٦م) وزار المشرق، ثم عاد إلى المغرب ومات في تلمسان حيث مدفنه عام (٥٩٦هـ- ١١٩٨م).

وقع في خاطر الفتى إذًا أن يزور ضريح الشيخ، فقد علمته التجارب أن ضريح الشيخ يَضفي عليه شيئًا من الراحة النفسية تخفف عليه آثار العقوبة.

ولما كان ضريح الشيخ في تلمسان.

ولما تحددت رغبة الفتى في شد الرحال إلى تلمسان كان لابد أن تكون وجهته إلى الساحل في شمال البلاد؛ فإن تلمسان مدينة قديمة على ساحل المتوسط، بينها وبين وهران مسافة مرحلة من السير بتعبير القدماء، وهي شهيرة إلى الآن من ناحيتين: السياسية والفكرية، بالإضافة إلى مشايخ السلوك، ورجال الطريق.

يقول الفتى وهو يستكمل قصته مع الشيخ الزيتوني: "ثم ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، فخرجت لزيارة الشيخ سيدي أبي مدين، وكنت أجد في زيارته الرحمة نفسها، ومن محله خطاب الحال...

ثم مضيت إلى تلمسان فوصلت يوم تاسع وثلاثين من تاريخ الخروج من فاس، فقلت: اليوم أزور الشيخ أبا مدين.. فلم أقدر على ذلك إلا في الغد.. بقية الأربعين يومًا المذكورة في الرؤيا ".

"هذه الرؤيا التي يتحدث عنها زروق جاءته في أثناء سياحته تلك، وهو يحكي أن الزيتوني ظهر له في المنام وقال له: "إنك مسجون أربعين يومًا".

الاتهام باليهودية والتجسس:

شاء الله عز وجل أن يلقي الفتى الشدة ألوانًا وأشكالاً؛ فمع هذا الاغتراب القاسي نجد الفتى يُتهم بالجاسوسية وبالميل إلى اليهود، وعليه أن يتحمل ثقل هذا كله وحده.

والفتى يحكي عن ارتياب الناس فيه واتهامه بالجاسوسية واليهودية، ويقول بأسلوب يقطر مرارة، فهو القائل: "... فأول خروجي من البلد (فاس) قال رجل من

البلد لآخر: هذا من يهود فاس، فشككه في ذلك، فحلّفه بالصوم، فسمعهما طالب يعرفنا فنازعهما، ثم لما كان الليل دخلنا مسجدًا بعد صلاة المغرب لنبيت فيه، فإذا أصحابه يتحدثون بنا معتقدين أنني يهودي، فإذا شيخ منهم يعرفنا، وقال: هذا طالب أعرفه من فاس.

ثم لما أتينا (بادسي مسكونا) لنرد الخبر على أميرها، فنحن عند باب القصبة، وإذا بعبدين خرجا فبزقا علينا ولعنانا اعتقادًا منهما أنني يهودي، فانتهرهما الناس.

وبينما أنا أمشي في حجارة يومًا إذا برجل يقول لي: خدعتهم اليوم يا يهودي. فانتهرته فاستغفر.

فأتينا دار ابن مشعل أنا وصاحبي فتركني في الوادي ومشى، وأردت الطلوع إلى الدار فزين لي أن الطريق الأيسر أقرب، فمشيت عليه وفيه ديار اليهود.

فلما رأوني قالوا: هذا ولد شيخ تازا. وكانوا سمعوا به أنه هرب خوفًا من الأخذ. فبعثوا ولد شيخهم يلقاني، فلما رآني قال: كان ما هواش، ثم عقبني ومشى إلى ديارهم، فإذا هم على الأبواب ذكورًا وإناثًا، كبارًا وصغارًا. فما رابهم إلا دخولي للمسجد، فقام عندهم ضجة وكلام".

من العقوبة إلى فاس:

انتهت الأيام الأربعون، وبقي بعدها الفتى في تلمسان قدر ما بقي فيها على قرب قريب من ضريح الشيخ أبي مدين، ثم شده الحنين بعد ذلك إلى مسقط رأسه، فشد الرحال إليها.

وأغلب الظن أنه تصالح مع شيخه محمد الزيتوني بها، غير أن الأيام ستثبت لنا أنه حتى لو كان الصلح بين الفتى وشيخه قد وقع، فإنه صلحٌ لم يكن قادرًا على إزالة ما وقع في القلوب من جفوة.

وعلى كل حال، فإن الفتى قد بقي بفاس بعد القدوم إليها ثلاث سنوات، لم تستطع أيامها ولياليها أن تبين عما وقع للفتى فيها من أحداث، إلا أن يكون الفتى قد ودع بعد هذه السنوات الثلاث فاس مدينته وسقط رأسه، كما ودع شطرًا من حياته يستقبل بعده شطرًا آخر هو هذا الشطر الذي يملأه بالعطاء تدريسًا، وكتابة، وتأديبًا، وسياحة.

الشيخ السائح
وأيامه في المشرق

إن الذي يبدو لنا أن الشيخ أحمد زروق لم يطلب له المُقام بفاس، فهو قد دار حوله الجدل السياسي والجدل الديني على السواء.

وهذان أمران إذا انضاف إليهما رغبة الشيخ الشديدة في العلم تعلمًا وتعليمًا، والجنوح إلى التصوف علمًا وسلوكًا، لتشكل من الجميع مجموعة من الأسباب القوية التي تحمله على الرحيل، وهو رحيل لا يقاومه شدة الحنين إلى وطن درج على أرضه، إذ هو حنين هش لم يقوه عطف الأمومة، ولا حنين الأبوة، وكل ما هناك كان الارتباط بجدته لأمه في مدة لم تتجاوز عشر سنوات.

إلى أرض الحجاز:

ولقد رغب الفتى المكدود في الذهاب إلى أرض الحجاز حيث مكة والمدينة، تحمله إلى هذه الأرض هذه الأشجان التي تربطه بالحرمين الشريفين، وهذا الشوق الذي يدفعه إلى مقابلة العلماء على أرض الحرمين الشريفين.

والأمر الذي لا يغيب عن كل فاحص في شخصية الشيخ زروق، أنها شخصية قامت على لونين من الأساس تمثلهما القوة المفكرة، والتي غذاؤها العلم، والقوة العاطفية والتي يغذيها السلوك، ومطالعة الأنوار المنبعثة من وجوه الصالحين وأضرحة الأولياء.

اتخذ الشيخ زروق قراره بالرحيل إلى مكة والمدينة، يصحب في حله وترحاله بعض الكتب التي تعينه على قطع الطريق من المغرب الأقصى إلى أرض الحجاز في الشرق.

ونحن لا نتوقع من الشيخ أنه يجدُّ في السير، ويواصله بغير انقطاع، فهذا أمر مجهد ولا شك.

والشيخ لا يعفيه من الإجهاد إلا أنه يستريح في كل حاضرة تقابله في طريقه، وفي طريقه حواضر لا تخفاه ولا تخطئ سمعه، وهي حواضر يقابلها في الجزائر، ويقابلها في ليبيا، كما يقابلها في تونس.

ولعله لا يكون زاهدًا في مثل القاهرة التي اشتهرت بعلمائها وأزهرها.

وهذا ما حدث على كل حال.

وهذا ما ستكون لنا معه وقفات، عندما نتحدث عن الشيخ في حواضر الشرق ومدنه العلمية.

عزّم الشيخ على زيارة أرض الحجاز وهو ما يزال في فاس.

وعلى عامة أهل التصوف فإن الشيخ زروق رأى ألا يخرج إلى هذه الرحلة قبل أن يستشير أحد الكبراء على طريق التصوف.

ووقع العزم على أن يستأذن الشيخ أحمد بن الحسن الغماري.

ثم ذهب إليه واستأذنه، فرضي الشيخ وباركه وأذن له، فخرج من بلده في عام (٨٧٣هـ- ١٤٦٨م).

وانقضى هذا العام والشيخ يتنقل منَ حاضرة إلى حاضرة.

ولكنه في العام التالي كان قد وصل إلى ينبع، وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة، يسمونها في هذا الزمان "ينبع البحر" تمييزًا لها عن مكان عامرٍ في الداخل يسمونه "ينبع النخل".

وصل الشيخ إلى ينبع البحر في (٨٧٤هـ- ١٤٦٩م).

وفي هذا العام أتم حجه وقضى تفثه.

ولكنه لم يعزم على العودة، حيث جاور بالحجاز بين مكة والمدينة عامًا كاملاً.

في القاهرة:

قضى الشيخ على أرض الحجاز عامًا كاملاً قابل فيه من رآهم من رجال العلم وأهل الله من المتصوفة، فسمح لينابيع العلم أن تنفذ إلى عقله، ولغذاء الروح أن يتسلل إلى فؤاده.

وفي لحظات وداعٍ للحرمين الشريفين جمع الشيخ إرادته ولمم حقائبه، وقد اعتزم الرحيل إلى مصر.

وليس له من حاجة في مصر تعلو على حاجته في أن يقيم بالقاهرة.

فما القاهرة في أعين القادمين من شمال افريقيا؟

إن القاهرة في أعين القادمين من شمال افريقيا، تعد زاد الراكب لمن يمر بها، ودوحة المقيم لمن يضع فيها رحاله، وراحة البال لكل مضطرب..

إن القادم من شمال إفريقيا يُجهده الطريق على قدر ما قطع منه، فإذا سمع بقربه من القاهرة يتنفس الصعداء، ويملأ رئتيه بالنقي من الهواء. والشيخ زروق واحدٌ من هؤلاء.

لقد وصل إلى القاهرة، وقد أجهده الطريق كما أجهده الابتلاء.

وكانت القاهرة بالنسبة إليه واحة في وسط صحراء، وركدة في ظل ظليل يعقبها.

سفر وارتحال:

ثم هو بعد الحج لا يكاد يفكر في شيء إلا في العودة إلى القاهرة يرى وجوهًا قد أشرقت عليه بالعلم فترة يسيرة من الزمن، فيجلس إليها ويغترف من معينها، ويرى فيها أولياءً قد مدوا إليه أيديهم بغذاء الروح، وهو يريد الآن أن يتم لروحه ما سبق لها أن تعلقت به.

وشاء الله أن يصل الشيخ إلى القاهرة وقلادة العِقْد منها الجامع الأزهر.

لقد أقبل عليه وعلى رجاله يسمع منهم، ويقرأ عليهم، ويتحمل عنهم.

وقائمة الرجال الذين تحمل الشيخ عنهم وسمع منهم طويلة، نذكر منها ونترك، ونحن لا نصدر فيما نتركه، ولا فيما نذكره عن تفضيل بين الرجال، فربما ما ذكرناه يكون أقل درجة مما تركناه عند الله، ولكنها ضرورة الكتابة والإملاء.

فمن المشايخ والأساتذة والمربين الذين قابلهم الشيخ زروق في مصر، وبين جنبات الجامع الأزهري:

١- محمد السخاوي (توفي سنة ٩١٣هـ /١٥٠٧م).

٢- شمس الدين الجوجري (٨٩٦/١٤٩٠م-١)

٣- نور الدين التنسي.

٤- أحمد الشوابطي (أو: الشواطبي).

٥- عبد الرحمن القباني.

٦- عبد الرحمن بن حجر.

٧- أحمد بن حجر.

٨- محيي الدين الدمشقي.

٩- محمد القرشي.

١٠- التاج عبد الله بن محمد المؤقت.

١١- أحمد الشاوي.

١٢- أبو المجد (أو: ابن أبي المجد).

١٣- أبو زكريا بن سعد.

١٤- أبو إسحاق التنوخي.

١٥- نور الدين السنهوري (٨٨٩هـ/١٤٨٤م).

١٦- شهاب الدين الأبشيهي.

١٧- إبراهيم الدميري (٩٢٣هـ/١٥١٧م).

١٨- أحمد بن عقبة الحضرمي (٨٩٥/١٥١٩م).

قابل زروق شيوخه في القاهرة التي وصلها عام (٨٧٦هـ/١٤٧١م).

وامتازت دراسته على أساتذته بميزتين يشكلان مذاقًا واحدًا.

فهو وإن كان قد أخذ علوم الشريعة على يد أساتذة القاهرة، فهو قد عبَّ من مَعين التصوف بها بغير حدود.

وهذه النتيجة يعرفها كل من تعرف على الكتب التي ذكر أنه قد سمعها في القاهرة من المتخصصين فيها.

فهو قد سمع وقرأ في مجالي الفقه والحديث:

١- الأحكام الصغرى لابن عبد الحق.

٢- كتب ابن أبي جمرة.

٣- المدخل لابن الحاج.

٤- صحيح البخاري.

وهو قد سمع وقرأ في مجال التصوف:

١- إحياء علوم الدين للغزالي.

٢- الرسالة للقشيري.

٣- مؤلفات ابن عطاء الله السكندري، من نحو: (الحكم، التنوير، لطائف المنن، تاج العروس، مفتاح الفلاح).

٤- عوارف المعارف للسهروردي.

٥- مؤلفات المحاسبي.

٦- قوت القلوب للمكي.

من وقع الحافر على الحافر:

استقر الشيخ في القاهرة، وبين أروقة الأزهر، ومع علماء مصر وشيوخهم، رجى الشيخ أن يجد راحته النفسية، وهدوء البال واستقرار الفؤاد.

ولقد نوهنا أن الشيخ زروق قد جلس إلى كثير من العلماء، أثبتنا بعضهم بين يديك.

ومن أكثر العلماء الذين ارتبط بهم الشيخ في مصر اثنان.

أولهما: الشيخ السخاوي، وهو محمد بن عبد الرحمن السخاوي (٨٣١هـ-٩٠٢هـ = ١٤٢٧ - ١٤٩٧م)، أصله من سخا وهي قرية مصرية، ومولده في القاهرة، ووفاته بالمدينة، ساح في البلدان سياحة طويلة.

لقبه: شمس الدين، وشهرته في نسبته إلى أصله: السخاوي.

وله اهتمامات متعددة بالعلوم، كالتاريخ والأدب، والتفسير والحديث... الخ.

وقد ترك كثيرًا من المصنفات قد بلغت نحو المائتي كتاب، أسماء كثير منها معروفة مشتهرة، منها المخطوط ومنها المطبوع.

ومن أشهرها: "الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع" وقد ترجم فيه لنفسه في نحو ثلاثين صحيفة، كما ترجم للشيخ أحمد زروق.

وكان مما قاله في ترجمته للشيخ أحمد زروق في كتابه "الضوء اللامع" أن قال: "ارتحل الشيخ زروق إلى الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة، وأقام بالقاهرة

نحو سنة مُديمًا للاشتغال عند الجوجري في العربية والأصول وغيرهما، وقرأ عليّ (بلوغ المرام)، وبحث عليّ في المصطلح بقراءته، ولازمني في أشياء، وأفادني جماعة من أهل بلاده ".

تعرف الشيخ زروق على الشيخ السخاوي في عام ٨٧٦هـ- ١٤٧١م، وتوثقت علاقته به حتى قرأن عليه ما قرأ.

غير أن ما قرأه وسمعه من الشيخ السخاوي كان كله في علم الظاهر، أعني في علوم الشريعة وما يخدم علوم الشريعة.

والشيخ السخاوي كان تلميذًا لرجل يمني من حضرموت هو: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن محمد بن عمر بن عقبة، الشهير بـ (الحضرمي).

وهذا قد جاء إلى مصر – على ما يبدو – راغبًا في نشر ما عنده من علم، راجيًا أن يكون له في مصر أتباع مريدون.

وبيئة الحضرمي فيها التصوف، وفيها التشيع الزيدي.

وهو على ما يبدو لم يجد ضالته في مصر، ولا يَبْعُد أن يكون قد صدَّ المصريين عنه لمسة التشيع فيه، أو أن يكون قد صدهم عنه حدة الطبع، أو الطبع البدوي، وهي طباع لا توائم طبائع المصريين وما جُبلوا عليه.

على أي حال إن الشيخ الحضرمي كان لا يألف المصريين ولا يألفونه على ما سيظهر لنا بعد.

لقد كان الشيخ السخاوي إذًا على علاقة بالشيخ الحضرمي المتصوف.

ولعل هذه العلاقة بين الشيخين هي التي أتاحت للشيخ زروق أن يقترب من الشيخ الحضرمي فيما يظهر لي.

قصة تفتقر إلى الدقة:

لقد اجتمع للشيخ زروق ما قد اجتمع له في بلاده من دراسة علوم الشريعة وعلوم الحقيقة.

وإذا كنا قد عرفنا ما تهيأ للشيخ زروق في فاس من مشايخ في الشريعة،

وآخرين في التصوف والسلوك.

وإذا كنا قد عرفنا ما تهيأ للشيخ زروق في القاهرة من مشايخ في الشريعة، وآخرين في التصوف والسلوك، فإنه يبقى لنا أن نعرف الارتباط بين الشيخ زروق والشيخ الحضرمي أسبابه وبداياته.

وفي هذا المجال تصادفنا قصة تفتقر إلى الدقة يرويها من روى قصة الجفوة بين الشيخ زروق وبين الشيخ الزيتوني.

وراوي القصة هناك والقصة هنا، هو: ابن عسكر.

ولعلك على ذِكْرٍ مما ذكره هناك.

أما ما ذكره هنا فهو عجيب وفيه: أن الشيخ زروق ما أن وصل إلى القاهرة حتى وجد مريدي الحضرمي في انتظاره، وأخبروه أنهم في استقباله بأمر شيخهم، فلما أوقفوه عليه، قال الشيخ زروق: ماذا فعلت بكم الأفاعي العمياء؟ مشيرًا إلى الزيتوني، ثم قال: يا أحمد يا ولدي: كنِ معنا نهيئ لك الحج، ثم تمكث معنا فترة بعدها،

ثم يكمل ابن عسكر قصته فيقول: إن الشيخ الحضرمي بينما هو وسط مريديه، إذ بهمَ يسمع ون صوتًا، ويرون الشيخ يرفع يديه مكبرًا، ثم قال لجلسائه: قوموا بنا ننظر زروقًا في بيته الذي هيأناه له، وفوجئ الشيخ ومريدوه بأن البيت قد سقط على الشيخ زروق، فقال الحضرمي: احفروا عليه فحفروا فوجدوه في زاوية من البيت قد حمته من الردم خشبة، فلما أخرجوه، قال الحضرمي له: هذه يا أحمد آخر ضربات الزيتوني لك، لقد ضربك ضربة من مكانه دفعتها بيدي عنك، وهذه يرى قد كُسرت وأنا أدفع عنك ضربات الزيتوني.

وأراهم يده فإذا هي مكسورة بالفعل.

انتهى ملخصًا.

وكلام ابن عسكر ربما يُعَوِزه الدليل كي نعتمده سببًا لإنشاء العلاقة الوطيدة بين زروق والحضرمي.

وكاتب هذه السطور يستريح إلى أن مَنْشَأ هذه العلاقة أمران:

أحدهما: هذه العلاقة بين السخاوي والحضرمي.

وثانيهما: هذه الرغبة الشديدة عند زروق في أن يعلو كعبه في التصوف وأن يرتفع قامته فيه.

سببان على أي حال قد انتهيا معًا إلى إنشاء هذه العلاقة بين زروق والحضرمي.

والسببان معًا يرجعان إلى زروق نفسه.

وأنا أضيف إلى هذين السببين سببًا ثالثًا مرجعه إلى الحضرمي.

وخلاصة هذا السبب: أن الحضرمي إنما جاء من جنوب الجزيرة العربية إلى مصر راغبًا في أن يجد لنفسه مكانة ولآرائه انتشارًا.

فلما صدم في أهل مصر ورأى أن تربتها ومناخها لا يصلحان لنشر آراءه وأفكاره مد بصره إلى ما وراء مصر من شمال إفريقيا من "ليبيا" و"تونس" و"الجزائر" و"المغرب الأقصى" على شاطئ المتوسط والمحيط.

والشيخ الحضرمي قد نما إلى علمه أن في طباع المغاربة ما يصلح أن يكون تربة يبرز فيها آراؤه.

ومع هذا الإغراء فإنه لم ينكشف لي السبب الحقيقي الذي قعد بالحضرمي عن أن يشد الرحال إلى بلاد المغرب.

شيخ الحقيقة والشريعة:

ومهما كانت الأسباب التي جمعت بين الشيخ زروق وبين الحضرمي فإن الأهم منها أن نقول: إن الشيخ زروق قد وجد في صحبته للشيخين (السخاوي، والحضرمي) بُغيته وطُلْبَتهُ.

وطُلبة زروق وبغيته كأن ينشئ في قلبه رافدين وينبوعين يمدانه معًا بعلوم الشريعة لا لشيء إلا لأن شخصيته منذ نعومة أظفاره قد تهيأت وتكونت على استقبال هذين الينبوعين بحيث قد أصبح جازمًا بأنه لا حقيقة بغير شريعة إذ لو وجدت لكانت على غير أساس وأن الشريعة إذا لم توصل إلى الحقيقة بقيت ناقصة محتاجة إلى الكمال.

فرح الشيخ زروق بعلاقته بالشيخين.

وفرح الحضرمي بمعرفته بالشيخ زروق.

مفاجأة مقلقة:

ومع فرح الشيخ زروق بالقاهرة ورجالها والأزهر وعلمائه إلا أنه قد بدأ يقلق مما يحاوله الحضرمي معه حيث كان يلح عليه بكراهية المصريين وأن مـن أقـام بمصر فترة يجب عليه أن يغادرها ليجدد إيمانه.

ثم هو – مع ذلك – كثير الإطراء على أهل المغرب فهم تربة صالحة وعلـى أرضهم المناخ المناسب لنشر العلم وصفاء الروح وتقوية الإيمان.

ومهما حدث من أمور فإن الشيخ زروق قد انتهى في مصر من وضع مـنهج في حياته يقوم على أساس الجمع بين الشريعة والحقيقـة، بـين الفقـه والحـديث والتفسير... من جهة وبين علوم التصوف وإشراقاته من جهة أخرى.

انتهى من استكمال هذا المنهج الذي أدى به إلى الاعتقاد بـأن المعرفـة لهـا طريقان.

الطريق الأول: هو هذا الطريق الذي يعتمد على مـصادر الـشريعة وأسـسها المعتمدة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

والطريق الثاني: هو هذا الطريق الذي يعتمد على تصفية النفس وتحرير العلاقة مع الله وتخليص القصد له وحده.

ولقد أيقن الشيخ زروق أن هذين الطريقين بينهما علاقة التكامل لا التـوازي، فالشريعة أساس وبناء تحتي والتصوف بناء فوقي ينهار ويفقد قيمته إذا غاب أساسه بالإهمال أو الانصراف عنه.

وهذا المنهج الذي تكامل بين يدي الشيخ زروق لم يكن عنده بمثابة التـرف أو السياحة الفكرية وإنما الشيخ قد فعّل هذا المنهج في ذاته وألحَّ عليه بين يدي قرنائه ومريديه كي يتخذوه منهجًا يجب تفعيله ولا يجوز إهماله أو التغاضي عنه حتـى اشتهر الشيخ زروق بأنه "الجامع بين الشريعة والحقيقة ".

جفوة لا تظهر على السطح:

ولقد احتفظ الشيخ زروق للشيخ الحضرمي بشيء من الأسرار الغامضة التي تشبه ما احتفظ به في صدره للشيخ الزيتوني في "فاس".

وأنت لو تأملت من خلال موازنة عابرة في شخصية كل من الزيتوني والحضرمي لوجدت شيئًا من التشابه أقل مظاهره: حِدَّة الطبع في الشيخين والرغبة في الاحتواء والسيطرة وفرض الرأي على ما رأيت من الزيتوني وعلى ما سترى من الحضرمي.

أما الحضرمي فكان كثير النَّيْل من المصريين العامة منهم والخواص على السواء والشيخ زروق يسمع ولا يعلق لكنه يملأ ذاكرته بما يسمع ولعله كان يضيق صدرًا به خاصية إذا ما رأى الجفوة تتسع وتزداد تورمًا فيما بين علماء الشريعة وعلماء الحقيقة.

إهمال متعمد أو غير متعمد:

والكاتب هنا يصرح بما يجده في صدره.

إنه يجد الشيخ السخاوي وهو يترجم للشيخ زَرُّوق ثم يتطرق إلى علاقته بالشيخ الحضرمي لسبب لا يعرفه الكاتب أو يعرفه ولا يملك الاستدلال عليه.

وأفضل من هذه الاستنتاجات أن ينقل الكاتب هنا ما ذكره السخاوي عن الشيخ زروق في ترجمته، وبَحْره فيه.

قال السخاوي في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) ج١ ص٢٢٢ طبع دار الحياة – بيروت – لبنان (أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى الشهاب البرنسي المغربي الفاسي المالكي ويعرف بزروق – بفتح المعجمة ثم مهملة مشددة بعدها واو ثم قاف– ولد في يوم الخميس ثامن عشري المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة ومات أبواه قبل تمام أسبوعه فنشأ يتيمًا وحفظ القرآن وكتبًا وأخذ عن محمد بن القسم أحمد الغوري وارتحل إلى الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة مديمًا للاشتغال عند الجوجري وغيره في ا لعربية والأصول وغيرهما وقرأ عليَّ بلوغ المرام وبحث عليَّ في الاصطلاح بقراءته ولازمني في أشياء وأفادني جماعة من أهل بلاده والغالب عليه التصوف والميل فيما يقال – إلى

ابن عربي ونحوه، وقد تجرد وساح وورد القاهرة أيضًا بُعَيْد الثمـانين ثـم تكـرر دخوله إليها ولقيني بمكة في سنة أربع وتسعين وصار له أتباع وسحبون وكتب على حِكم ابن عطاء الله، وعلى القرطبية في الفقه وعمل فصول السلمي أرجوزة).

ومما يدهش كاتب هذه السطور أن من جاءوا بعده كثير منهم أهمل الإشادة إلى الحضرمي.

فـ "الزركلي" مع اعتماده على كثير من المراجع منها: "الضوء اللامع" وغيره لم يُشِر إلى الحضرمي في ترجمته لزروق وعليه فهو لم يُشِر إلى العلاقة الكائنـة بينهما.

قال في "الأعـلام" ج١/ ص ٨٧، ٨٨: (زروق (٨٤٦-٨٩٩هـ = ١٤٤٢-١٤٩٣م) أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي أبو العبـاس، زروق: فقيه محدث صوفي، من أهل فاس بالمغرب. تفقه في بلده وقرأ بمـصر والمدينـة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح. وتوفي في تكرين (من قـرى مـسراتة، مـن أعمال طرابلس الغرب) له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحريـر، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف.

والشيء نفسه صنعه صاحب "معجم المؤلفين" رضا عمر كَحَّالَة ج١/ص١٥٥. قال: (أحمد زروق ٨٤٦ - ٨٩٩هـ- ١٤٤٢-١٤٩٣م) أحمد بن أحمد بن محمـد بن عيسى البرلسي الفاسي المالكي، الشهير بزروق (شهاب الـدين أبـو الفـضل) صوفي فقيه محدث. ولد بفاس في ٢٨ المحرم، وتوفى في صفر بتكرين من عمـل طرابلس الغرب.

والذين أرخوا للشيخ زروق من المحدثين درجوا على ما كان عليه سـابقوهم، وهذا لا يعني أن الحضرمي لم يكن له تأثير في حياة الشيخ أحمد زروق؛ ذلك أننـا قد وجدنا مراسلات بينهما تصل إلى الشيخ زروق في حله وترحاله.

نذكر بين يديك نماذج منها:

(١) حين رحل عن القاهرة وكان معه رفيقه محمد الخصاصي وصلهما وهما بتونس خطاب من الحضرمي، هذا نَصُّه:

"... السلام التام والتحية والإكرام. إلى حضرة عبد فقير مفتقر وذليل مُحتَقر، طالب وراغب الدخول والذهول في حضرة الجمع بحق محمد وآله وصحبه.

وصلني كتابكم من طرابلس المغرب وفهمت ما فيه.

ثبتك الله بالقول الثابت في الدنيا والآخرة.

والسلام عليكم من فلان وفلان – وذكر جماعة من الإخوان – سلام بالنظر محفوف، وبالمحبة ملفوف. وكتبت الكتاب على عجلة كبيرة.

عليك بتقوى الله في كل ساعة ولحظة ونفس من أنفاسك، ودوام المراقبة والذكر مع مراقبة الخالق.

كن مع الله واترك ما سوى الله. وعليك بالطلب والسير إلى الله تعالى في كل لحظة وطرفة والشفقة للخلق مع مراقبة الخالق، كن مع الله، اطلب الله افتقر إلى الله تجد الله ".

وفي رسالة أخرى خاصة بزروق وصلت مع الرسالة السابقة نقرأ: "... إلى حضرة أخ في الله ومحب في الله، ومتحرك وساكن بالله، من هو شاخص إلى أهل الله وراج نفحة من نفحات الله. المتعرض لرشقات سهام التوحيد في هجاء معارك فرسان التجريد والتفريد، البائع نفسه بضربة لازب من غير توجيب ولا تهديد، أمات الله حواسه وأذهب وسواسه ونصره على خنّاسه وسقاه من الحب كاسه حتى يعود من أكياسه. وعافاه من نزغات البعد والطرد وأنسه بموانس أنس أهل عناية الأزل في الفريق الأول بحق محمد وآله وصحبه وسلم.

وصلني كتابكم صحبة الركب وغيره وفهمت ما أعددته لنفسك ومع محمد الخصاصي. جعلكم الله من خواص عباده. ولم تذكروا ما يتعلق بنا، وما ذلك إلا لأن المقادير شغلتكم عن نفوسكم. والسلام عليكم من فلان وفلان (وذكر الجماعة). وكتبت الكتاب وأنا في تفرقة وتشتيت. ولولا سوء تذكرة الأعذار وضرورة الاختيار والاضطرار في الأغيار، ودواعي طوالع الأفئدة في الضمائر والأسرار، المندرج تحت زمام الأقدار، لبسطنا بسطاً تولع به نفوس أهل الكمون ورجعنا إلى ما نحن فيه

وفي رد له على إحدى رسائل زروق،- وربما كان هذا في بجاية سنة ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م يقول الحضرمي:

"وصلني كتابكم وفهمت ما فيه، جزاكم ال له عنا خيرًا وجعل لكم نصيبًا... وجميع ما ذكرتموه وأوردتموه وحصل في ظاهركم وباطنكم في اليقظة والمنام هو بركة حسن الظن في الأنام أو بعض الأنام، فهو نور مشرق وطارق مطرق وبحر مفقر وما هو بتيار مشفق. وانشرحنا نحن وجميع الأخوان بموافقتكم واتفاقكم وصحبتكم جعلها الله مصحوبة بالله في الحركة والسكون. سلمك الله من عوارض الأقدار سائرة إلى الله تعالى – بِسَيْرِ السيَّار، طائرة بأجنحة التوفيق في فضاء القرب مع كل طيار وحفظكم الله ورعاكم وأمدكم بما أمد به أهل عنايته.

وبعد، فعليك بتقوى الله في كل ساعة... واترك ما سوى الله قط واحتمل الأذى من كافة العُصَاة أكثر من الطائعين، واستعن بالله في ذلك جميعه، أعانكم الله تعالى كلكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ".

أرأيت إلى هذه الخطابات ولهجتها؟!

إنها تشير أول ما تُشير إلى هذه القبضة القوية المتصلة بالشيخ الحضرمي والموجهة إلى زروق لا يكاد ينفصل عنها ولا تكاد تنفصل عنه.

هذا ما يبدو لكل ناظر في هذه الخطابات بادي الأمر.

ومن يتأمل بعد البُدُوِ يجد أنه أمام لون من الخطاب يشبه خطاب الشفرة التي لا تبيح بأسرارها إلا لكل خبير بحل الشفرات وأنا كاتب هذه السطور ربما أكون جانحًا إلى الخطأ في التفكير لو حملت هذا الخطاب الذي صيغت به هذه الرسائل على لون من ألوان الرمز الصوفي لأن في بعض جنباته إشارات لمسائل شخصية ووقائع معينة وهي إن كان قد بدا منها شيء فقد سترت أشياء.

ونحن لا ندري إن كنا نحملها على التعبير عن سوء العلاقة بين الشيخين أو نحملها على استهداف مصلحة للرجلين أو نحملها على تمام الإخلاص الذي وحد أهداف الرجلين.

فلنترك المستور إلى الظاهر والمغمور إلى المعبَّر عن نفسه.

ولنعد إلى ما نحن فيه.

عودة السائح وأيامه على طريق العودة

خرج الشيخ زروق من فاس قاصدًا الحج فكانت مكة والمدينة محط رحاله، أقام فيها ما شاء الله له أن يقيم، ولقى فيهما من العلماء ما قدر الله له أن يلقاه فيهما من العلماء.

جاور في مكة والمدينة عامًا، ثم كان طواف الوداع آخر عهده بمكة، وكانت زيارة الحبيب محمد آخر عهده بالمدينة، وقفل عائدًا إلى القاهرة.

ولئن كانت مكة والمدينة غذاء الروح للشيخ، فقد كانت القاهرة كعبة العلم، وساحة التدريب على السلوك الرشيد.

وما أن وصل إلى القاهرة بعد الحج حتى فتح قلبه ونفسه لينال من ينابيعها ما قدر الله له أن يحصل عليه.

وما حصل عليه الشيخ في القاهرة هو ما اصطحبه معه في طريق العودة.

ومما حصل عليه: هذه الإجازات من العلماء، ومن أهمهم: الشيخ محمد السخاوي، حيث أجازه في أكثر من علم بإسماعه والسماع منه.

ومما حصل عليه: هذه العلاقة الغامضة في بعض جوانبها بالشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي، وهي علاقة توطدت ودامت ثمانية أشهر، وكان لها تأثيرها على الشيخ زروق كما علمت.

ومما حصل عليه في القاهرة: وقوفه على نفثات الشيخ المصدور، وهو الشيخ الحضرمي التي كان ينفثها هنا وهناك، تحمل الكراهية لمصر، وتريد لكل زائر لمصر أن يحمل مثلها في صدره.

ومما حصل الشيخ زروق في مصر: هي صداقة الزمالة التي ربطت بينه وبين محمد الخصاص، الذي سيرافقه في رحلته من القاهرة يجوبان السُّبل معًا إلى كثيرٍ من مناطق أفريقيا.

لقد حُمِّل وحَمَل الشيخ هذه المعاني وغيرها من مصر قبل أن يشد الرحال مُيممًا أجزاء من شمال أفريقيا، يحط في بعضها الرحال، ويجوز في بعضها، لا يمكث فيها إلا بمقدار التقاط الأنفاس.

اللقاء الأخير:

عزم الشيخ ورفيقه على الرحيل.

وكان للشيخين زروق والخصاص علاقة بأستاذهما الحضرمي، تقربهما من مجلسه وربما قربتهما من قلبه.

وعلى لسنة المتصوفة، وأعراف الخُلق الرشيد، أنه في ساعات الفراق بين متقاربين لابد من لقاء الوداع، يستودع كل من الطرفين الآخر أشواقه ومواجيده، ويتلقى أدناهما من إمامه الوصايا التي تشد ظهر الراكب، وتقوى عزائمه، وتحمله على أن يهون على نفسه آثار ما يقابله من صعاب.

وعلى هذه السنة وتلك الطريقة ذهب زروق والخصاص إلى الحضرمي يلقيان عليه وعلى مجلسه نظرة الوداع.

ولم يكن الحضرمي على مسافة واحدة في علاقته بالرجلين، حيث كانت ودادته إلى زروق أقوى، ومسافته إلى قلبه أقرب.

ولم يفت الحضرمي أن يتلق على زروق ما كان يتلوه عليه من معانٍ استودعها بيت شعرٍ واحد، رواه عنه زروق نفسه.

وهذا البيت من الشعر أثبته الآن بين يديك؛ لتقف بنفسك على ما فيه من معاني.

لقد قال الحضرمي لزروق:

"سلِّم لسلمي وسر حيث سارت   واتبع رياح القضا ودر حيث دارت"

تلقى زروق هذا البيت الحاشد بالألغاز، ووقف أمامه متأملاً في ألفاظه ومعانيه.

وانتهى زروق من تأمله إلى أن حمل مقصد البيت ومعانيه على ما يحب ويهوى من فهم حقيقة التصوف ومراميه.

إن التصوف عند زروق – كما علمت- ينطلق من أساسه الأول، وهو: أنه لا قوام للتصوف، ولا وجود له، إلا أن يكون المتصوف قد اتخذ من الشريعة نقطة انطلاق فيه، وأساسٍ قوي له.

إن سلمى التي طلب الحضرمي من زروق أن يسلم لها، وأن يسير خلفها حيث سارت، هي: الشريعة، وما لها من أحكام ظاهرة تستند إلى مصادر واضحة، وتُستنبط من أدلة متفق عليها ضمنًا لدى العلماء.

ولم ينسَ الحضرمي أن يكيل المديح لأهل المغرب، وأن ينتقص من أهل مصر، وهو أمرٌ ليس بجديد على الحضرمي، وإنما هو شيء دخل في تركيبة نفسه، حتى أوشكت علاقته بالمصريين أن تكون ظاهرة من الظواهر التي بدت على الحضرمي، تعبر عن فقده للآمال التي تعلق بها عند قدومه إلى مصر.

والشيخ زروق يعلم الكثير ممن انطوت عليه نفس الحضرمي تجاه المصريين.

فإذا كنا لا نعلم الكثير عن تعاليم الحضرمي وطريقته، فإنه يمكن أن نحكم عليه من خلال رسائله وأقواله التي خلفها زروق عنه، بأنه كان رجلاً خابت آماله، وانحصر همه في توجيه النصيحة إلى أتباعه بالبعد عن الحياة والناس والمواظبة على الذكر والتسبيح. ويبدو أحيانًا وكأنه لم يفقد الأمل تمامًا في الناس جميعًا، رغم إخفاقه في مصر، لنشر طريقته وتعاليمه، وبخاصة بين أهل المغرب.

الخروج:

وعزم الشيخ زروق ورفيقه على الخروج من مصر واتخذ لذلك الأسباب.

ولقد بدأ خروجه في أواخر عام (٨٧٧هـ- ١٤٧٣م)، وأعظم فرحه أنه قد انتسب إلى الطريقة القادرية حيث حمله الشيخ الحضرمي على الالتحاق بها.

وأنت قد علمت أن الرسائل لم تنقطع بين زروق والخصاص من جهة، والحضرمي القابع في القاهرة من جهة أخرى.

وقطع الشيخان أرض مصر، كما زرعا أرض ليبيا، وأدخلها السير إلى أرض تونس، بقيا فيها قليلاً من الزمن ولم يتركا لنا فيها آثارًا سوى ما سجله زروق من مراسلات بينهما وبين الحضرمي.

في بجاية:

وجدّ الشيخان المسير تجاه المغرب إلى أن وصلا إلى بجاية.

وهي مدينة ساحلية قديمة تقع الآن داخل حدود الجزائر. كانت في أول أمرها

ثغرًا من ثغور هذه المنطقة، ومرسى للسفن، ثم تحولت إلى مدينة سكانية عامرة.

يقول عنها صاحب كتاب (معجم البلدان) ياقوت الحموي:

بِجَايةُ: بالكسر، وتخفيف الجيم، وألف، وياء، وهاء: مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب، كان أول من اختطّها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مَناد بن بُلُكيِّن، في حدود سنة ٤٥٧، بينها وبين جزيرة بني مَزْغَنَّاي أربعة أيام، كانت قديمًا ميناء فقط ثم بنيت المدينة، وهي في لِحفْ جبل شاهق وفي قبلتها جبال كانت قاعدة مُلك بني حماد، وتسمى الناصرية أيضًا باسم بانيها.

وصل الشيخ زروق إلى بجاية، وبقى فيها مدة غير معلومة وإن كانت طويلة نسبيًا.

ومُقامه في بجاية لم يتحدث هو عنه، كما لم يتحدث غيره عن هذا المُقام، لا عن مدته ولا عن معالمه.

غير أن للشيخ كُتبًا كتبها، وتعليقات على كتب سطرها، ومراسلات بينه وبين الشيخ الحضرمي، وأصدقاء ومريدون ذكر التاريخ بعضهم.

وكل ما ذكرناه وما لم نذكره يتحدث عن الشيخ في بجاية، ويحمل تواريخ تقول: إن من أعمال الرجل الكثيرة أعمالٌ وقعت في بجاية.

ومن يتأمل هذا كله لابد وأن يكون جازمًا بأمرين:

أحدهما: أن الشيخ طاب له المُقام فترة في بجاية.

وثانيهما: أنه كان له في بجاية أصدقاء ومريدون: تهيأ له بسببهم طول المُقام، فنشر علمه، وأسس لتصوفه، وأنشأ كُتبًا وعلق على أخرى.

إلى فاس:

وفرحت بجاية بمقام الشيخ زروق بها، إذ بمُقامه في بجاية يكون قد تحقق لهذه المدينة وصفٌ جديد، حيث صارت مَجْمَعَ البحرين: بحر العلم الزروقي الذي حل بها حديثًا، والبحر المتوسط الذي قبعت بجارية على شاطئه منذ عشرات السنين.

ولأمر ما انفعلت له نفس زروق، قرر الرحيل عن بجاية بعد أن أقام بها سنوات.

والرحيل هذه المدة إلى حُضن جبالٍ تعرف اليوم باسم جبال الريف، حيث بها مدينة فاس مسقط رأسه، وملعب صباه، ومحضن تمائمه، ومشرق علمه وتربيته.

وقد أسلمه الشوق إلى الرحيل.

وكان رحيله ما بين عامي (٨٧٩ – ٨٨٠هـ = ١٤٧٤- ١٤٧٥م).

سيرة الشيخ بين يديه:

ورحل الشيخ ترافقه آماله وأغراضه، وبين يديه مركبه ورحله.

غير أن سيرة الشيخ وسُمعتَه قد خَفَتًا، يشتد بهما العدو، وتسرع بهما الخطى، فسبقاه إلى أرض فاس، تُشرق المدينة بهما، أو تُظلم بسببهما بعض جوانبها المتمثلة في نفوس بعض أقرانه وأترابه.

وعلى أي حالٍ كان، فإن الشيخ ما يزال يُجدُّ السير، تجذبه آماله، وتحمله على السير رغباته.

وفي نفسه أنه قد انقطع إسبع سنين كوامل عن مدينة فاس، وصورتها القديمة ما تزال في ذهنه؛ ففيها رفات جدته وأمه وأبيه؛ وفيها الزيتوني ومحبة صداقته له في أول لقاء، ومرارة انصراف الشيخ عنه آخر عهده به انصرافًا مخلفًا للشيخ أربعين يومًا من قسوة العقاب، ومخلفًا إشاعة تُردد أنه يهوديٌّ أو مائل إلى اليهود، قاسى بسببها ما قاساه.

وقد انتهت هذه التركيبة الاجتماعية المعقدة بقرار اتخذه زروق، فترك بلده وهو يدعي أنه ذاهبٌ إلى الحج لم يدفعه إلى ترك بلده شيء غير هذا.

إنها صورة تتحرك أمام فؤاد زروق يذكر من خلالها ماضية وما مر به في سالف الأيام.

ثم إنه تتحرك أمامه صورة أخرى يرسمها له خياله، فتثبت أمام ناظريه أو لا تثبت عما عسى أن يكون عليه مدينة فاس، وما عسى أن يكون عليه علماؤها وفقهاؤها بعد هذه السنوات السبع التي قضاها الشيخ زروق خارج فاس، بين حلٍ وترحال، وبين استقرار في خدمة العلم وسياحة بين حاضرة وأخرى.

استقبالٌ مخيب للآمال:

وبينما الشيخ زروق ينتقل من مكانٍ إلى مكان، فإن سيرته وسمعته اللذين قد سبقاه إلى فاس قد حملا علماءها وفقهاءها على أن يتحدثوا في خلواتهم وجلواتهم عن حال المدينة حين يحط زروق رحاله بها.

وحين أشرف زروق على مدينة فاس، خرج علماؤها وفقهاؤها لاستقبال الرجل، ولكنه كان استقبالاً فاترًا لا يليق بعلمه، كما لا يناسب مكانته.

وسوف نترك المجال لابن عسكر يتحدث عن كيفية هذا الاستقبال.

ونحن نقرأ بعناية ما سجله ابن عسكر على لسان القاضي أبي عبد الله الكراسي حول هذا الاستقبال.

قال: لما قدم الشيخ أحمد زروق على فاس قادمًا من البلاد المشرقية خرج الفقهاء إلى لقائه، قال: وكنت ممن خرج معهم. فلما سلمنا عليه وجلسنا في خبائه، صار يسأل الفقهاء عن أسباب أقواتهم، فقال بعضهم: معظم القوت من الأوقاف المُحبَّسة على قبور الموتى. فقال الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله.. تعيشون من لحوم الميتة؟! فأجابه الفقيه ابن الحباك بأن قال: يا سيدي. الحمد لله الذي جعلنا نقتنص من لحوم الميتة، وهي مسوغة عند الضرورة في الشريعة، ولا جَعَلنا نقتنص من لحوم الأحياء الممنوعة من كل وجه. فصاح الشيخ وخر مغشيًا عليه. فخرجنا وتركناه.

موقف مجهول السبب:

استقبالٌ غير لائق استُقبل به الشيخ في فاس.

وقصة لا تخلو من عنفٍ متبادل بين الشيخ وفقهاء فاس.

تُرى ما الدافع وراء أن يطرح زروق سؤاله هذا على الفقهاء وتعليقه الجارح عليه؟

وتُرى ما سبب رد هذا الفعل المساوي لما فعله زروق في قوته، والمضاد له في الاتجاه إلى حد أنه قد أصابه في كرامته؟!

قد يكون سبب هذا وذاك تلك المصورة التي ارتسمت في نفوس فقهاء فاس عن

الشيخ زروق، وأنه قد انطبعت شخصيته على شيء من الحدة والغلظة يواجه بهما الفقهاء في كثير من مواقفه وكتاباته؛ فهو يرميهم بالنفاق والمداهنة، وهو يرميهم بالتقصير في طلب العلم، وهو يرميهم بعدم الحرص ونقص الحيطة في تحري الحلال فيما يأكلون، وما يشربون، وما يتملكون.

وقد يكون السبب في هذا وذاك ما قد تناقلته الأخبار عن تلك الفترة التي أقامها زروق في بجاية، وما قد تجمّع له من أصدقاء ومريدين، وما انتشر عنه فيها من حسن السمعة، وطيب المُقام، وصدق اللسان، وعلو القدر بما لا يحقق لهم الرضي عنه، ولا الفرح بمقدمه.

وقد يكون السبب في هذا وذاك ما انطبعت به نفوس القرناء والأتراب من العلماء والفقهاء في فاس من الغيرة التي قد تؤدي إلى الحسد، وتحلق المحبة من القلوب.

قد يكون السبب في فتور استقبال الشيخ هذا أو ذاك.

وقد يكون السبب في فتور استقبال الشيخ جماع هذا وذاك.

وقد يكون السبب في فتور استقبال الشيخ غير هذا وذاك.

إلا أننا مع هذه الاحتمالات قد لا نقوى على احتمال أن تصل الجفوة بين العلماء إلى حد أن يتركوا أحدَهم وقد سقط مغشيًا عليه دون أن يحاولوا إفاقته، ودون أن يحاولوا مساعدته.

إقامة مغمورة:

ولو أننا أضربنا صفحًا عن هذا الوضع المؤلم وعن معرفة الأسباب التي أدت إليه، والتفتنا إلى غيره، فإن هذا الغير الذي سنلتفت إليه لا يتجاوز إمعان النظر في أحوال الشيخ وهو بين أحضان مدينته ومسقط رأسه.

والمفاجأة الكبرى أن الشيخ لم يجد نفسه في مدينته وقد احتوته بذراعين من أذرع الفرح والشعور بحرارة اللقاء.

إن الشيخ كان يأمل من مدينته وساكنيها غير ما واجهته به المدينة، وما استقبله به ساكنوها، لقد كان استقبالاً فاترًا، ولقاءً لافتًا للنظر، إن دل على شيء فإنما يدل

على أن المكان قد نَبا به، ولم يعد صالحًا لمقامه فيه، الشيء الذي ترتب عليه أمران ظاهران:

أما **أحدهما:** فهو أن الشيخ قد اتخذ قراره بأن ينعزل عن الناس، وأن ينسحب من المجتمع، لا يتأثر به ولا يؤثر فيه.

ويؤكد ذلك هذه القصة اللافتة والمعبرة في نفس الوقت.

روى ابن غازي وهو المحب لزروق وسيرته قريبة من قلبه، أنه صنع وليمة، ودعا إليها الفقهاء والعلماء بفاس، ودعا زروقا معهم.

وكانت المفاجأة أن أحدًا لم يأتِ إلى هذه الوليمة غير زروق نفسه، مما يؤكد ازورار الفقهاء عن زروق، وعدم رغبتهم في حضور مجلسٍ يكون زروق فيه.

وأما **ثاني الأمرين الظاهرين:** فهو أن زروقًا برغم انسحابه من المجتمع، وانكماشه عن الظهور، إلا أنه قد استطاع أن يؤلف حوله قلوبًا، وأن يجتذب إليه شخصيات أحبته وتعشقته، وهم الذين قد اتخذهم زروق أساسًا قد بنى عليه بناءه الجديد الذي اشتهر في التاريخ الصوفي باسم: الزروقية.

سلام الله يا فاس سلامًا لا لقاء بعده:

حرص زروق أن يسير في جنبات فاس وحده يغدو ويروح، غير أن زروق لم يجد في جنبات فاس شيئًا من مسرة كلما غدا وراح؛ فقد ضاقت به مدينته وضاق بها، وازورت عنه وازور عنها، فلم ينتشله من همه أماكن تذكره بأيامه التي قضاها فيها فترة صباه.

ولم ينتشله من همه أيامه التي قضاها في حضن جدته التي علمته فيها أوائل الخُطى، إلى أن اشتد عوده وودع معها عصر صباه.

فوقف يخاطب سفح الجبل ليلاً يسائله عن الفضيلة التي لاذت به فتاةً في ريعان صباها تبكي وتنتحب بعد البكاء، يسائله عن سبب بكائها وعن أسباب انتحابها بعد البكاء، والجبل يجيب زروقا بإشارة صامتة: ولماذا لا تبكي الفتاة وأهلها دون خلق الله ماتوا، ثم يلتفت زروق إلى الصحراء يمد فيها ناظريه، يسائلها عما إذا كانت ترضي له المقام على هذه الأرض، وعما إذا كان له من

مقامه عليها من سبيل؟.

وتجيبه الصحراء وهي تكفكف دمعة الوداع، اذهب إليها العالم الجليل إلى مهجرك، فلم يعد لمقامك هنا من سبيل.

وألقى زروق على كل زاوية وزقاق، وعلى كل شارع وبناية، وعلى كل مقبرة ضمت الرفات نظرة الوداع.

ولم يحدثنا التاريخ عن أنه اتخذ إلى شيخ في فاس وسيلة إلى رجاءٍ في دعاء، ولا سبيلاً إلى استئذانٍ في رحيل.

وليس وراء ذلك من سبب إلا أن يكون الشيخ قد ضاقت به أرض فاس بما رحبت، وضاقت به نفسه فيها، فلم يعد أمامه إلا أن يرحل بغير وداع، وينصرف بغير استئذان إلى أرض المهجر.

وحمل زروق أمتعته ويمم جهة الشمال قاصدًا إلى مهجره الذي طاب له التنفس فيه.

لقد قضى في فاس أربع سنوات بعد انقطاع عنها دام سبع سنوات كاملات.

وما كانت هذه السنوات الأربع التي قضاها في فاس إلا هذه السنوات العجاف لم تثمر له شيئًا، ولم يعطِ هو فيها إلى وطنه عطاءً.

ويبدو أنه قد خرج إلى مهجره وهو يشعر بالدفع والجذب.

إنه يشعر بالدفع، لأن فاس بالنسبة إليه قد أصبحت بمثابة العلة الطاردة، أو في أقل القليل أنها قد أصبحت بالنسبة إليه كالسبب الدافع إلى الخروج.

وأما أنه قد خرج إلى مهجره متأثرًا بالجذب من أمامه، فما ذاك إلا أن تكون بجاية قد حلَت له، وهُيأت لاستقباله.

إنها قد حلَت له حيث شعر بوجوده فيها، أنها سعدت بوصفها الجديد، حيث صارت بعلمه مَجْمَع البحرين.

وهي قد حلَت له حيث إنها قد سعدت بوجوده سعادة من يجتمع عليها القطب يحيط به رفقاؤه ومريدوه في حالة من الصفاء والسرور.

وهو يلتفت إلى القوة الجاذبة فيُسر ويسعد.

وهو يلتفت إلى السبب الطارد فتصعد المرارة إلى فيه، ويشتد الكرب على صدره، يتأثر بسببه هو، وينتقل التأثر منه إلى مريديه.

خطابٌ يجسُم على صدره ولا يدري أمنتشلٌ أم مُفرق:

بهذين الشعورين وصل زروق إلى بجاية، وقد اختلطت في فهمه مرارة شعوره بالسبب الطارد، وحلاوة شعوره بالقوة الجاذبة.

ووسط هذه الطعوم المختلفة والأحاسيس المختلطة، جاءه خطاب من حاضرة مصر في أقصى الشرق من القاهرة، ممهور بخاتم الشيخ الحضرمي، وهو خطابٌ مزدوج الأذواق، مختلط المشاعر.

وأنا أحب أن أخلي بينك وبين هذا الخطاب تقرأه بنفسك.

جاء الخطاب إلى بجاية من الحضرمي إلى زروق قال:

"... السلام التام الخاص والعام يخص حضرة أخ في الله وراغب في جناب الله، فلان الفلاني، حرسه الله من دواعي الغرور وصانه من هفوات الشرور، وكفاه شر صفاته في ذاته، ووفقه لكل خير وعصمه من كل شر، بحق محمد وآله وصحبه.

وبعد، يعلم الأخ المقصر حق التقصير، الغافل عن صلاح التدبير والتحذير، أنا كتبنا لكم كُتبًا بينا فيها أربًا وبسطنا فيها غامضًا ورغبًا، لمن له ذوق وفهم، فمرت على أسماع نواظرك ومطالعتك في مشاهدتك، فلم تلتفت إليها مقالاً ولا حالاً.

وبلغني أنه حصل بعض تشويش من بعض الناس، فإن يكن هذا حقًا، فبالله رد لومك على نفسك، فإنها أصل ما وصل إليك من الأذى -- إن تأملت -- وانصف، واصبر على ما أصابك، كما قال لقمان عليه السلام لابنه.

والغم من تطرفات النفس -- فلو نظرت ببصيرة العيان لنظرت كل ما يطرأ عليك في الوجود جميعه -- داخلاً وخارجًا -- أصله ومبدأه فيك وإليك راجع. ولا تلم أحدًا. واحتمل الزمان فهو ليس أقصر من ساعة ولحظة. فافهم.

واعلم -- أيها الأخ -- أنك تفرّط في وقت لا يسع فيه تفريط المفرطين. واغتنم رقدة الغافلين على بساط الاجتهاد. وإياك ونهضة الطالبين على بساط الكسل.

وعليك بحفظ جوارحك الظاهرة والباطنة بما يقرب إلى الله تعالى. واحذر من نفسك قبل أن تحذر الناس، فإذا كَفيت نفسك فقد كُفِيت الكون كله. وتوجه إلى البقاء انسلاخًا إلى الفناء، واجتهد في التأهب يا أخي.

واحذر دواعي الالتباس. ولعل ذاتك مشغولة بشيء من الالتباس الذاتي، وتراه نورًا وهو ظلمة. عوفيت من كلٍّ ظاهرًا وباطنًا.

... وقد فرطت تفريط من وجبت عليه الوجوب، وقامت عليه حجج المطلوب. واشتغل بنفسك، وعليك بذكر الله... فهذا زمان الفتن والمحن، وعليك بالعزلة ودوام الذكر وإياك وملاحظة الغير مما سوى الله تعالى، تَرْشُد إن شاء الله تعالى.

ولقد قصرت تقصيرًا كان غيرك حقيقًا به، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولاً.

القاهرة تجتذب إليها زروق:

وصل الشيخ إلى بجاية ولم يكن فيها ما ينغص عليه ذكراه وعلاقته الحاضرة بمسقط رأسه فاس.

غير أن خطاب الشيخ الحضرمي وما فيه من لهجة قاسية، كانت بالنسبة إليه هي القشة التي أجهدت كاهل الشيخ.

ويبدو أن الشيخ الحضرمي قد أدرك فداحة ما فعلن وأنه تجاوز مرحلة اللياقة في مخاطبته لزروق.

والذي يبدو لنا أن الشيخ الحضرمي بطباعه البدوية لم يتمكن من إدراك أن زروقًا قد أصبح شيخًا، وأن مرحلة التلمذة قد أصبحت بالنسبة له مرحلة قد أضيفت إلى ماضيه، وأنه يعيش حاضرًا قد تجاوز فيه مرحلة التلمذة إلى مرحلة الريادة والإمامة.

يبدو أن الشيخ الحضرمي قد أدرك ذلك وحاول أن يستدرك على ما فعل، فألحق خطابه الأول بخطاب ضمنه الاعتذار إلى زروق ومحاولة استرضائه، من غير أن يكون هناك استبعادٌ لمسألة أن يكون الشيخ الحضرمي قد كتب إلي زروق يستقدمه إلى القاهرة ضيفًا عليها، وهي حاضرةٌ لا يُزهد فيها.

ويبدو أيضًا أن زروق قد رغب في الذهاب إلى القاهرة يغريه فيها أنها ستمكنه من التفكير في الحج، وستمنحه صفة أخرى لم تمنحه إياها في زيارته الأولى، وهي أنه سيكون هذه المرة في القاهرة شيخًا يُلقي دروسه، وإمامًا يُقتدى بـه، وصـاحب حَلقة يلتف الناس حوله.

وهذه وغيرها من أمثالها أمور تحول الحلم إلى حقيقة، وتُرِّغب فيها كل مخلص للدين، أو راغب في التميز الاجتماعي.

زاد الراكب إلى القاهرة:

تهيأت الأسباب واجتمعت للشيخ تحمله على الذهاب إلى القاهرة.

وارتفعت الموانع من أمام الشيخ فلم يعد شيء يحول بينه وبين شد الرحال إلى القاهرة.

وما كاد العام الرابع والثمانون بعد المائة الثامنة يُؤذن بالرحيل، حتى جمع زروق عليه همومه ومتاعه يحملهما في ذهابه إلى القاهرة، أملاً منه أن يتبدل الحال، وأن تصير الأجواء نقية، وتعود حبال الوداد إلى الوصال.

قطع زروق الطريق وهو مجاورٌ للساحل لا يكاد ينفك عن جواره حتى وصل إلى القاهرة.

وفي القاهرة حط الرحال وجاور بالأزهر الشريف، ووثق علاقاته بالشيخ السخاوي، وحصل منه على إجازات في علوم لم يكن قد أجازه فيها، كما حصل على إجازة أخرى من الشيخ الديمي.

والمَعلم الرئيسي في هذه المرحلة من زيارته للقاهرة، أنه التقى بالشيخ الحضرمي على وفاق مخلصٍ أو مصنوع، فصفى الجو بينهما صفاءً غير من لهجة الحضرمي معه. إذ أصبح الحضرمي يتعامل مع زروق على أساسٍ من الندية، وإن كان زروق نفسه لم يكن يمل من أن يظهر للشيخ أنه بالنسبة إليه في مرتبة التلميذ أو المريد على أكثر تقدير.

ومن يطالع حياة زروق يستشعر أنه في هذه المرحلة قد ذهب إلى أرض الحجاز لأداء نسك الحج والعمرة، ويتزود من الحرمين الشريفين.

والأزهر الشريف قد سلك زروقًا في سلْك نظام الأئمة والمشايخ والعلماء الذين تهيأ لهم إنشاء حلقات العلم بين جنباته.

ولقد طاب المقام لزروق في القاهرة على نحوٍ لم يلقَ عُشر معشاره في فاس؛ فبينما فاس مسقط رأسه قد نبذت به خلف جبال الريف، وعلى امتداده إلى الشرق، نجد القاهرة وقد فتحت له ذراعيها يأوى إليها إيواء الفصيل إلى ظئره، تمده بلبانها، وتهيئ له حياة الروح، وحياة العقل على السواء.

وبقي زروق عامه الذي أقبل فيه وتمام العام الذي يليه في القاهرة، لا يشكو همًا، ولا تطارده نفسه بألم، فبحار العلم فيها صافية، وعلاقته بالإخوان فيها عالية، وارتباطه فيها بالمريدين فاق كل خيال.

فنعمت القاهرة، ونعم الأزهر، ونعمت المودة، وما أحلى مجالسه الأقران.

مسراتة محط الرحال:

وفي العام السادس والثمانين بعد الثمانمائة من هجرة خاتم المرسلين، خرج الشيخ زروق من القاهرة متوجهًا إلى مسراته بليبيا، وهي حاضرة على المتوسط، يعرفها الناس كما يعرفون مدينتي بنغازي في الشرق، وطرابلس في الغرب.

ونُطْقها الصحيح كما كتبناها بالسين والتاء، وقد تنطق بحروفٍ غير هذه الحروف، والصحيح ما ذكرناه على ما هو في كتب الرحالة والمؤرخين.

ولماذا مسراتة:

وكتاب السير يتساءلون عن سبب اختيار زروق لهذا الموطن، وما الذي رغبّه فيه؟

أما زروق نفسه فقد شاء أن يطوي عن العالمين السبب الحقيقي وراء اختياره لمسراته مستقرًا له.

فهو يقول:... أما ما ذكرت من استطاننا هذه البلدة، فأمر خارج عن قياس النظر، غير مصحوب بالجزم، ولا معقود لشيء نعلمه، بل اتفاق ظهر وجوده فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق.

وما أنا بالباغي سليمي بديلة •• بليلى ولكن للضرورة أحكام

وما ذكره زروق هنا فيه إحالة على القدر، على ما هو حال الصوفية حين يتحدثون عما يجري عليهم من الأحداث.

وكاتب هذه الصفحات تظهر له أمور، يستريح إليها حين يتخذها سببًا يُسبّب به اختيار زروق لمسراته تكون مستقرًا له.

وأول هذه الأمور التي تظهر لكاتب هذه الصفحات، هذه الملاءمة الشديدة بين ما طبعت عليه هذه المدينة من عوائد وأخلاق، وبين ما توفر لزروق من الطباع.

فأنت ترى أن زروقًا ولد في مدينة فاس، وهي مدينة قد توفر لها من العوائد والطباع أهداها وأصفاها، وقد توفر لها من الطبيعة بعناصرها المختلفة أنظفها وأنقاها، كما توفر لها من أخلاق البشر أخلاقٌ لا تتطلع إلى الدنيا، ولا تحمل أصحابها على التشبث بها.

وهذه الخلائق والطباع التي أنضجت شخصية الشيخ، توفر قريب منها في مدينة مسراته.

ومن الأشياء التي ظهرت لكاتب هذه الصفحات وهي تصلح أن تكون أسبابًا لاختيار الشيخ لمسراته أن تكون مستقرًا له، أن مسراته وساكنيها بحكم سكناهم على شاطئ المتوسط، قد مُنحوا مزاجًا فيه من الصفاء، وهدوء الطبع، وإكرام ذوي المنازل الاجتماعية الرفيعة، وتقدير رجال الدين والإقبال عليهم، وتوقير الكبير والحنو على الصغير قدرًا لم يُمنح لمدينة أخرى ولا لساكنيها، إلا أن يكون قد توفر لها ولأهلها مثلما توفر لمسراته ولأهلها.

فبينما نجد زروقًا وقد وُضع في وسط قرناء له وأتراب في فاس في طبعهم الغيرة، وفي سلوكهم أن بعضهم ينفسُ على بعضٍ مرتبته، ويُصابُ بالشنآن عليه إذا تقدم عليه في درجته، على نحو ما رأيت، فإنه قد وجد نفسه على خلاف ذلك في مسراته في أول عهده به، وبعدما طال به المقام.

وبينما الشيخ قد وجد شيئًا من القلق في القاهرة سبّبه له الحضرمي المصدور، الذي أقام بالقاهرة وهو لها كاره، وتلقى كرم أهلها وهو عليهم غاضب، يحركه طبعه البدوي ورغبته في تحقيق مكانة في مصر لم تتهيأ له ولم يتهيأ لها، وقد تبعه

زروق كما تبع غيره من رجال الشريعة، فإذا اختلف إليه يأخذ على يديه التصوف صب في أذنه ما قد علمت.

فإذا ما اختلف بعد ذلك إلى رجال الشريعة من علماء القاهرة، وجد نفسَه قلقة.

وهذه أمور أعفته منها طباع مسراته، فوجد نفسه فيها هادئًا ناعمَ البال، نفسُه قد عرفت وحدة التوجه، وصدق القصد، وإخلاص السلوك، يتخذ من الشريعة قاعدة ينطلق منها إلى الحقيقة، فحلّى له المقام، واستمرأ تناول كأس الغرام.

وكاتب هذه الصفحات قد ظهر له من الأسباب التي حملت زروقًا على المقام في مسراته، أنه قد تهيأ له وهو يترك القاهرة إقبال الشيخ الحضرمي عليه، واعتذاره عما بدر منه، وتغيير المقاصد معه.

وفي لحظة وداعه للقاهرة أوصاه الحضرمي بوصية وقعت منه موقعها، حيث لاقت قلبًا خاليًا فتمكنت، وفؤادًا منفعلاً مشوقًا فهدأت وسكنت.

ففي لحظة الوداع كانت وصية الحضرمي إلى زروق؛ ففي يوم رحيله عن القاهرة عائدًا إلى المغرب – كما يقول– ذهب لشيخه يودعه، فأخذ الحضرمي رقعة وكتب عليها هذين البيتين، ودفعها إليه:

عش خامل الذكر بين الناس وارضَ به ** فذاك ألم للدنيا وللدين

من خالط الناس لم تسلم ديانته ** ولم يزل بين تحريك وتسكين

وكان طبيعيًا أن ترسخ هذه النصيحة في ذهن زروق، بل وأن تسيطر على تفكيره، وقد سمعها في لحظة عاطفية مشحونة بألم الفراق وذكريات أيامه الماضيات، وكان لابد أن يكون قد فكر في تحقيقها، وفي البعد عن المدن المكتظة بالسكان المليئة بالمفاسد والآثام، لقد مل فاس، وضجت نفسه من القاهرة، ولم يكن ليجد طرابلس أفضل منهما حالاً، وكان ما يبحث عنه مكانًا هادئًا مريحًا، كما يفعل الصوفية عادة في بحثهم عن السكينة وهدوء البال، وكانت مسراته هي المكان الأمثل لما يعوزه، وكان لابد أن يقع اختياره عليها. كانت نائية بقدر كاف عن أي مدينة كبيرة. تشوش عليها أو تقتنص منها صفاءها.

صفاء الوصال:

استقر زروق في مدينة مسراته، فهدأ باله وقرت عليناه.

وكان أول ما فكر فيه أن يراسل الشيخ الحضرمي في مصر.

ولأول مرة نجد رسالة زروق وقد فاضت كلماتها بالوداد، وعباراتها بالعرفان بالجميل، وسطورها بجماع عناصر الأخوة.

ودونك رسالتَه على وجهها فتأملها، ولا تُعرض عنها قبل أن تُسفر لك عن أسرارها، وتُعَرِب لك عن معانيها.

كتب زروق لأول عهده بمسراته وفي رجب من سنة (٨٨٦هـ- ١٤٨١م) إلى الشيخ الحضرمي. قال: من مقام الذلة والانكسار ومحل السكينة والاضطرار، إلى مقام الروح وشفاءِ القلب المجروح، سلام دائم، عطرٌ تتجدد نفحاته على مرّ الأيام...

ويا أيها السيد الذي حبه في القلب مبثوث، ووده في كل شيء من العبد مبثوث، لم يبق للعبد تشوف إلا إليكم، وليس له معوّل في الوجود إلا عليكم...

ثم يصلكم إن شاء الله حرام من حر مال أهلها... من إخوان لهم صدق وهمّة ومحبة وعزمة... وقد علمتم أني في مسراته بما كان وقع في قلبي من حركات الوجود به دائمًا تتسع، وما لنا إلا في اتباع رياح القضاء، وتلقي ما يصدر بها بمساعدة ذي الرضا، ولكل أجل كتاب، ثم لا نبالي حيث كنا إن كُتبنا من الأحباب.

رسالة تنضح بالود، وتفيض بالأخوة، وتشرق بالرضا.

وهي وإن دلت على شيء إنما تدل على حالة زروق النفسية، وهي حالة من الهدوء يندر أن تجد مثلها في تاريخ زروق.

من المركز إلى المحيط:

لقد يحلو لنا أن نقول: إن مسراته قد صارت لزروق مركزًا يشبه مركز الدائرة، لا يخرج منها إلى محيطها إلا لسبب يشده أو جاذب يستهويه.

ولم يثبت أنه قد خرج من مسراته بعد أن أقام بها سوى مرتين في سفرتين:

إحداهما: إلى الشرق.

والثانية: إلى الغرب.

أما زيارته إلى الشرق فقد كانت إلى القاهرة مرورًا ببعض صعيد مصر في ذهابه أو إيابه.

وفي القاهرة التقى بالشيخ الحضرمي، وبالعظماء من العلماء، والأكارم من المقربين.

ولعله في زيارته إلى القاهرة هذه المرة، قد ذهب إلى الحج في نسكه للمرة الثالثة.

ثم عاد من القاهرة إلى مسراته ليواصل الإقامة بها.

أما خروجه من مسراته إلى الغرب، فلقد كان ذلك في سفرته إلى الجزائر، حين قرر أن يستقدم أسرته الخاصة من فاس بالمغرب إلى مسراته بليبيا.

ولقد همّ لاستقبال أسرته بالجزائر ليخفف عنهم وعثاء السفر، وليتحمل عنهم بعض ثقله.

وأتى بفاطمة وأولادها إلى مسراته وقد طاب لهم المُقام معه.

الشيخ يتوج إقامته بالزواج في مسراته:

اطمأنت نفس الشيخ في مسراته، وأصبح له فيها أتباع ومريدون، على نحو ما قد أصبح له فيها الأخلاء والأصدقاء.

ولكي تزداد الروابط وترسخ الأقدام في مسراته، قرر الشيخ أن يتزوج من إحدى فتياتها، وكان له ذلك، حيث تزوج أمة الجليل بنت أحمد بن زكريا الغلباني المسراتي، وأنجب منها ولدين وبنتًا، والولدان هما: أحمد أبو الفتح، وأحمد أبو الفضل، بالإضافة إلى عائشة، فضم هؤلاء الثلاثة إلى ما أنجبه من فاطمة الفاسية وهما ولدان، أحمد الأكبر، وأحمد الأصغر.

فصارت أسرته على هذا النحو أربعة أولاد وبنتًا، وزوجتيه: فاطمة الفاسية، وأمة الجليل المسراتية.

وربما لا نعرف له أبناءً ولا بناتًا، ولا زوجات غير ما ذكرناه، وإن كان قد نسب إليه أنه قد تزوج خمس مرات على ما صرح هو في كناشه، والكناش هو:

المذكرة الصغيرة التي يكتب فيها صاحبها المهم من الأشياء والسير، والأرقام والحوادث.

الرحيل:

ومرت الأيام عليه وهو في مسراته يمدُّه هواؤها، وصفاء مائها، وطيب المقام بها بما يساعده على العبادة والذكر.

ولأمر ما لا نعرفه توسل زروق إلى ربه أن يقبضه قبل افتتاح القرن العاشر الهجري، وكان له ما سأل، ولله في خلقه شئون، حيث قُبض في خلوته في العام التاسع والتسعين بعد المائة الثامنة من الهجرة، الموافق العام الثالث والتسعين بعد الأربعمائة والألف من الميلاد.

وقد خلّف من المتاع نصف فرسٍ ومسبحة وملابسه الشخصية.

كما ترك آثارًا له في مسراته تمثلت في أتباع رباهم، وتلاميذ علمهم، بالإضافة إلى ما ترك من أبناء ونساء.

أما فاطمة وأبناؤها فقد رحلوا إلى فاس بالمغرب.

وأما أمة الجليل وولداها وابنتها فقد استقروا في مسراته.

ويرحم الله الشيخ.

* * *

الحال والمرتحل

قد يبدوا هذا العنوان غريبًا لأول وهلة، حيث إنه ليس واضح الدلالة على ما نقصده من ورائه.

ولكن هذه الغرابة ستزول رويدًا رويدًا كلما تقدما في طرح متعلقات الموضوع الذي نريد أن نتحدث عنه هنا.

إننا في الصفحات الماضية قد تحدثنا عن الشيخ أحمد زروق بشيء من الاقتضاب، متناولين سيرته ومسيرته.

وهذا جانب من جوانب الإنسان يمكن الوقوف عليه في غاية من اليسر والسهولة، لا لشيء، إلا لأن قصارى المطلوب من الباحث أن يتتبع موضوع بحثه، يجمعه من بطون الكتب، أو من على ألسنة الرواة.

تلك أمورٌ لا تُعييه، ولا ينوء بها كاهله.

وهذا ما فعلنا حين سطرنا حياة زروق بين يديك.

غير أن الموضوع الذي يُنقض الظهر، ويُجهد البنية، ويُتعب التفكير، هو هذا الموضوع المتصل بتحديد الهوية، والوقوف على معالم الشخصية المراد معرفتها؛ فمن رحمة الله بالنوع البشري أنه جعل فيه خاصٌ وعام؛ فالعام هو هذا العنصر محل الاشتراك الذي لا تخطئه عين حين تتبعه في جميع الأفراد، ولا يكون ذلك إلا في هذا المُكون الذي يتكون منه جميع بني الإنسان، أما الخاص فهو هذا العنصر أو مجموعة العناصر التي تميز الأفراد بعضهم من بعض؛ إذ المطلوب لكل فرد ألا يُصدّر هويته لغيره مهما كان هذا الغير قريبًا منه، حتى ولو كان توأمه.

وعلى هذه الخلفية نقول: إنه لمن الأمر البالغ السهولة أن نتعرف على الجانب الذي يُشارك به الفردُ غيرَه من أبناء نوعه.

ولكنه من الأمور الصعبة جدًا أن نتعرف على هذا العنصر الذي يميز الفرد من غيره، وكلما ازداد هذا العنصر خصوصية كان الوقوف عليه أكثر صعوبة، غير أن هذه الصعوبة تقل كلما اقتربنا من المميزات الهامشية أو العرضية، لا لشيء إلا لأنها لا تتميز بالدقة في الدلالة على الشخصية.

شخصية زروق:

والشيخ زروق ليس بدعًا في هذا الوجود، وإنما هو فرد من أفراد النوع، والبحث عن شخصيته، والعناصر التي تميزه من غيره سيكون مجهدًا ومضنيًا.

وكاتب هذه السطور ما عليه إلا أن يُسدد ويقارب.

ولعل هذا العنوان الذي وضعناه سلفًا ليدل على هذه الشخصية، يصلح لأن يكون مفتاحًا لها، فهو: "الحال المرتحل".

ولعل هذه الجملة "الحال المرتحل" تقف وراء كل حركة طبيعية أو نفسية لتكون سببًا لها، أو كشافًا يضيء عليها.

وأنا لم أرتضِ أن يكون مفتاح شخصية الشيخ هو: "السائح المتجرد"، الذي اختاره من معاصريه الشيخ محمد السخاوي، والذي وافق عليه مُعجبًا به من المعاصرين فضيلة الشيخ الإمام: عبد الحليم محمود.

والشيخان الأول والثاني لم يكن لهما اهتمامٌ بالبحث عن مفتاح الشخصية، وإنما كان اهتمامهما بذكر أشهر صفات الرجل.

ونحن لا نُعارض في أن يكون الشيخ سائحًا، بل إنه لمن الظاهر من العنوان الذي اخترناه أن تكون سياحته وحدها هي محور شخصيته.

ونحن لا نعارض في أن يكون الشيخ متجردًا، فقد كان متجردًا فعلاً، غير أن هذا الوصف قد استوى على سوقه في وقت متأخر، وإن كانت بشائر ثمرته قد أبانت عن نفسها في وقتٍ مبكرٍ من عمره.

عودة إلى مفتاح الشخصية:

وليكن مفتاح شخصيته هو: "الحال المرتحل".

ولم يكن هذا الوصف المركب ليسبقه وصفٌ آخر يدل على مجمل شخصية الشيخ.

ولئن كان العلماء المتخصصون في دراسة الشخصية، قد رأوا أن صاحب الشخصية قد يجد لنفسه مندوحة في أن يرتدي قناعًا، يستر به بعض خصاله، ويخفي به بعض الأسباب التي طبعته على هذه الخصال، فإن الأمر سيكون ظاهرًا

غاية الظهور، ونحن نبحث في شخصية الشيخ زروق ومحاورها الأساسية.

والشيخ رحمة الله عليه حين فتح عينيه على الوجود أول مرة وهو لا يكاد يُبين، قابله هذا السبب المُخيف، هازم اللذات، ومفرق الجماعات الذي لا يتورع أن يفصل بين الأم وفصيلها، وبين الأب وقرة عينه.

فتح الشيخ عينيه وهو لا يكاد يبين على أمه يوم الخميس والجمعة، وجزءٍ من نهار السبت، ثم هو بعد ذلك لم يرها في يقظة، كما نحسب أنه لم يرها في منام.

وتعلق به أبوه، كما أبصر هو أباه، وهو كذلك لا يكاد يُبين، إلى منتصف الأسبوع، حيث إنه في اليوم السادس من ولادته قد مات أبوه، واختطفه طاعون عزونة.

هذا جانبٌ من جوانب حياة الصبي، وإن وقوعه قد حدث والصبي لا يكاد يدرك إلا أن آثاره قد امتدت لتعمل عملها بعد إدراكه.

ومن ناحية أخرى فقد استقبل الصبي حياته وهو قليل المال قليل الحيلة، فلم يجنِ من ثمرة مجهودات أبيه درهمًا ولا دينارًا، والفرق شاسع بين من يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وبين من يولد وهو فاقد لأسباب الحياة.

وشيءٌ ثالث مهم، وهو أن الصبي قد تعدد عليه الناصحون والمربون، بعضهم يحاول أن يزاول عليه تربيته حَمَيّة، وبعضهم يحاول أن يزاول عليه تربيته تدينًا، وبعضهم يزاول عليه تربيته على غير هذا السبب وذاك، ورابعة الأسافي أن الصبي قد حيل بينه وبين ما يشتهي من حياة الطفولة، ومن رغد العيش، ومن متاع الدنيا، فهو إن ذهب يلهو كما يلهو الصبيان، قيل له: ما لهذا خلقت، وهو إن ذهب يستمع إلى الطرب في صباه المبكر، زُجر عن السماع، وهو إن صبغ يدًا أو رجلاً بالحناء وهو صبي غير مكلف زُجر عن ذلك بحجة أن هذا من مسالك النساء، وهو إن مال إلى النظافة في ملابسه أو جسمه، نُهي عن ذلك بحجة أن النظافة والجمال يُعرضانه للحسد، وهو إن مال إلى مهنةٍ ترتقي به شيئًا قليلاً كالحياكة مثلاً، قيل له: الأجدر بك أن تمتهن مهنة صناعة وصيانة الخفاف والنعال... إلى غير ذلك مما عساه أن يرسم أمامنا جانبًا مهمًا من جوانب الشخصية، التي نتوقع أن يكون عليها

شيخنا في مستقبل حياته.

وإذا كنا قد حدثناك عن فقد الأحباب، وضيق ذات اليد، وتنوع المربين، فإن ذلك لا يمنع أن نحدثك عن الطبيعة المحيطة بالغلام.

وما الطبيعة المحيطة بالغلام إلا ما تعبر عنها هذه الجبال الراسيات، التي شابت على رأسها السنون وهي تتحدى الزمن في شيء من العملقة، وشيء من الثبات والرسوخ، ثم هذا الوادي الممتد الذي تسيل به المياه أحيانًا، تأتيه من رءوس الجبال، أو من السحب التي تعلوه، فيرى الصبي السيل وقد حمل زبدًا رابيًا يسيل في جنبات الوادي، وكل جانب منه يحمل قدر المستطاع من الماء، وهذا الزبد الذي يحمله السيل لا يبقي، بل إنه يذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فهو يمكث في الأرض.

والصبي يرى ذلك من حينٍ إلى آخر فينتقش في فؤاده لا يكاد يفارقه، وكلما تقلب الماء وسار تطهر الماء بتقلبه وسيره، يخالطه الهواء في حركته، فيقضي على ما فيه من أسباب الضرر، فيتناوله الناسُ طهورًا منزهًا عن الخبث، بريئًا عن كل فيرس أو ميكروب.

والهواء كالماء يأتي من الشمال وقد تطهر بطهور البحر الأبيض المتوسط، ويأتي من الغرب وقد تطهر بطهور المحيط الأطلسي.

أضف إلى ذلك كله اتساع الصحراء، وصفاء شمسها نهارًا، وقمرها ليلاً.

وكأني بالصبي كما حدثت جدته يناغي القمر في صباه، يسأل عن سفره، وهو ينتقل كل ليلة من مطلعه إلى أفوله، ويسأل جدته عن من الذي يحرك القمر، وجدته تعلمه أن له ربًا يحميه، وهو نفسُه الرب الذي يُطعم عباده، ومنهم الصبي فهو يطعمه ويسقيه.

ارتسمت إذًا الصفحة الأولى في شخصية الشيخ، وكأنها هي التي صنعت مفتاح شخصيته: "الحال المرتحل".

نتيجة وتطبيقات:

ومن الخطأ البالغ مداه أن يُغفل الباحث، أو يُسقط من حسابه اعتبار أن

الشخصية تأخذ جميع ملامحها في فترة الطفولة، وهي ترتوي من مَعينَي الوراثة والبيئة.

كما أنه من الخطأ البالغ مداه أن يُسقط الباحث من حسابه، أن الشخصية في أثناء تكونها لا تُعرب عن تميزها، وإنما هي تُعرب عن ذاتها في مرحلة البلوغ والمراحل التالية لها.

ونحن نعتبر هذين الأمرين اللذين حذرنا من إغفالهما، هما أهم ما وصلنا إليه من نتائج ونحن نتحدث عن شخصية الشيخ زروق.

إن شخصية زروق قد تكونت من مجموعة العوامل البيئية التي اتخذت من الوراثة صحبةً ومجالاً، فعملا معًا في تكوين شخصية زروق منذ مراحله الأولى.

والسمات الشخصية لزروق لم تظهر إلا في مراحل متأخرة من حياته، حيث لم تبد إلا بعد بلوغه الحُلم.

ولو أننا تتبعنا مظاهر هذه الشخصية منذ أول بدوها، لوجدناها قد ظهرت في أول قرار اتخذه زروق، ليس معه فيه مُشير ولا مُعين، إلا أن يكون قد استخار ربه، واستعان خالقه.

إن أول قرارٍ اتخذه زروق، هو تمرده على مهنة الخرازة، والتي عملُها في صناعة وصيانة الخفاف والنعال.

وهو لم يتمرد على صنعة الخرازة ليذهب إلى صنعة الحياكة مثلاً، ولكنه قد تمرد على صنعة الخرازة لينحاز إلى العلم والعلماء، طبقًا لقانون الفعل ورد الفعل الذي له أثرٌ في النفوس، على نحو ما له من أثر في الطبيعة.

إنه قد ارتفع من القدم إلى الرأس، ومن الأخمص إلى المَفْرِق، ومن الأسفل في الجهات إلى الأعلى منها.

وطبقًا للقانون نفسه – قانون الفعل ورد الفعل– وجد الفتى زروق نفسه وقد تطلع بعد انتسابه إلى علوم الشريعة، وقد اشتاق إلى أن ينتسب إلى الزهد والتصوف وعلوم الحقيقة، فتعرَّف على الأولياء، والزهاد، وزار أضرحة الراحلين، كما ربط نفسه بمجالس الأحياء.

والشيء الغريب أننا لم نجد زروقًا مريدًا طيعًا، وإنما وجدناه مع ما يظهر من الطواعية، أو على ما يروض نفسه على شيء منها، وجدناه مع ذلك يثور على الخطأ ولا يقبل الانحراف.

ومن يتأمل جفوته مع الزيتوني في فاس، أو مع الحضرمي في القاهرة، يجد صدق ما قلناه.

وزروق مع أنه كان يقع كثيرًا في مجال ردود الأفعال، فإننا كثيرًا ما كنا نراه يميل إلى المهادنة في مجال الاجتماعيات، وفي مجال العلم على السواء، وهي مهادنة قربت بينه وبين الزيتوني، كما قربت بينه وبين الحضرمي بشكلٍ أكثر وضوحًا.

والشاهد الذي يكون أكثر تعبيرًا عن شخصية الزروقي التي فيها الرغبة في جمع الشمل، والترتيب للوفاق نراه في أمرين:

أحدهما: أننا نراه وإن كان معارضًا سياسيًا، إلا أنه لم يكن راغبًا في استمرار الثورة، خاصة إذا كان استمرارها مربوطًا بالقلق، مصاحبًا للاضطراب أو التخريب.

أما **ثانيهما:** فهو الرغبة في الوفاق الذي سيطر على حياته وفكره بين الشريعة والحقيقة؛ فهو لا يرى لأهل التصوف سلامة، ولا سببًا في البقاء إذا انفصلوا عن الشريعة، ففي الشريعة زاد الراكب إلى الله، وفي الشريعة أساس السالك إلى الجنة، وفي الشريعة منطلق سلامة القصد إلى الهدف الرشيد.

وفي تأملنا لشخصية زروق نجد هذا التمرد على الاستقرار.

إن زروق عاش حياته لم يرتبط فيها بوطن، ولم يستوطن فيها مكانًا بعينه، فنحن نراه في فاس، ثم نراه يرتحل عنها إلى تلمسان.

ونحن نراه في فاس عائدًا إليها من تلمسان ليرتحل عنها إلى القاهرة، مرورًا بها إلى الحجاز في مكة والمدينة، ثم يعود إلى القاهرة، ليرتحل عنها بعد سنوات قلائل إلى بجاية، ومن بجاية إلى فاس التي لم تستقبله استقبال المشوق إليه، فقلاها وقلته، وخرج عنها مسافرًا وسائحًا إلى القاهرة، ثم إلى أرض الحجاز لأداء الحج،

والعودة إلى القاهرة، ثم إلى مسراته ليلقي بها ربه.

سفرة بعدها سفرة في سياحة لا تنقطع، وما ذاك إلا تعبيرًا عن جانب من جوانب شخصية الشيخ، أبت عليه أن يكون له وطنًا على نحو ما رأى المياه والرياح، والشمس والقمر لا ترتبط بالأوطان.

ولشخصية زروق ظهور في أخلاقه؛ فهو المرتحل بين الخجل والتسرع، وبين المرح والانفعال، وبين التودد والمقاطعة، وبين الصفاء والكدورة... الخ.

وفي حياته الاجتماعية لم يستقر الشيخ في بيت يجمعه بزوجة واحدة، فقد تزوج خمس مرات على نحو ما سجل عن نفسه، وإن كنا لا نعرف من زوجاته إلا فاطمة الفاسية، وأم الجليل المسراتية.

هذه شخصية الشيخ، ولا نجد لها مفتاحًا يدخل بنا إلى أسرارها وتعليل مظاهرها، إلا أن يكون: "الحال المرتحل".

* * *

زروق
على ألسنة العلماء وكتاب السير

يعد الشيخ أحمد زروق علامة بارزة في مجالي العلم والسلوك.

ولقد قدره المحيطين به والذين جاءوا من بعده بعبارات نورانية، تنصلح بوفاء قائليها، وبمكانة وفضل مستحقها.

ونحن سنحاول هنا أن ننقل بعض ما قالوه بألفاظهم، وعلى مثال ما قالوه.

ومن أوائل ما ننقل عنهم المناوي في طبقات الشاذلية.

قال: الشيخ أحمد زروق "عابد من بحر العبر يغترف، وعالم بالولاية متصف، تحلّى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلاف، خطبته الدنيا فخاطب سواها، وعرضت عليه المناصب فردها وأباها".

ويذكر السخاوي في كتابه (الضوء اللامع عن الشيخ زروق: "... ثم كانت حياته بعد ذلك دراسة، وسياحة، وتجردًا... وصار له أتباع ومحبون.

وكتب على حكم ابن عطاء الله وعلى القرطبية في الفقه، وعمل فصول السلمي أرجوزة ".

ويتحدث صاحب كتاب (شذرات الذهب) عن كتب الشيخ وتآليفه، فمما يذكره أنه: كتب على الحِكَمِ نيفًا وثلاثين شرحًا، وعلى القرطبية، وعلى رسالة ابن زيدون القيرواني عدة شروح كلها مفيدة نافعة، وشرح حزب البحر للشاذلي، وألف كتاب "قواعد التصوف" وأجاده جدًا، وكانت وفاته سنة ٨٩٩هـ.

وقال الزركلي: "... أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس، زروق: فقيه محدث صوفي، من أهل فاس "بالمغرب" تفقه في بلده وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح؛ وتوفى في تكرين (من قرى مسراته، من أعمال طرابلس الغرب) له تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف".

وتحدث عنه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مقدمته لتحقيقه لأحد شروح زروق لحكم ابن عطاء الله، وهو العارف بالله الشيخ عبد الحليم محمود.

قال: " أما عن الشيخ زروق نفسه، فإنه أحمد بن أحمد بن محمد الفاس المعروف بـ: زروق، قمة من قمم التصوف أيضًا، وهو حينما يكتب عن الحكم فإنما يكتب كتابة عالم، ويكتب كتابة مؤرخ لرواد التصوف، ولكنه من قبل ذلك ومن بعد ذلك يكتب كتابة متذوق، لقد سار في الطريق الذي سار فيه ابن عطاء... يقول عنه السخاوي: "وقد تجرد، وساح ".

أما التجرد فإنه يعني: أنه استخلص نفسه لله تعالى.

وأما السياحة، فإنها تعني في لغة ذلك العصر: الأسفار المتلاحقة في طلب العلم، وللخلوة في العبادة.

وقد كانت حياته طلبًا للعلم، وكانت عبادة ".

كلمات جرت على ألسن العلماء، كلها يُؤكد على مكانة الرجل، ومكانة القوم الذين ينتسب إليهم ممن يخلصون التوجه لله تعالى، وهم قوم سماء غيرهم أرض لهم، وسماؤهم رضي الله ورضوانه.

"ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم" [يونس / ٦٢ – ٦٤].

* * *

زروق على طريق التصوف

لعلنا قد أصبحنا على معرفة بجانب من جوانب أبي العباس أحمد بن أحمد ابن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي.

غير أن هذا الجانب من المعرفة – والذي أوقفناك عليه– لم يتجاوز هذه الالتفاتة إلى حياته ونشأته ورحلاته، وهي إلتفاتة لم تعبر عن أهم جوانب شخصيته، وإن كانت لا تنفصل عنها.

والجانب الباز من شخصية أبي العباس أحمد، هو: انتظامه في إحدى سلاسل الطرق الصوفية، وهو ما نريد أن نأخذ في الحديث إليك عنه.

زروق والشاذلية:

وبداية الحديث في هذا الموضوع هو أن نتحدث عن الشاذلية، وكيفية انخراط زروق في سلسلتها.

أما الشاذلية فهي طريقة مُشتهرة نسبتها إلى أبي الحسن الشاذلي.

فمن هو أبو الحسن الشاذلي؟

أبو الحسن الشاذلي على بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف بن هرمز (٥٩١-٦٥٦هـ = ١١٩٥ – ١٢٥٨م). رأس الطائفة الشاذلية، من المتصوفة، وصاحب الأوراد المسماة وحزب الشاذلي،. ولد في بلاد "غمارة" بريف المغرب، ونشأ في بني زرويل (قرب شفشاون) وتفقه وتصوف بتونس، وسكن "شاذلة" قرب تونس. وطلب "الكيمياء" في ابتداء أمره، ثم تركها، ورحل إلى بلاد المشرق فحج ودخل العراق. ثم سكن الإسكندرية، وتوفى بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. وكان ضريرًا. ينتسب إلى الأدارسة أصحاب المغرب. أخبره بذلك أحد شيوخه عن طريق "المكاشفة".

قال الذهبي: نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، كان أولى به تركه. وله غير "الحزب" رسالة "الأمين" في آداب التصوف رتبها على أبواب، و"نزهة القلوب وبغية المطلوب" في شستر بتي (٦٩/١) و"السر الجليل في خواص حسبنا الله ونعم الوكيل".

ولتقي الدين ابن تيمية رد حزبه.

ولأحمد بن محمد بن عباد كتاب "المفاخر العلية في المآثر الشاذلية" في سيرته وطريقته. وفيه: كانت وفاة الشاذلي في "حميترة" ببرية عيذاب في واد على طريق الصعيد. ودفن بحميترة.

وأورد الحسيني في صلة التكملة نسبه: "علي بن عبد الله بن عبد الجبار ابن يوسف بن يوشع بن برد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب" ثم قال: "ونسبه الذي ذكرته، ذكره في بعض كتبه وفيه نظر. وفي "سلوة الأنفاس ١/٨٥" كانت ولادته سنة ٥٧١هـ ببلاد غمارة.

النسبة:

وجمهور المؤرخين لأبي الحسن يقولون: إنه شاذلي بكسر الذال، وهي نسبة إلى "شاذِلة" بتونس.

ومنهم من يحاول أن يضم الذال لتكون النسبة هكذا "شاذُلي، والشاذُلية".

والنظار من الصوفية يرون أن الكلمة من مقطعين "شاذٌّ" بمعنى الفريد الخاص من نوعه، و"لِيّ" لتكون اللام حرف جر، والياء ضمير المتكلم الذي هو الله سبحانه وتعالى. ودلالة المقطعين معًا هي أن: "المتفرد المخصوص من نوع الإنسان المكلف الذي علت همته وارتقت طاعته، وخلاص قصده من بين العالمين، هو: المختص بالله تشريفًا له وتعظيمًا.

وهذا كلام نعيش لكنه لا شاهد له ولا دليل عليه، فصار كلامًا مرسلاً.

والمُعتَمد هو الأول ليكون الشاذلي، نسبة إلى هذه المحلة من تونس، والتي تسمى بـ "شاذلة".

هذا هو الشاذلي أبو الحسن الذي عمت شهرته كثيرًا من الأقطار الإسلامية على طول بلاد المسلمين وعرضها، وشرقها وغربها.

أبو العباس أحمد زروق في سَلْك الشاذلية:

- والذي يعد إلى الآن في بؤرة الاهتمام، هو أن نحدثك عن الشيخ زروق إمامًا وقطبًا في الطريقة الشاذلية.

وفي بداية حديثي إليك أحب أن أذكرك أن الذي يريد أن يدخل في طريقة معينة، يكون أمامه طريقان يعلو أحدهما على الآخر.

وأولهما: طريق الخرقة يلبسها الراغب في دخول الطريقة والانتظام في سلطها.

وهذا الطريق يسمى طريق التركة، يتقدم المريد إلى شيخه، أو الخلف إلى سلفه الذي يملك هذا النوع من الإسناد، ويُطلعه على رغبته، فإن رأى شيخُه فيه خيرًا، ووقف على مناسبته للطريق، ألبسه الخرقة، وأرخى له العَذَبة، وأجازه، فإذا فعل به شيخه هكذا صار منتسبًا للطريق من طريق الخرقة أو البركة.

أما **الطريق الثاني** للانتظام في الطريق: فهو هذا الطريق الذي يُسمى بـ "القطبية. وفيه يتقدم المريد إلى شيخه الذي يكون قد ترقى في الطريق حتى صار قطبًا فيه، ويطلعه على رغبته، وشيخه ينظر في أمره ومرتبته، فإن وجده على حالٍ يستحق معها أن يُسلِكه حلقة في السلسلة منحه هذه المرتبة وأجازه.

هذان طريقان لا ينخرط المريد حلقة في سلسلة الطريق إلا إذا سلك أحدهما.

على أنه ينبغي أن تعلم أن طريق الخرقة يكون سالكه طالبًا للبركة.

أما **الطريق الآخر** وهو طريق القطبية فإن سالكه يكون من الأولياء وهو يطلب درجة القطبية.

إذا علمت ذلك فإنه ينبغي لي ولك أن نتساءل عن الشيخ أبي العباس زروق، كيف تسنى له الانتظام في سلك نظام الطريقة الشاذلية؟

والمؤرخون يثبتون انتظام زروق في سلك نظام الطريقة الشاذلية من طرق متعددة، قد يظن بعض الباحثين مع تعددها أن الاضطراب فيها وتغايرها مخلٌ بمرتبة الشيخ زروق ودرجته في الطريقة.

غير أنك إذا تأملت فيما نبهناك إليه، علمتَ أن تعدد السبل التي سلكها الشيخ زروق حتى انتظم في سلك نظام الطريقة الشاذلية، كان تعبيرًا عن أن الرجل قد جمع إليه كل طريقٍ مُوَصِّل إلى الانتظام في الطريق.

فهو قد انتظم في الطريق بواسطة الخرقة، حيث لبسها وأُرخيت له العَذَبة،

فحاز البركة.

وهو قد انتظم في الطريق عن طريق نظام القطبية والولاية، فحصل على الإجازة بالعلم، والشهادة بالحال، والإقرار بالمقام.

وأنا سوف أتركك الآن أمام الطرق التي ذكرها المؤرخون، وهم يتحدثون عن انتظام الشيخ أبي العباس زروق، حلقة في سلسلة الطريقة الشاذلية.

ومن أهم ما يمكن أن يحدثك عن ذلك هو الشيخ الغماري أحمد بن محمد بن الصديق الحسَنى. قال في كتابه "علي بن أبي طالب إمام العرافين أو البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي" ومعه: "فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم عليّ" طُبع بالقاهرة مطبعة السعادة. الأولى (١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م).

قال في ص١٠ وما بعدها: [والشيخ زروق يتصل بالشاذلي (رضى الله عنه) من طرق متعددة فيما ذكره جماعة من أصحاب الفهارس والإثبات وتراجم الشيوخ، إلا أنهم وهموا فيها فجعلوها طريق صحبة واقتداء، وهي طريق خرقة وتبرك، بل منها ما هو مجرد رواية لكتاب الحكم العطائية بطريق الإجازة لا بالسماع والتلقي كما ستعرفه.

الطريق الأول منها: عن أبي عبد الله محمد بن قاسم الغوري عن عبد الله ابن حمَد بفتح الحاء والميم عن سيدي علي وفا عن والده سيدي محمد عن شرف الدين أبي سليمان داود بن عمر الباخلي عن تاج الدين أحمد بن عطاء الله عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الشاذلي هكذا ذكره صاحب المنح البادية في سلسلة الطريق الوفائية وهو سند صحيح معروف الرجال، إلا أنه ليس سند صحبة واقتداء، بل هو سند خرقة وتبرك، فإن أبا عبد الله القوري الفقيه المشهور لم يكن من أهل هذا الشأن وإن كان من الصالحين، أما شيخه سيدي عبد الله بن حمد فكان من الأولياء المعتقدين المتبرك بهم في حياتهم وبعد مماتهم وهو مترجم في الجذوة والسلوة ونيل الابتهاج وغيرها، مات بمكناسة الزيتون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة فالسند متصل صورة، منقطع معنى لوجود الغوري فيه وهو من علماء الظاهر لا من علماء الباطن.

الطريق الثاني: ذكره الشيخ زروق نفسه ونقله عنه جماعة منهم ابن حجر الهيثمي في فهرسته، قال الشيخ زروق: ألبسني الخرقة وأرخى لي العذبة العارف أبو حفص عمر النبيتي، ولقنني الذكر، وصافحني وشابكني، قال: ألبسني العارف المجد صالح الزواوي، وهو لَبِسَ من محمد بن مخلص الطيبي، وهو من الحافظ علاء الدين مغلطاي، وهو من شريف الدين أبي بكر المغربي، والشريف محمد بن القطب أبي الحسن الشاذلي، وهما من والد الثاني القطب الغوث الفرد الجامع أبي الحسن الشاذلي.

وهو كما ترى صريح في لبس الخرقة.

الطريق الثالث: عن العارف المجذوب سيدي أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عزوس التونسي صاحب الكرامات والخوارق وشيخ الطريقة العروسية عن سيدي محمد المجاهدي عن سيدي سليمان الجزار عن الشيخ الجبتياني عن سيدي محمد الحنفي عن ابن عطاء الله عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الشاذلي.

وهو سند غير صحيح من جهتين:

إحداهما: أن الحنفي ولد بعد وفاة ابن عطاء الله بأزيد من ستين سنة.

وثانيتهما: أنه يتصل بالشاذلي من جهة ياقوت العرشي عن المرسي لا من جهة ابن عطاء الله كما هو معروف.

وقد ذكروا لسيدي أحمد بن عروسي طريقًا آخر، وهو أنه أخذ عن الشيخ فتح الله بن يوسف العجمي عن سيدي ياقوت العرشي عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الشاذلي.

كذا ذكره جماعة منهم الشيخ الشهير أبو محمد عبد السلام بن سليم الأسمر في سلسلة طريقته. ونظم ذلك منه إلى النبي (صلى الله تعالى عليه وآله وسلم) من الطريق المشهورة لأبي الحسن الشاذلي (رضي الله عنه)، وهو سند منقطع أيضًا، فإن فتح الله العجمي لم يدرك ياقوت العرشي بل ولد بعد وفاته بنحو خمس وثلاثين سنة، لأن العرش مات سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، والعجمي ولد بعد سنة سبع وستين كما يستفاد من الضوء اللامع للسخاوي، فإنه قال: توفى سنة ثمان وأربعين،

ورأيت من أرخ وفاته سنة سبع وقد قارب الثمانين، فيكون ولد بعد العرشي بالزمن المذكور.

الطريق الرابع: عن الحافظ شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي عن عبد الرحمن بن عمر القبابي بكسر القاف وفتح الموحدة نسبة إلى القباب الكبرى موضع (وهي إحدى بلاد مركز دكرنس محافظة الدقهلية) عن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي عن تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري عن أبي العباس المرسي عن أبي الحسن الشاذلي.

كذا ذكره ابن حجر الهيثمي في فهرسته فقال: "وللخشي زروق طريقة أخرى إلى الشاذلي قيل ما فيها رجل إلا وتقطب" ثم ذكر هذا السند، وذكره أيضًا العلامة محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي في المنح البادية فقال في أسانيد الطريقة الشاذلية: "وهي طريقتان طريق الصحبة والاقتداء وطريق التبرك والتلقين، أما طريق الصحبة والاقتداء فقد صحبتُ شيخنا الإمام أبا البركات يعني عبد القادر الفاسي واقتديت به وسمعت عليه أحزاب الشاذلي وكثيرًا من كلامه، وهو يرويها من طريق الشيخ زروق عن الشمس السخاوي". فذكر السند إلى الشاذلي وسبقهما إلى ذلك الشيخ طاهر بن زيان القسنطيني نزيل المدينة المنورة وهو تلميذ الشيخ زروق، فنظم سلسلة الطريقة الشاذلية عن شيخه زروق عن السخاوي إلى الشاذلي ثم منه إلى النبي (ﷺ)، ونقل منظومته بتمامها العلامة الصومعي في كتابه المعزي بمناقب أبي يعزي، ثم قال: فالشيخ السخاوي (رضي الله عنه) أخذ هذه الطريقة بحقوقها وشروطها عن الشيخ الكامل أبي زيد عبد الرحمن بن عمر القبابي، وأخذها أبو زيد عن الشيخ المحصل الجامع للشريعة والحقيقة أبي الحسن علي بن عبد الكافي، والكل معروف عند الأصوليين وأهل علم البيان وأئمة هذا الشأن ا.هـ.

وكل هذا خبط وتخليط وتهور قبيح.

أما أولاً فإن هذا ليس سندًا للطريق ولا للخرقة، وإنما هو سند لكتاب الحكم العطائية لمجرد الإجازة، فقد ذكره الشيخ زروق في أول شرحه السابع عشر للحكم. فقال: وأما الإسناد فقد أخبرنا به إجازة شفاها الشيخ شمس الدين السخاوي سنة ست وسبعين وثمانمائة بداره بالقاهرة، قال: أخبرنا به إجازة من بيت المقدس الشيخ أبو

زيد عبد الرحمن بن عمر القبابي، قال: أخبرنا به في جملة كتب الشيخ ابن عطاء الله شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي عن مؤلفها. أ.هـ.

وأما ثانيًا: فإن السخاوي لم يلق القبابي ولا رآه بعينه فضلاً عن أن يكون صحبه وأخذ عنه الطريق بشروطها وآدابها كما يقول الصومعي، وإنما استجازه له الشمس بن قمر فأجاز له من بيت المقدس وهو بالقاهرة، بل لما مات القبابي كان السخاوي ابن سبع سنين، لأن القبابي مات سنة ثمان وثلاثين ببيت المقدس، وكانت ولادة السخاوي سنة إحدى وثلاثين، وبهذا الطريق أيضًا كان أخذ القبابي عن التقي السبكي فإن القبابي كان لما مات التقى السبكي ابن سبع سنين أيضًا لأنه ولد سنة تسع بتقديم التاء وأربعين وسبعمائة، وكانت وفاة التقي السبكي سنة ست وخمسين، وإنما أجاز له إجازة عامة دخلت فيها مؤلفات ابن عطاء الله، وللرغبة في علو الإسناد يتعلق المحدثون في الرواية.بمثل هذا إذ كان القبابي قد عمر وألحق الأحفاد بالأجداد وشارك السخاوي فيه كبار شيوخه، كالحافظ وأقرانه فإنه ممن أخذ عن القبابي بالسماع وذكره في معجم شيوخه، وبسبب أخذ القبابي في صغره بالإجازة عن التقي السبكي وأقرانه علت روايته وحصلت الرغبة في الأخذ عنه للمحدثين.

فأين هذا من طريق الصحبة والاقتداء بآدابها وشروطها.

وأما ثالثًا فإن الحافظ السخاوي رحمه الله ما شم لطريق الصوفية رائحة فضلاً عن الولاية فضلاً عن القطبية بل هو عدو لكثير من أهل الله كابن الفارض وابن سبعين وابن العربي وتلك الطائفة. وله في إكفار الشيخ الأكبر ابن العربي (رضي الله عنه) مجلد كبير سماه (القول المبني) اعتمد فيه على فتاوى علماء الظاهر أمثاله بإكفار الشيخ الأكبر وتضليله بدون ذكر علم ولا دليل، فكيف يوصف بالقطبية هو والقبابي كما يحكيه ابن حجر الهيثمي مع أنه ممن يعرف جيدًا مواقف السخاوي ضد الصوفية العارفين وردود السيوطي عليه وعلى أمثاله والانتصار لهم.

زروق يتبع الحضرمي إلى الشاذلية:

ولقد حرصت إلى الآن ألا أتدخل بشيء في كلام الشيخ/ الغماري أحمد بن

محمد بن الصديق وهو يتحدث عن الكيفية التي انتظم بها الشيخ/ زروق في الطريقة الشاذلية فهو – فوق أنه محدث- هو رجل صوفي محب للتصوف نقل طريقة المحدثين في الرواية إليه.

وما ذكره إلى الآن من روايات قد حكم عليها من خلال هذا المنهج حكمًا حاسمًا أخرج بعضها من طرق الاستدلال العلمي وأبقى على البعض لتكون روايته مثبتة الانخراط الزروقي في سلك نظام الطريقة الشاذلية على سبيل الخرقة والبركة لا على سبيل القطبية والاقتداء.

ولما كان من المعلوم الذي لا ينكر أن الشيخ/ الزروقي قد أخذ في الطريقة الشاذلية باعتباره حلقة في سلسلتها فإن السؤال عن كيفية انخراط الزروقي في الشاذلية لم يزل قائمًا.

والمؤرخون للتصوف ومنهم الغماري نفسه مجمعون على أن الشيخ الحضرمي كان له اليدُ الطولى في هذا السبيل.

فمن الحضرمي؟ وكيف التقى به الزروقي؟

هذا سؤال قد أزلفنا الحديث عن الإجابة عنه من قبل ولكننا نعود هنا لنذكر طرفًا منها على سبيل البركة تحصل للمُقلي والكاتب والقارئ على السواء بمشيئة الله وعونه.

في طبقات الشاذلية الكبرى لمؤلفه وجامع رواياته أبي علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي.

ووضع حواشيه مرسي محمد علي.

والمطبوع في دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

ونحن نجتزئ من طبعته الثانية ج١١٤ وما بعدها.

وفيها: (سيدي أبو العباس الحضرمي (... – ٨٥٧).

.... وهو... سيدي تاج الدين أبو العباس أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني الشاذلي الوفائي قدس سِرَّه العالي.

كان (رضي الله عنه) جامعًا بين الشريعة والحقيقة وكان من أهل الكشف

الكبير وله وقائع عظيمة وخوارق عادات جسيمة وكان من أهل السر المصون.

مولده (رضي الله عنه) ببلاد حضرموت، وقدم مصر فاستوطنها وأخذ الطريقة وتلقى أنوار الحقيقة عن شيخه ومربيه سيدي ومولاي الشريف أبو السيادات يحيي القادري بن وفا بن سيدي شهاب الدين أحمد بن وفا بن القطب الكبير سيدي أبي التداني محمد وفا (رضي الله عنه).

وبعد أخذ سيدي أبو العباس (رضي الله عنه) الطريقة على شيخه المذكور فُتح عليه فأقبل الناس إليه، وتبركوا بالجلوس بين يديه وكثر أتباعه وعم انتفاعه.

وكان يحضر مجالس العلماء، وتحضر العلماء مجلسه حتى صار أوحد زمانه علمًا وعملاً، وحالاً ومقالاً.

ومن وقائعه العظيمة واقعته وكشفه في الواقعة التي حصلت لتلميذه سيدنا أحمد زروق (رضي الله عنه) وذلك أن سيدنا أحمد زروق لما قدم من المغرب الأقصى قال سيدنا أبو العباس لتلامذته: انزلوا بنا إلى بولاق؛ لملاقاة أخيكم المغربي.

فنزلوا إلى بولاق، فأتوا إلى موضع مرسي المراكب. وإذا بسيدنا الأستاذ/ أحمد زروق نازل من المركب فاجتمع بمولانا أبي العباس، وأخبره بما وقع له مع مولانا عبد الله المكي وما جرى له معه فقال له سيدنا أبو العباس: لا بأس عليك منه وأخذه معه إلى القاهرة ولقنه العهود والأوراد وأدخله الخلوة فمكث أيامًا في الخلوة وإذا بسيدنا أبا العباس كان جالسًا في حلقة من أصحابه فمدَّ يده وصاح، وقال لتلامذته: امشوا لأخيكم المغربي فإن الحيَّة العمياء قد هدَّت عليه الخلوة وقد كان مولانا عبد الله المكي (لعله هو الزيتوني) هذا ضريرًا فمشوا إلى الخلوة التي كان فيها مولانا زروق فوجدوها مطبوقةً عليه. فأخرجوه من تحت البناء سالمًا ما أصابه شيء بإذن الله تعالى ويد مولانا أبا العباس قد انكسرت. فقال له: قد نجاك الله من هذه الآفة العمياء. ولم يبق له عليك تسلط. وقد كان مولانا أبو عبد الله المكي مدَّ يده ليتصرف في مولانا زروق من مدينة فاس غيرةً منه فهدم عليه الخلوة فنجاه الله ببركة سيدنا أبي العباس. وحفظه الله... وتوفى مولانا أبو العباس الحضرمي (رضي الله عنه) بمصر بعد الثمان مئة ودفن بالقرافة الشاذلية الكبرى).

عودة إلى الشيخ الغماري أحمد بن محمد بن الصديق:

لقد انصرفنا – كما رأيت- عن رواية الشيخ الغماري لا زهدًا في روايته وإنما كان انصرافنا لتجلية بعض المواقف التي ربطت بين الشيخ/ زروق وأستاذه الحضرمي ولم يشأ الغماري أن يشير إليها وما ذاك إلا لأنها لم تثبت عنده.

ونعود للغماري الآن لنعلم من روايته السلسلة التي أدخلت زروق إلى ساحة الشاذلية.

قال الشيخ الغماري في كتابه المشار إليه سلفًا ج١٥: "

(الطريق الصحيح لأخذ زروق الشاذلية).

وطريق الصحبة والاقتداء للشيخ زروق (رضي الله عنه) هو ما أخذه عن الشيخ العارف الكبير أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي عن أبي زكريا يحيى القادري عن سيدي علي وفا عن والده سيدي محمد وفا عن أبي سليمان داود بن عمر الباخلي عن تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله عن أبي العباس المرسي عن القطب أبي الحسن الشاذلي (رضي الله عنهم).

زروق والحضرمي وكيفية التلقي:

قال الغماري: (فأما أخذ الشيخ زروق عن أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي أخذ صحبة واقتداء وإرادة وتحكيم فأمر مجمع عليه بين أهل الطريق وصرح به الشيخ/ زروق نفسه. فذكر أنه اجتمع به في أوائل رجب سنة ستٍ وسبعين بالقاهرة، فصحبه سبعة أشهر أو نحوها، ثم رحل إليه في سنة ثلاث أو أربع وثمانين فصحبه نحو ثمانية أشهر أو نحوها قال وانتفعت به فيها انتفاعًا لا يخفى. وقال إنه ما لقى أعرف بالله منه ولا أكبر منه وصدر به في أول طبقات شيوخه الذين رتبهم على سبع طبقات.

الأولى: العارفون أهل التمكين.

الثانية: العارفون أهل التلوين.

الثالثة: أهل السلوك من المريدين.

الرابعة: أهل الورع.

الخامسة: الزهاد.

السادسة: العباد.

السابعة: أهل النسك.

ولا ينقل في كتبه إلا عنه بل أفرده بالترجمة في كتاب مستقل فيما يقال، فإنه يوجد كتاب في ترجمة أبي العباس الحضرمي لم يعرف مؤلفة ويشاع أنه للشيخ زروق.

من الشاذلية إلى الزروقية:

انتهى الحديث الآن إلى ما هو محل الإجماع من كُتاب التصوف وسير رجاله، وهو أن الشيخ زروق كان على الطريقة الشاذلية، متعشقًا لها، عاملاً بمبادئها، مقتديًا برجالها، ومن أوائلهم: أبو العباس أحمد الحضرمي.

وهذه النهاية التي انتهينا بك إليها قد قبلها بعض الكتاب على شيء من الحذر وإجالة النظر، وهو حذرٌ، لا يهتم به كثير من المؤرخين للتصوف، ومع ذلك فهو حذرٌ مُبَرَر، يبرره أمران:

أحدهما: أن أبا زكريا يحيي، والذي هو شيخ الحضرمي كان قادريًا وشاذليًا في نفس الوقت، وأغلب الظن، أن الحضرمي حين أخذ عن أبي زكريا يحيي القادري قد اجتمع له الطريقان: الشاذلي، والقادري، ولا مانع – والأمر هكذا- أن يكون الشيخ الحضرمي قد صبّ في قلب الشيخ زروق مزيجًا من تعاليم القادرية والشاذلية.

وثانيهما: أن ما توفر لدينا من أصول الزروقية والتي كتبها الشيخ زروق نفسه، قد اشتملت على أصول الشاذلية والقادرية معًا.

وهذان الأمران فيهما من الكفاية ما يبرر لاحتمال أن يكون الشيخ زروق قد جمع في جعبته الطريقتين معًا، وهما: الطريقة الشاذلية، والطريقة القادرية.

ولولا ما كان يحيط بالشيخ الحضرمي وتلميذه الشيخ زروق من غموض متصل بهذا الجانب، لكان من الجائز أن نحسم القول فيه، فنسجل أن الطريقة الزروقية هي مزيج من الطريقتين: الشاذلية، والقادرية.

أصول الطريقة الزروقية:

ومع ذلك فإننا سنحاول أن نقلب معك تلك الصفحات التي سجلها الشيخ زروق بنفسه، يتحدث فيها عن أصول طريقته، ويوصي بقراءتها واستظهارها، والعمل بمقتضاها، وهي محاولة تجعلنا نميل إلى أن الطريقة الزروقية، وإن كان غِراسُها شاذليًا، إلا أنه لا يبعد أن يكون هذا الغراس قد سُقى بمياه قادرية.

رسالة أصول الطريق لزروق:

واستكمالاً للفائدة نثبت بين يديك رسالة كتبها الشيخ زروق بهذا العنوان أعلاه تشتمل على ما نوهنا به قال:

* * *

رسالة أصول الطريق

الشيخ أحمد زروق رحمه الله

قال (رضي الله عنه): أصول طريقتنا خمسة أشياء:

١- تقوى الله في السر والعلانية.

٢- إتباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤- الرضا عن الله تعالى في القليل والكثير.

٥- الرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء.

فتحقيق التقوى بالورع والاستقامة، وتحقيق السنة بالتحفظ وحسن الخلق، وتحقيق الإعراض عن الخلق بالصبر والتوكل، وتحقيق الرضا عن الله بالقناعة والتفويض، وتحقيق الرجوع إلى الله بالحمد والشكر في السراء واللجأ إليه في الضراء.

وأصول ذلك كله خمسة:

١- علو الهمة.

٢- حفظ الحرمة.

٣- حسن الخدمة.

٤- نفوذ العزمة.

٥- تعظيم النعمة.

فمن علت همته ارتفعت رتبته، ومن حفظ حرمة الله حفظ الله حرمته، ومن حسنت خدمته وجبت كرامته، ومن أنفذ عزمته دامت هدايته، ومن عظمت النعمة في عينه شكرها، ومن شكرها استوجب المزيد من المنعم بها حسبما وعده الصادق.

وأصول المعاملات خمسة:

١- طلب العلم للقيام بالأمر.

٢- صحبة المشايخ والأخوان للتبصر.

٣- ترك الرخص والتأويلات للحفظ.

٤- ضبط الأوقات بالأوراد للحضور.

٥- اتهام النفس في كل شيء للخروج عن الهوى، والسلامة من العطب والغلط.

فطلب العلم آفته صحبه الأحداث سنًا أو عقلاً أو دينًا ممن لا يرجع لأصل ولا قاعدة، وآفة الصحبة الاغترار والفضول، وآفة ترك الرخص والتأويلات الشفقة على النفس، وآفة ضبط الأوقات اتساع النظر في العلم لعلة ذي الفضائل، وآفة اتهام النفس الأنس بحسن أحوالها واستقامتها، وقد قال الله تعالى: "وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها " وقال الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب (صلوات الله وسلامه عليهما): "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي".

وأصول ما تداوي به علل النفس خمسة أشياء:

١- تخفيف المعدة من الطعام.

٢- اللجأ إلى الله مما يعرض عند عروضه.

٣- الفرار من مواقع ما يخشى وقوع الأمر المتوقع فيه.

٤- دوام الاستغفار مع الصلاة على رسول الله (ﷺ) بخلوة واجتماع.

٥- صحبة من يدل على الله أو على أمر الله وهو معدوم.

وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي (رضي الله عنه): أوصاني حبيبي فقال: "لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا تصطحب إلا من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينًا وقليل ما هم"، أو كلام هذا معناه، وقال أيضًا (رضي الله عنه): "من دلك على الدنيا فقد غشك ومن دلك على العمل فقد أتعبك ومن دلك على الله فقد نصحك"، وقال أيضًا (رضي الله عنه): "اجعل التقوى وطنك ثم لا يضرك مرح النفس ما لم ترض بالعيب، أو تصر على الذنب، أو تسقط منك خشية الله بالغيب". قلت: وهذه الثلاثة هي أصول العلل والبلايا والآفات.

وقد رأيت فقراء هذا العصر ابتلوا بخمسة أشياء:

١- إيثار الجهل على العلم.

٢- الاغترار بكل ناعق.

٣- التهاون في الأمور.

٤- التعزز بالطريق.

٥- استعجال الفتح دون شرطه.

فابتلوا بخمسة:

١- إيثار البدعة على السنة.

٢- إتباع أهل الباطل دون الحق.

٣- العمل بالهوى في كل أمر أو أجل الأمور.

٤- طلب الترهات دون الحقائق.

٥- ظهور الدعاوي دون صدق.

فظهروا بذلك بخمسة أشياء هي:

١- الوسوسة في العبادات.

٢- الاسترسال مع العادات.

٣- السماع والاجتماع في عموم الأوقات.

٤- استمالة الوجه بحسب الإمكان.

٥- صحبة أبناء الدنيا حتى النساء والصبيان.

واغتروا بوقائع القوم في ذلك وذكروا أحوالهم، ولو تحققوا لعلموا أن الأسباب رخصة الضعفاء، والمقام بها بقدر الحاجة من غير زيادة، فلا يسترسل معها إلا بعيدٌ من الله، وأن السماع رخصة المغلوب أو راحة الكامل وهي انحطاط في بساط الحق إذا كان بشرطه من أهله في محله وأدبه، وأن الوسوسة بدعة أصلها جهل السنة أو خبل في العقل، وأن التوجه لإقبال الخلق إدبار عن الحق، لا سيما قارئ مداهن أو جبار غافل أو صوفي جاهل، وأن صحبة الأحداث ظلمة وعار في الدنيا والدين، وقبول إرفاقهم أعظم وأعظم، وقد قال الشيخ أبو مدين (رضي الله عنه):

الحدث من لم يوافقك على طريقتك وإن كان ابن تسعين سنة، قلت: وهو الـــذي لا يثبت على حال ويقبل كلما يلقي إليه فيولع به، وأكثر ما تجد هذا في أبناء الطوائف وطلبة المجالس فاحذرهم بغاية جهدك.

وكل من ادعى مع الله حالاً ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كذاب أو مسلوب:

١- إرسال الجوارح في معصية الله.

٢- التصنع بطاعة الله.

٣- الطمع في خلق الله.

٤- الوقيعة في أهل الله.

٥- عدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله.

وقلما يختم له على الإسلام.

وشروط الشيخ الذي يلقي المريد إليه نفسه خمسة:

١- ذوق صريح.

٢- علم صحيح.

٣- همة عالية.

٤- حالة مرضية.

٥- بصيرة نافذة.

ومن فيه خمسة لا تصح مشيخته:

١- الجهل بالدين.

٢- إسقاط حرمة المسلمين.

٣- دخول ما لا يعني.

٤- إتباع الهوى في كل شيء.

٥- سوء الخلق من غير مبالاة.

وآداب المريد مع الشيخ والإخوان خمسة:

١- إتباع الأمر وإن ظهر له خلافه.

٢- اجتناب النهي وإن كان فيه حتفه.

٣- حفظ حرمته إن كان حاضرًا أو غائبًا، حيًا أو ميتًا.
٤- القيام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير.
٥- عزل عقله وعمله ورياسته إلا ما يوافق ذلك من شيخه.

ويستغني عن ذلك بالإنصاف والنصيحة وهي معاملة الإخوان وإن لم يكن له شيخ مرشد أو وجد ناقصًا عن شروطه الخمسة، اعتمد فيما كمل فيه، وعومل بالإخوة في الباقي.

انتهت الأصول الخمسة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه.

قال رحمه الله:

ينبغي لك مطالعتها كل يوم مرة أو مرتين، وإلا ففي كل جمعة، حتى تنطبع معانيها في النفس، ويقع تصرفك على مقتضاها، فإن فيها غنية عن كثير من الكتب والوصايا فقد قيل إنما حرموا الوصول من تضييع الأصول، ومن تأمل ما قلناه عرف ذلك ثم لا يزال يتعهدها قصدًا للتذكر بها، وبالله التوفيق؛

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين.

تأملات في أصول الطريق الزروقية:

هذه هي رسالة الشيخ زروق على وجهها وبنصها، وهي رسالة افتتحها الشيخ بالأصول الزروقية التي اعتمدها في طريقته.

وكثير من الباحثين يرون أن هذه الرسالة لم تقتصر على تسجيل واعتماد الأصول الشاذلية، ولكنها مع تحمسها لهذه الأصول قد أضافت إليها أصولاً أخرى هي أصول الطريقة القادرية.

ومن هؤلاء الباحثين الأستاذ "علي فهمي خشيم" صاحب كتاب: "أحمد زروق والزروقية" وهو كتاب نفيس طبع في "دار المدار الإسلامي".

وفي هذا الكتاب يطرح المؤلف قضية أن هذه الرسالة قد **اعتمدت الأصول الشاذلية الخمسة، وهي:**

١- تقوى الله في السر والعلانية.

٢- إتباع السنة في القول والعمل.

٣- الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤- الرضا عن الله في القليل والكثير.

٥- الرجوع إلى الله تعالى في السراء والضراء.

غير أن هذه الرسالة مع اعتمادها لهذه الأصول الخمسة قد اعتمدت معها أصولاً خمسة أخرى يراها الكاتب هي أصول الطريقة القادرية.

وهذه الأصول الخمسة الجديدة هي:

١- علو الهمة.

٢- حفظ الحرمة.

٣- حسن الخدمة.

٤- نفوذ العزمة.

٥- تعظيم النعمة.

ولو قد صح ما توقعه الكاتب فإننا سوف نجد أنفسنا أمام خريج جديد من الأصول، قد حصلنا عليه حين مزج الشيخ زروق الأصول القادرية بالأصول الشاذلية.

وهذا المزيج الجديد يعصب أن يعتبر ممثلاً للطريقة الشاذلية، كما يصعب في نفس الوقت أن نعتبره ممثلاً للطريقة القادرية.

وليس أمامنا من سبيل- والحالة هذه - إلا أن نعتبر هذا المزيج الجديد معبرًا عن توجه حديث، قام به الشيخ أحمد زروق نفسه.

وليس هناك من بأس أن نطلق على هذا المزيج الجديد بتوجهه الحادث اسم "الطريقة الزرقية".

غير أنه لا يجوز لباحث أيًا كان أن يتهم الشيخ زروق بأنه قد فتر حماسه للطريقة الشاذلية التي وضعه الشيخ الحضرمي فيها ليكون حلقة بارزة في سلسلتها.

وكيف نتصور الشيخ زروق وقد فتر حماسه للطريقة الشاذلية، وهو الذي قد

عمد إلى كتاب واحد وهو: "الحكم العطائية" لابن عطاء الله السكندري، وشرحه وعلق عليه نيفًا وثلاثين مرة بغاية الحماس والاندفاع.

وأنت خبير بأن كتاب الحكم لم يكن هو الكتاب الوحيد محل عناية الشيخ زروق، شرحًا، وتعليقًا، وتدريسًا.

ومع هذا الحماس البالغ للطريقة الشاذلية، ودعوة الأتباع للتمسك بأصولها، إلا أن هذا المزيج الذي أضيف إلى أصول الشاذلية عنده مأخوذًا من أصول الطريقة القادرية، لا يزال محل تساؤل، وموضع استفهام، ومجالاً للنظر.

فمن أين تسللت القادرية إلى الشيخ الزروقي، حتى تعرف على أصولها وصبغ بها هذه الأصول التي اعتنقها، وهي أصول شاذلية؟

إنه مهما كان من الغموض الذي يحيط بهذه المنطقة من البحث، فإن أمامنا أمران يمكن من خلالهما أن نجد ضوءًا يضيء الطريق أمام الباحث عن الحقيقة.

الأول: أن الشيخ أحمد بن عبد القادر بن محمد بن عمر بن عقبة الحضرمي، والذي كان سببًا في سلك الشيخ أحمد زروق ضمن نظام الطريقة الشاذلية، كان شيخه المباشر أبو زكريا يحيي القادري، الأمر الذي يرجح أن يكون الشيخ زروق قد تسللت إليه أصول الطريقة القادرية عن طريق الشيخ الحضرمي نفسه، وهو العملاق الذي التقت عنده السلتان: القادرية والشاذلية.

وهو أمر احتمله صاحب كتاب "زروق والزروقية" المشار إليه سلفًا، فذكر السلستين معًا حتى جمع أطرافهما في يد الشيخ الحضرمي، ومنه إلى الشيخ أحمد زروق على هذا النحو:

السلسلة الأولى التي تربط زروق بالشاذلية المحضة هي: الشيخ أحمد زروق عن أحمد بن عِقبة الحضرمي، أبو زكريا يحيي القادري. علي بن وفا القرشي. محمد ابن وفا القرشي. داود الباخلي. ابن عطاء الله السكندري. أبو العباس المرسي. أبو الحسن الشاذلي. عبد السلام بن مشيش. عبد الرحمن الزيات المدني. تقي الدين الفقير. فخر الدين علي. أبو الحسن نور الدين. شمس الدين السيواسي. أبو الحسن القرشي. زين الدين القزويني. إبراهيم البصري. أحمد المرواني. أبو

محمد سعيد. أبو محمد سعد. فتح السعود. سعيد الغزواني. أبو محمد جابر. الحسن السبط. علي ابن أبي طالب. النبي (ﷺ).

السلسلة الثانية التي تربط الشيخ زروق بالقادرية هي على النحو التالي: أحمد زروق عن أحمد بن عقبة الحضرمي. أبو زكريا يحيي القادري. أبو مسعود أحمد. أبو صالح نصر. عبد الرازق الجيلاني. عبد القادر الجيلاني. سعيد بن المبارك المحرمي. على الهكاري. أبو فرج الطرسوسي. عبد الواحد التميمي. أبو بكر الشبلي. أبو القاسم الجنيد. السري السقطي. معروف الكرخي. علي الرضا. موسى الكاظم. جعفر الصادق. محمد الباقر. علي زين العابدين. الحسين السبط. علي بن أبي طالب. النبي (ﷺ).

وثاني الأمرين اللذين يضيآن الطريق أمام الباحثين، هو أن الطريقة الشاذلية نفسها ليست من الطرق ضيقة الصدر، ومتبعوها ليسوا من الذين يتعصبون لمبادئهم لا يسمحون لها أن تؤثر في أحد غيرهم، ولا تتأثر بمبادئ أخرى خارج نظام الطريقة الشاذلية.

ولهذا التسامح نفسه أمكن للمبادئ القادرية أن تدخل على ساحات الذكر، وقراءة الأوراد، ومؤثرات السلوك لدى الشيخ زروق وأتباعه.

تسامحٌ جديد:

والطريقة الزروقية ومؤسسها الشيخ أحمد زروق قد تسامحوا تسامحًا عظيمًا في قبول مبادئ أخرى غير مبادئ الطريقة القادرية، الأمر الذي جعل الطريقة الزوقية ذات نطاقٍ فضفاض، يُضفي عليها سعة الانتشار، واتسعا المجال.

ومن هنا يمكن لنا أن نلاحظ ملاحظتين على جانب كبير من الأهمية.

أما **الأولى منهما:** فهي أن الشيخ زروق قد سمح لنفسه أن يدخل في نطاق طرق أخرى غير الشاذلية والقادرية، وإن كانت هذه الطرق التي دخلها زروق لها بالطريقة الشاذلية صلة.

ومن هذه الطرق التي دخلها زروق، واصطنع مبادئها منهجًا له ولتابعيه، هذه الطرق الخمس التي اشتهر عنه أنه قد اتبعها: اثنتان منها فرعان من الشاذلية،

ثلاث لا علاقة لها بها على الإطلاق. فالأوليان هما: "الوفائية" من خلال لحضرمي ويحيي القادري، و"الجزولية" على يد مؤسسها أبي محمد سليمان لجزولي. والثلاث الباقية هي: "السهرودية" عن طريق محمد الزواوي المدني لعله لزيتوني و"الجشتية" من خلال أحمد بن عروس، وأخيرًا "العروسية" عن طريق مؤسسها ابن عروس وتلميذه أبي إسحاق إبراهيم الزواوي.

وثاني هاتين الملاحظتين اللتين لاحظناهما: هي أن الشيخ زروق لم يأخذ أتباعه في الطريق بالشدة، وإنما سمح لنفسه أن يحكمه مبدأ من السهولة واليسر يجعله ينظر في أحوال مريديه، ويضع كل واحد منهم على مبادئ الطريقة التي تناسبه، حيث العزيمة وقوة الإرادة؛ فمن وجد من مريديه من تراجع في إرادته نصح له أن يسلك إلى الله طريقًا فيه من المبادئ والتكاليف والالتزامات ما يناسب هذه الإرادة المتواضعة.

تلك هي خواص الطريقة الزروقية حين اكتملت معالمها، وتكاملت شخصيتها.

* * *

نشأة وتطور الطريقة الزروقية

هذه مرحلة من البحث قدمنا بين يديها سمات وصفات الطريقة الزروقية.

ومن يقرأ هذا العنوان الذي جعلنا عنوانًا لهذه الفقرة، يرتسم في ذهنه أن أول خطوات البحث في هذه الفقرة، أن نتحدث عن نشأة الزروقية في حياة الشيخ أحمد زروق.

ومع أن هذا التصور الذي ينطبع في ذهن القارئ لهذا العنوان بادي الرأى، يُعدُّ من المسلمات التي لها اتصالٌ بواقع الأشياء، إلا أن الاستجابة لهذا التصور من الناحية العملية هنا يعد أمرًا بالغ الصعوبة، لا لشئ إلا لأن المكاتبات والمأثورات التي يُفترض أنها قد صدرت عن الشيخ أحمد زروق ترغب مريديه في إتباعه، وتدعو الناس إلى طريقته، تكاد تكون منعدمة، أو في أقل القليل نادرة الوجود.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن الشيخ زروق قد ظل يعتبر نفسه مريدًا لمشايخه، خاصة الشيخ الحضرمي الذي طال ارتباطه به، وظلت اعترافات الشيخ زروق له بالتلمذة إلى ما قبل وفاة الحضرمي بقليل.

ومع أن الشيخ زروق لم يدعُ الناسَ إلى الطريقة الزروقية، إلا أنه قد توفرت له سمات المعلم، كما توفرت له ظروف اعتلاء كرسي المشيخة يُلقي دروسًا في علوم الشريعة وعلوم الحقيقة على السواء في أكثر من بلد توفر له فيها الحل بعد الترحال.

والأمر الذي ينبغي أن نجزم به كما جزم به كثير من الباحثين، هو أن الطريقة الزروقية قد تهيأ لها الانتشار، كما تهيأ لها اكتمال شخصيتها على يد المريدين الذين تابعوا مبادئ الشيخ زروق واتبعوا منهجه بعد وفاته.

زروق شيخًا:.

هكذا يتبين لنا أن الشيخ أحمد قد قضى قسطًا كبيرًا من حياته تابعًا لمشايخه مع أنه كان يحمل بين جنبيه شخصية الرائد والشيخ، تلح عليه في ذلك وتطلبه أن يحتل مكانته.

ومع أننا كنا نراه مرتبطًا بكثرة كاثرة من المشايخ، يدين لهم بالمشيخة ويعترف لهم بالإمامة، ويحمل نفسه على أن تكون بين يدي الواحد منهم في مجلس المريد الذي يطلب العلم النظري، والنصيحة التي يضبط بها سلوكه في الجانب العملي.

مع أننا نرى ذلك من تاريخ زروق، إلا أنه كان يعتبر الشيخ الحضرمي هو المُقَدَم الوحيد بين هؤلاء.

وهو المسلك الذي التزمه الشيخ زروق قلل الفترة التي ظهر فيها زروق شيخاً له مريدون، وأستاذًا له طلاب، وقائلاً يحتشد حوله السامعون ويتنادون إلى مجلسه من كل مكان.

ومشيخة أحمد زروق قد أبانت عن نفسها في أكثر من مكان من حواضر العالم الإسلامي، وهي أماكن مع تعددها لم يتسع صدرها ليكون فيها مكان يحتله مسقط رأس الشيخ ومدرج طفولته (فاس)، لأسباب قد ذكرناها بين يديك من قبل.

وهذه الأسباب التي ذكرناها بين يديك من قبل ربما لم يلتفت إليها عن قصد مؤلف كتاب "طبقات الشاذلية"، لأن السبب الوحيد عنده أنه في جلسة الصفاء بعد الجفوة بينه وبين الشيخ الزيتوني في فاس، اشترط الشيخ الزيتوني لكي يعفو عن زروق، ويتنازل عن حق ارتكبه في حق شيخه، ألا يجمعه به وطن.

وأنا سأحاول أن أنقل لك ما قاله صاحب "الطبقات" بألفاظه، وهو مع ما عسى أن يكون فيه من تكرار، فإن تكراره هنا لا يخلو من فائدة ستقف عليها بنفسك.

قال أبو علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي المتوفي سنة ١٣٤٧هـ في كتابه "الطبقات" - طبع دار الكتب العلمية- بيروت- ط٢/ ٢٠٠٥م- ١٤٢٦هـ ص ١١٨: [... ثم حبب إليه التصوف، فانتظم في طريق القوم على يد المسلك مولانا عبد الله المكي، فأخذ عنه الطريقة، ولازم خدمته زمانًا.

واتفق له أنه دخل على شيخه في خلوته يومًا فرأى عنده امرأتين جميلتي الصورة، إحداهما عن يمينه، والأخرى عن يساره، وهو يلتفت إلى هذه تارة، وإلى هذه تارة، فقال مولانا زروق في نفسه: إن هذا لزنديق. فقال له الأستاذ: اذهب يا

يهودي. فخرج من عنده، فكأنه ألقى عليه سمة اليهود، فصار يبكي، ويتضرع إلى الله تعالى، ومشى إلى بعض أحبابه، فسأله أن يمشي معه إلى الأستاذ، ويستعطفه، فمشى معه إلى الأستاذ، فاستعطفه، فعطف عليه وقبله، وقال له: ب شرط أن لا يجلس معنا في بلاد أنا فيها، ثم التفت إليه وقال له: يا زروق المرأتان اللتان اشتبهتا عليك هما الدنيا والآخرة، فالدنيا تريد إقبالي عليها، والآخرة تريد إقبالي عليها، وأنا لا ألتفت إلى قولهما].

ولو قد صح ما اعتمده صاحب "طبقات الشاذلية"، فإننا لا نرى بأسًا من أن نضمه إلى ما ذكرناه من قبل من أسباب حملت "فاس" على أن تنبو بزروق، وعلى أن لا تفسح له مكانًا يأخذ فيه حظًا من الشهرة.

اشتهر زروق إذًا في أخريات حياته، وظهرت شهرته في أكثر من حاضرة من حواضر العالم الإسلامي.

ونحن سنحدثك عن هذه الحواضر التي اشتهر فيها زروق حسب أهمية كل حاضرة، وموقع الحضارة الإسلامية منها، وموقعها من هذه الحضارة دون التفات إلى اعتبارٍ آخر.

زروق شيخًا في القاهرة:.

ومن الجواضر الإسلامية التي ظهر فيها زروق شيخًا مدينة القاهرة، وفي القلب منها "الأزهر الشريف".

وزروق قد مر بالقاهرة في قدومه من المغرب إلى الأراضي المقدسة، وفي الإياب من الأراضي المقدسة إلى بلاد المغرب مرات كثيرة، وما كان في واحدة منها يمر بالقاهرة مرور الكرام، أو مرور السهم بالرمية، وإنما كانت القاهرة له في ذهاب وإياب محل تنفس الصعداء، ومكان التقاط زاد الراكب.

ولقد كانت القاهرة لزروق أوائل مروره بها ظئر الفصيل، ترضعه لبان المعرفة تشد به عوده، وتُكمل به شخصيته.

فلما اشتد ساعد الرجل رفعته إلى محل نجم المعرفة من سمائها، يراد الطالبون فتنشرح برؤيته صدورهم، ويستمع إليه الراغبون فيعتبرون صوته في دوحة العلم

دعاء الكروان.

والفاسي كاتب الطبقات يتحدث عن هاتين الفترتين من حياة الشيخ زروق، فيقول بعبارة جذابة، وباصرة ملتقطة بعد كلام عنه: [وبعد ذلك خرج مولانا زروق من مدينة فاس، وقدم إلى مصر، وتلاقى مع مولانا سيدنا أبي العباس الحضرمي (رضي الله عنه)، وأخذ عنه الطريق، وتلقن الأوراد، وفُتح له على يديه، وصار شيخه في التربية، وانتسب إليه، ولازمه، وهو شيخه الذي لا معول له في الطريق إلا عليه.

ولما سمعت بقدومه العلماء والفضلاء من أهل مصر وفدوا عليه، وتمثلوا بين يديه وحضروا دروسه، وصار يدرّس في الجامع الأزهر الشريف، وكان يحضر درسه زهاء ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة وأحوازها.

وتولى إمامة المالكية، وصار أستاذ رواقهم، ونصبوا له كرسيًا عالي الأركان، بديع الإتقان، صار يجلس عليه، ويملي الدروس ويفيد، فانتفعت على يديه الأحرار والعبيد، وهذا الكرسي موجود إلى وقتنا هذا برواق السادة المغاربة بالأزهر الشريف.

وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين، وله عندهم القبول التام عند الخاص منهم والعام] (ص١١٨).

هذه هي القاهرة في حياة زروق هدهدته بين ذراعيها في أوائل الطلب، وأمدته بمائها وعناصر شخصيته في أيام تكوينه، ثم جنى ثمرته حين أخرج شطأه فآزره شطؤه وآزر شطأه فاستغلظ واستوى على سوقه.

قدمت القاهرة لزروق الإحسان، فرد على الإحسان بالإحسان إعمالاً للنص الكريم: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان".

وجميع المؤرخين لزروق يعلمون أن القاهرة هي سطة العِقْد، وجوهرة القلادة في سيرة زروق، وفي مسيرته على السواء.

ومن أوائلهم هذا المؤرخ الليبي الشهير الذي أفرد لزروق والزروقية مؤلفًا اشتهر بهذا الاسم، وهو: الأستاذ على فهمي خشيم.

قال يقدم بين يدي ما نقله وأثبتناه بين يديك مما ذكر في طبقات الشاذلية عن أثر القاهرة وعلمائها في شخصية زروق، وعن إتاحة القاهرة لزروق أن يعتلي كرسي المشيخة في الأزهر الشريف، وهو منطقة القلب منها.

[... في القاهرة:

كانت القاهرة محط رحال الغادين إلى الحج والرائحين منه، وكان الجامع الأزهر مقصد العلماء والتلاميذ، فيه يعملون ويتعلمون مختلف فروع المعرفة الإسلامية والإنسانية على حد سواء، وكان من نظام الأزهر، ولا يزال، أن يخصص قسمًا من بنائه ملحقًا به يعيش فيه القادمون إليه من جميع أنحاء العالم يسمى "الرواق" يضم – في العادة– أهل ناحية ما أو مذهب معين ينسب الرواق إليهم، وكان "رواق المغاربة" أحد الأروقة المهمة المزدحمة الكثيرة الحركة والنشاط، ومن المرجح أن شيخنا عاش في هذا الرواق منذ وصوله القاهرة لأول مرة، وفي أثناء زياراته لها، إذ ليس هناك ذكر لموقع سكنه وعيشه في القاهرة غير الأزهر.

وكان زروق في خلال زيارتيه الأولى والثانية للقاهرة منهمكًا في تلقي العلم ومتابعة الدرس على أيدي شيوخه والاستفادة من أهل الفقه والتصوف معًا.

ولم يكن قد عُرف بعد وذاع صيته، لكن الأمر اختلف فيما يلوح، عند زيارته الثالثة عام ٨٨٤هـ– ١٤٧٩م ثم الرابعة بعد ذلك بعشر سنوات يوم قام بحجته الأخيرة] (ص١٦٤، ١٦٥ طبع دار المدار الإسلامي – ط٣– ٢٠٠٢م).

وفي القاهرة تأكدت مشيخة الشيخ أحمد زروق في علوم الشريعة وفي علوم الحقيقة على السواء، وأصبح له فيها أتباع ومريديون.

منهم: عبد الوهاب الشعراني، وشهاب الدين أبو العباس القسطلاني، وشمس الدين اللقاني وأخوه ناصر الدين، وغيرهم.

أما شمس الدين اللقاني وأما أخوه ناصر الدين فقد تعشقا الشيخ زروق واشتدا ولاؤهما له فوق تعشقهما للوطن، وفوق ولائهما لمسقط رأسيهما، فتابعاه عندما أراد الرحيل عن القاهرة إلى مصراتة، وظلا معه إلى يوم وفاته.

زروق في مكة: .

يؤكد صاحب كتاب "زروق والزرقية" على أن اشتهار الشيخ زروق في مكة لم يكن على مستوى اشتهاره في القاهرة؛ حيث إنه لا يُعرف شيء من نشاط زروق في مكة إلا ما يذكر من أنه قابل تلميذه أبا الحسن البكري هناك؛ حيث لقنه ونسبه في طريقته، ربما في أثناء حجته الأخيرة عام (٨٩٤هـ- ١٤٨٩م) وكان البكري من أهل مصر وهو مؤسس الطريقة البكرية- الزروقية.

زروق شيخًا في المغرب وشمال إفريقية: .

أ- في الجزائر: .

من خلال مجموعة من المراجع المخطوطة والمطبوعة، والتي نُسب جُلُّها إلى مؤلفين من شمال إفريقية قد طالتها يد مؤلف كتاب "زروق والزروقية" قد مكنت كلها لمؤلف أن يتحدث عن أحمد زروق في الجزائر عامة، وفي بجاية والجزائر العاصمة على الخصوص.

ومن خلال ما كتب "علي فهمي خشيم" قد علمنا أن الشيخ زروق زار الجزائر أكثر من مرة، وكان تركيزه في أوقات إقامته بها على بلدة بجاية، وهي بلدة سبق أن حدثناك عنها من قبل.

والشيخ أحمد زروق قد مر في بجاية بمرحلتين: مرحلة التبعية لمشايخه وأساتذته وهي المرحلة الأطول، كان لا يمل فيها من التصريح بهذه التبعية خاصة تبعيته للشيخ الحضرمي.

لكنه في آخر أيامه وفي سنة (٨٩٢هـ- ١٤٨٧م) على الخصوص قد استظهر صاحب كتاب "زروق والزروقية" أن مولانا الشيخ زروق قد أعلن استقلاله وتكامل شخصيته، ثم دعى الناس إليه فجمع من حوله الأصحاب والمريدين ولقنهم ونسبهم إليه.

ومن المؤكد أنه زار الجزائر (العاصمة) وموقعًا يدعى "تموقر" كذلك.

و"تموقر" هذه موقع عند "بني عبدل" في أنحاء بجاية، ألف زروق فيه كتابه "الجامع لجمل من الفوائد والمنافع" بجامع سيدي يحيي بن محمد العبدلي، (على ما

جاء في نهاية "الجامع" ح/ حسن حسني عبد الوهاب / تونس ١٨٠٣٦).

وفي "تموقر" و"بجاية" نُسب إليه الكثيرون، منهم: عبد العزيز القسنطيني، طاهر بن زمان القسنطيني، وشيخ الطريقة المشهور أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي، وكان الأخير تلميذاً قريبًا من زروق، وعن طريقه وجدت "الزروقية" سبيلها إلى طرق أخرى ومارست تأثيرها في غيره من أهل التصوف.

ب – في المغرب:.

ونحن هنا نقصد بالمغرب ما يقصده المعاصرون من دلالة هذا الاسم، وهو هذا الوطن الذي يقع غرب الجزائر إلى الإطلالة على المحيط.

وربما يكون حديثنا عن الشيخ هنا حديثًا مدهشًا إلى حدّ ما، حيث قد صرحنا من قبل بأن وطن الشيخ زروق قد نبى به، وأن أهل هذا الوطن قد قَلَوْهُ لسبب أو لآخر قد تحدثنا عن ذلك من قبل.

وهذه دهشة لها مبررها لولا أننا نعلم من خواص الاجتماع الإنساني، أن الناس لا يُجْمِعون على مجافاة أحد، كما لا يجمعون على وداده.

وانطلاقًا من هذه الخاصية نقول: إن الشيخ وإن كان قد عان من جفوة وطنه وذويه، إلا أن كثيرًا من المؤرخين قد ذكروا أن الشيخ قد حظى بأتباع في المغرب أخلصوا له التبعية وجمعوا له في قلوبهم كثرة من المحبة وكمًا غير يسير من الوداد، منهم: أبو القاسم الزهوني، إبراهيم الزرهوني، عبد الملك بن سعيد، أبو القاسم المغراوي، محمد موسى بن أيوب، محمد السرسوري، محمد السلاوي، أبو محمد عبد العزيز، عبد الله المدغري، وإبراهيم الفحام (أو الحجام)، صرح بذلك "المهدي الفاسي" في كتابه "تحفة أهل الصديقية" ص ٤٥ وما بعدها.

ج – في طرابلس:.

ومن أهم الأماكن التي اشتهر بها الرجل طرابلس الغرب، نزل به في ذهابه وإيابه إلى الحج وبعد الفراغ منه.

ويبدو لي ولكل باحث أن هذه المنطقة كانت تجتذبه إليها ليبقى فيها يعلم بعض أهلها ويؤدبهم بعلم الإسلام وأدبه.

وصاحب كتاب "طبقات الشاذلية" قد لفت نظره تعلق الشيخ زروق بهذا المكان وظهور بعض آثاره وكراماته به.

فقال وهو يؤرخ للرجل ويكتب سيرته: [... ثم توجه إلى طرابلس الغرب فأحيا فيها معالم الطريق، وأوضح بيان التحقيق، وأشهر بها الطريقة الشاذلية، ونشر أعلامها السنية، فانقاد إليه المريدون، وهابته ملوك العالمين، واجتمع بسيد المرسلين، ونسبت إليه الطريقة لما ظهرت عليه أنوار أهل الحقيقة].

والشيخ أبو علي الحسن الفاسي وهو يكتب عن الزروقي في طرابلس الغرب قد أغفل وأفاض.

ونحن سنثبت ما أغفله وأعرض عنه استنادًا إلى ما ذكره غيره.

ونحن سنثبت ما ذكره من مناقب الرجل وكرامته في طرابلس كي تكتمل الصورة بين يديك.

أما ما أغفله، فهو ما يتصل بهؤلاء الأعلام الذين تابعوا الشيخ زروق وتتلمذوا على يديه، واحتسبهم المؤرخون من مريدي الشيخ وتلامذته، وهم كثيرون، منهم: أبو محمد على الخروبي الطرابلسي الذي صار ابنه أبو عبد الله الخروبي أحد تلاميذ زروق المقربين، وثمة أيضًا محمد بن عبد الرحمن الحطاب الرعيني وابنه أبو البركات، من أسرة الحطاب المعروفة بالعلم، وكلاهما تلقى العهد منه ويعتبر من أتباعه المباشرين.

وأما ما أثبته متصلاً بمكانة الرجل وكراماته التي أظهرها الله على يديه في طرابلس، فنحن ننقله على وجهه بعبارته حيث قال:

[كان (رضي الله عنه) صاحب حال وبهاء وجمال ودلال، أطلعه الله على المغيبات، فنطق بسائر اللغات، لم يختلف فيه اثنان، ولا تقاول فيه قولان، فهو صاحب التصريف الأكبر، وغوث الأنام الأزهر.

وله كرامات خارقة، وأحوال صادقة، فمن كراماته (رضى الله عنه):

أن قبيلة من قبائل عرب طرابلس كانوا قطاع طريق، لا تمر بهم قافلة إلا نهبوها، فمر عليهم مولانا (رضى الله عنه)، فنهبوه هو وتلامذته، حتى تركوهم

مستوري العورة، فنظر بعض المريدين إلى مولانا، فوجده لم يتغير، فقال لبعض العربان الذين نهبوا مولانا: انظروا إلى ذلك الأستاذ عنده ذهب في سرواله، فجاء البدوي إلى مولانا وقال: انزع السروال. فقال: سبحان الله، العورة يحرمُ علينا كشفها. فقال له مرة ثانية: انزعه، وإلا قتلتك، ومولانا يعظه بقوله: العورة حرام علينا كشفها، فتقدم البدوي إلى مولانا، فقال مولانا للأرض، أيتها الأرض ابتلعيهم، فأخذتهم الأرض جميعًا، فصاروا يتضرعون إلى مولانا، ويقولون: تبنا إلى الله. فقال مولانا للأرض: أيتها الأرض أطلقيهم. فأطلقتهم. فخرجوا منها، وتابوا جميعًا، وصاروا مع مولانا لم يتخلف منهم أحد، وصاروا خدام الزاوية الزروقية، وإلى الآن باقي من نسلهم أناسٌ يخدمون هذه الزاوية ويقال لهم خدام الزاوية الزروقية].

وجماع القول هنا أن الشيخ زروق قد انتهت إليه الرياسة الدينية، والزعامة الصوفية في طرابلس أثناء إقامته بها، وهو قد شعر بذلك فقال لأتباعه على ما ذكره صاحب "طبقات الشاذلية": [... وأمر بلسان الحال أن يقول في ميدان الرجال ماسكًا بلحيته: لا شيخ بعد هذه اللحية].

د- في مسراتة:.

إن مسراتة لتعتبر بالنسبة للشيخ آخر الأماكن التي نزل بها.

وفي أرجح الأقوال أنه قد نزل بهذه المحلة في عام (٨٨٦هـ - ١٤٨١م)، وظل بها إلى يوم وفاته.

وتعد مسراتة من أنسب الأماكن التي كان على الشيخ أن يختارها ليقيم فيها بقية حياته، ويعالج فيها مستلزمات أوقاته.

وهي من أنسب الأماكن لمقام الشيخ لعدة أسباب، ذكرنا بعضها فيما قبل، ونزودك الآن بما يعضد ما ذكرناه هنا من دعاوي.

إن من يتأمل حال الشيخ يعلم أنه يحتاج إلى مكان يحل منه بعد طول سياحة، وإلى مناخ مناسب ترتخي فيه أعصابه ونفسه بعد طول حركة واضطراب، وهو يحتاج إلى واجهة يؤمها الناس ويمرون بها في ذهاب ورواح.

وهذه الحوائج وغيرها لا يصلحها إلا مثل مسراتة؛ فهي تمثل هذا المكان

الهادئ الذي ألقى بنفسه بين أحضان المتوسط، يمده ويأخذ منه؛ يمده بأسباب الحياة لمن يعيشون في البحر يطلبون أرزاقهم فيه، والبحر يمده بالهواء النقي، والمنظر الرضى، والسكون الذي يعين على التأمل وإعمال النظر.

ومثل مسراتة مكانٌ يناسب إقامة الشيخ فيه، فهو يمثل الحد الفاصل بين عمرانٍ يؤمن الغذاء ويدفع إلى الطمأنينة، وبين صحراء ممتدة إلى الجبل الأخضر إلى الشرق في ليبيا.

ومكانٌ هذه خاصيته يحمل القادمين من الغرب إلى الشرق قاصدين البيت الحرام أن يقيموا فيه، ريثما يرتبون زادهم من الطعام والشراب وأسباب الأمن وهم يقطعون هذه الصحراء المترامية الأطراف.

والقادمون من الغرب كذلك يحتاجون إلى أن يتزودوا بخير زاد، وخير الزاد التقوى، وهو زاد يحتاج إلى مثل الشيخ زروق وتابعيه، يُقبل عليهم الذين يقصدون الحج، فيرتشفون من مَعِينهم، ويبذل لهم الشيخ من كوثر نصائحه ما يساعدهم على أن يخبتوا إلى ربهم.

وهذا المكان مسراتة بما له من هذه الخاصية، يعد دوحة يؤمها القادمون من الشرق بعد أن قضوا تفثهم بمكة، وأنهم نسكهم بالحرمين الشريفين.

وبعد أن قطعوا هذه الصحراء المُجْهِدة والمخيفة، بما تسلب الطاقة من الأبدان، وبما تستل الأمن من النفوس.

والمرء إذًا فقد الطاقة والأمن احتاج إلى أن يتنفس الصعداء، ويملأ رئتيه بالنقي من الهواء؛ وما مِثلُ مصراتة إلا مَثلُ هذه الواحة الخضراء وسط صحراء الشقاء ولأوائها.

يأتي القادمون من الحج إلى هذه المحلة محملين بأنوار النبوة وأنوار الحرمين الشريفين، مقبلين على الشيخ زروق، فيبادلهم نورًا بنور، وضياءً بضياء.

وإذا كان نور الحجيج الذي غمرهم قد حُمّلوه من الأراضي المقدسة، فإن أنوار الشيخ قد عمت ظاهرة من باطنه، وخارجه من داخله على ما هي طبيعية الإيمان، وسمت التقوى.

لقد أقام الشيخ في مصراتة آخر أيامه، وهي أنسب مكان لمقام خير الرجال، وأنسب مناخ تتكامل عناصر التقوى فيه؛ فلقد كان الحجاج الأتقياء يأتون إليه قاصدين بركته راجين دعواته، وهم في طريقهم إلى مكة وفي طريق العودة منها، وكان طبيعيًا أن يتلقوا منه العهد والتلقين، وأن ينتسبوا إلى طريقته.

وفي فترة مقام الشيخ زروق بمسراتة، لمعت تحت سمائه أسماءهم له أتباع ومريدين، ولطريقته متبعون ولتعاليمها آخذون، وذلك من نحو: صديقه الحميم أبي زعامة، وخادمه المقرب أحمد بن عبد الرحيم، وتلميذيه محمد البرموني وأبي العباس أحمد بن غلبون.

ولأن الشيخ عالي الهمة قوي الإرادة؛ فإنه يظهر للباحثين أن الشيخ لم يقتصر على هذه الدائرة التي تمثل حدود مصراتة الإدارية والعمرانية، إنما قد وجدناه يمتد إلى ما وراء هذه الحدود بدعوته ووصاله؛ فحرص على إبقاء صلته بمريديه البعيدين عنه بعد استقراره فيها. وكان يقوم بزيارتهم في بلداتهم كلما مر بهم، كما كان يكاتبهم ويبعث إليهم برسائله متضمنة توجيهه ونصحه، وهذا ما يتضح لنا من رسالة بعث بها إلى خليفتين له في المغرب طلبًا مشورته في السماح لبعض المريدين بالانخراط في سلك الطريقة، فكتب إليهم هذه الرسالة التي نثبت نصها بين يديك:

[من العبد الفقير إلى رحمة ربه أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنس الذي اشتهر بزروق، أصلح الله حاله. إلى السادات الفقراء الأحباب في الله تعالى، عبد الله المفراوي- كان الله له في الدنيا والآخرة- وحبيبه في الله تعالى الفقير عبد الملك بن سعيد- أسعده الله تعالى بمرضاته ونور قلبه وكفاه شر نفسه، ثم سائر الإخوان لمن أراد الدخول في دائرة الأصحاب والأحباب... فقد بلغنا منكم كتاب يتضمن كمال الوداد وحسن الظن وجميل الاعتقاد، فيه أشواقكم إلينا وانعطافكم بكافة الهمة علينا... ويا أخي طلبتم مني إدخال فلان وفلان في الدائرة، وليس ذلك لي ولا باختيار نفس العاصية... ولكن قل لهم: عليكم باللجوء إلى الله في مقصدكم...

وما ذكرت لكم هو طريقتي والسنة التي كان عليها رسول الله (ﷺ) يعمل بها

حتى لقي الله تعالى. والزيادة لا أحبها والنقص لا أريده.

هذا خاص بك يا عبد الملك. وأنا كتبت لك (الوظيفة) التي استعملتك فيها. فإن تيسر لكم فقوموا بها في زواياكم، فإنها مأخوذة من أحاديث رسول الله (ﷺ)].

وهذه هي رسالة أخرى لها ذات الدلالة، كتبها ردًا على أبي الخير عبد النبي الأصفر، وهذا مثالها.

قال: [من عبيد الله الفقير إلى رحمته، أحمد زروق، أصلح الله حاله، إلى وليه في الله تعالى وأخيه أبي الخير عبد النبي... تولاه الله بإحسانه في الدنيا والآخرة. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد. فقد بلغنا كتابكم وتعرفنا ما به، جازاكم الله عنا وعن أنفسكم خيرًا. واعلم - يا أخي - أن الدنيا دار الله والخلق فيها مسلطون ومسخرون حسبما اقتضاه التصريف الإلهي والحكم الرباني، فكن بالله واثقًا وبغيره بكنه الله مفارقًا... وقد أقام الله - والحمد لله - في قلوب الخلق هيبتك وألزمهم وجود حرمتك - فاشكر الله على ذلك. والجأ إليه في كمال ما هنالك، واستعن على أمرك بالله. واعلم أن السمين من قوي قلبه بالله والهزيل من خلت أوقاته من العز بالله.. والسلام عليكم التام وعلى أهلكم ومن يعلق بكم. والسلام].

وهذه الرسائل في جملها تمثل لونًا من التواصل بين زروق وأتباعه.

ولم يقتصر الأمر في التواصل بين الشيخ والأتباع على مجرد الرسائل عن بعد، وإنما ازدادت الروابط بين الشيخ وتابعيه حتى حملت الكثيرين منهم على أن شدوا الرجال إليه.

ومن هؤلاء الذين شدوا الرجال إليه -أبو علي منصور بن أحمد البجائي- ترك بجاية وقدم إلى الشيخ وعاش إلى جواره حياته، ثم بقي بمصراتة بعد انتقال الشيخ، وبني بإحدى زوجتيه من بعده على ما ورد في رحلة العياشي ص ٩٨. ونقله صاحب كتاب "زروق والزروقية".

ومن الذين قدموا على الشيخ في مسراتة من المغرب الأقصى- أبو عبد الله محمد المغراوي- ومن مصر- شمس الدين اللقاني- وأخوه- ناصر الدين- وقد أخلصا له حياته، وتولى شمس الدين أمر الطريقة من بعده، لكنه لم يصبر طويلاً

على مفارقة الأوطان، فعاد إلى مصر، ونزل بقريته (لقانة) وعاش بها مع الحفاظ على حبل الوداد مع قرنائه بمصراتة، وقد حرص بعضهم على زيارته من حين لآخر.

نتيجة: .

وهكذا انتشرت "الزروقية" وازدهرت في أثناء حياة شيخها وصار عدد أتباعها يزداد يومًا بعد يوم، في ذلك المناخ الطيب المشبع باحترام الشيخ وحبه، والتحلق من حوله، وتقبل تعاليمه، وقبول نصائحه وإرشاداته، سواء أكان ذلك في القاهرة كما رأينا، أو في مكة على شيء من الندرة، أو في بجاية، أو في طرابلس، أو في مسراتة.

* * *

الزروقية بعد زروق

لقد تحدثنا حديثًا مطولاً نوعًا ما من الطول عن الزروقية في عهد "زروق" إن صح لنا أن نعتمد هذا الاسم بما له من دلالة تخصه وهو اعتماد يدعو إلى التوقف.

تحدثنا عن الزروقية في عهد زروق حديثًا قصاراه أن زروق دعا الأتباع إلى نفسه في السنوات الأخيرة من عمره وهي سنوات سجلت في أوائلها السنوات الأخيرة من عمر الشيخ القحطاني في مصر.

ومع أن الشيخ زروق قد دعا المريدين إلى اتباع منهجه وطريقته، فإن طابَعَ الطريقة الشاذلية التي طُعمت بالقادرية ظلَّ باديًا عليه.

ولم يشأ الشيخ زروق أن يحدد سمات لطريقته كما لم يشأ أن يضع لها اسمًا أو عنوانًا.

ولقد كان رده المشهور على كل من يطلب إليه أن يحدد لطريقته مميزات من مكان أو خواص يجعله يشتهر بين الناس ويذيع صيته من بعده في الآفاق كان يقول إن المرء لا يظهر ريح مسكه إلا إذا سُوِّسَ تحت التُراب.

لقد ذهب الشيخ زروق إلى رحاب ربه وشخصيته وشخصية طريقته ذائبتان في الطريقة الشاذلية.

وحين رحل الشيخ زروق لم يكن في مكان رحيله من معالم إلا قبره الذي وُرِيَ الترابُ فيه.

غير أن أتباعه من بعده قد حرصوا على أن يكون لقبره من بعده أهميته التي تجذب إليه أنظار الحجيج القادمين من المغرب إلى مكة والعائدين من مكة إلى رحالهم بعد أن أتموا نسكهم في الفترة التي كان فيها الحجيج يسلكون إلى مكة الطريق البري وهو أمر تبدل وتغير بعد أن سلك الحجيج إلى أرض الحجاز البحر وركبوا إليها السفن.

والذين اعتنوا بقبر الشيخ كثيرون من أتباعه ومريديه كان يقودهم في أول الأمر شمس الدين اللَّقَّاني وهو مصري الجنسية كما علمتُ.

وحين رحل اللقاني عن مصراتة إلى مصر تولَّى قيادة العمل وتعهد قبر الشيخ والقيام على شأن رُوَّاده الشيخ أحمد عبد الرحيم وأولاده معه ومن بعده علـــى مـــا احتمله بغير دليل مؤيد أو دافع معارض صاحب كتَابٌ "زروق والزروقية".

وفي جميع الأحوال نكاد نقول إن الزروقية كطريقة لهـم تغيـر كثيـرًا مـن صبغتها الشاذلية التي يمازجُها شيء من مبادئ القادرية.

فتأمل.

فروع الزروقية:.

ولقد أثبت المؤرخون مع ذلك للزروقية فروعًا كانت كلها ضـعيفة الانتـشار بطيئة الإيقاع قصيرة المدى.

وهذه قائمة بهذه الفروع نتبع كل فرع منها بما يلقي الضوء عليه، ننقلها كلهـا عن المؤرخ الليبي / علي فهمي خشيم.

قال: (وفيما يلي قائمة بفروع الزروقية مع بعض التفصيلات عـن مؤسـسيها وصلتهم بزروق وموقع هذه الفروع:

١- البكرية الزروقية:.

أنشأها أبو الحسن البكري (ت: ٩٠٩هـ- ١٥٠٣م) في مصر بعـد أن أخـذ العهد عن زروق في مكة، واستمرت في النمو ولعبت دورًا مهمًا في تاريخ مـصر وبخاصة عند الغزو الفرنسي لها. وحين أدخل نابليون بونابرت تغييراته الاجتماعية المعروفة في مصر جعل البكرية على رأس الطوائف الصوفية هناك.

السلسلة: أبو الحسن البكري. أحمد الزروق.

الموقع: مصر.

٢- العيساوية:.

أنشأها محمد بن عيسى المكناسي (ت: ٩٣٠هـ / ١٥٢٥م).

السلسلة:محمد بن عيسى – محمد الحارثي- أحمد زروق.

الموقع:المغرب الأقصى. الجزائر. تونس. ليبيا.

٣- الراشدية – الزروقية : .

أنشأها أحمد بن يوسف الملياني الراشدي (ت ١٩٣١هـ- ١٥٢٤م). الذي لقنه زروق في بجاية. وهي توأم الطريقة الراشدية- اليوسفية التي أنشأها أحمد بن يوسف.

السلسلة:أحمد الراشدي – أحمد زروق.

الموقع:المغرب الأقصى. الجزائر.

٤- الغازية : .

أنشأها أبو الحسن قاسم (أو أبو القاسم) الغازي. (ت:٩٣٢هـ- ١٥٢٦م).

السلسلة:قاسم الغازي. أبو سالم التازي وعلي الفيلالي. أحمد الراشدي. أحمد زروق.

الموقع:المغرب الأقصى. الجزائر.

٥- السهيلية :.

أنشأها محمد بن عبد الرحمن السهيلي (ت:٩٣٦هـ-١٥٣٠م). الذي كان أصله طبقًا للروايات. من ينبع على البحر الأحمر. وجاء إلى المغرب حيث قابل الراشدي. ثم ذهب للخلوة في جبل سهيل فسمى بهذا: السهيلي.

السلسلة:محمد السهيلي. أحمد الراشدي. أحمد زروق.

الموقع:المغرب. الجزائر.

٦- الكرزازية : .

أنشأها أحمد بن موسى (ت:١٠١٨هـ- ١٦١٠م). ولد بكرزاز في المغرب وسمي بمكان مولده. وتسمى هذه الطريقة الأحمدية أحيانًا.

السلسلة: أحمد بن موسى. محمد السهيلي. أحمد الراشدي. أحمد زروق.

٧- الشيخية : .

أنشأها الشيخ عبد القادر بن محمد (ت:١٠٢٢هـ- ١٦١٥م).

السلسلة: الشيخ عبد القادر بن محمد. محمد السهيلي. أحمد الراشدي. أحمد زروق.

الموقع: المغرب. الجزائر.

٨- الناصرية: .

أنشأها محمد بن ناصر الدرعي. (ت:١٠٧٩هـ-١٦٦٩م). ومركزها تمغوت في وادي درعة.

السلسلة:محمد بن ناصر. عبد الله بن حسن. علي بن عبد الله. أحمد الدرعي. قاسم الغازي. أبو سالم التازي. أحمد الراشدي. أحمد زروق.

الموقع: المغرب. الجزائر.

٩- الزيانية: .

أنشأها محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان (ت:١١٤٥هـ- ١٧٣٣م).

السلسلة:محمد بن أبي زيان. محمد بن مبارك. عبد العزيز السجلماسي. محمد بن ناصر الدرعي. عبد الله بن حسن علي بن عبد الله. أحمد الدرعي. قاسم الغازي. أبو سالم التازي. أحمد الراشدي. أحمد زروق.

١٠- الدرقاوية: .

أنشأها العربي أحمد الدرقاوي (ت:١٢٣٩هـ- ١٨٢٣م).

السلسلة:العربي الدرقاوي. على الجمل. العربي بن عبد الله أحمد بن عبد الله. قاسم الخصاصي. عبد الرحمن الفاسي. أبو المحاسن الفاسي. عبد الرحمن المجذوب. على الصنهاجي الدوار. ابراهيم الفحام. (أو الحجام) طاهر القسنطيني. أحمد زروق.

كان مركز هذه الطريقة الريس في "بوبريح. شمال مدينة فاس، وكان لها نفوذ كبير في شمال أفريقيا. وكان العربي الدرقاوي معاصرًا لمؤسس الطريقة التجانية المشهور لكنه اختلف عنه من نواح عديدة وقد انبثقت عن هذه الطريقة فروع كثيرة.

الموقع: المغرب. الجزائر.

١١- **المدنية:.**

أنشأها محمد حسن ظافر المدني (ت: ١٢٦٣هـ- ١٨٤٦م).

السلسلة:ظافر المدني. العربي الدرقاوي... إلى زروق.

ولد محمد حسن ظافر في المدينة المنورة ونسب إليها وجاء إلى المغرب، حيث قابل الشيخ العربي الدرقاوي في "بربريح" وصار أحد مريديه ثم عاد إلى المدينة خليفة عن الدرقاوي حيث نسب الكثيرين. وبعد وفاة الدرقاوي عاش المدني في مصراتة ومات بها. وأصبحت الطريقة المدنية متميزة على يد ابنه وخليفته محمد ظافر الذي كان وافر النشاط. فأرسل مبعوثيه ومقدميه إلى شمال إفريقيا والحجاز وتركيا، ولعب دورًا سياسيًا بارزًا في حركة الجامعة الإسلامية أيام حكم السلطان عبد الحميد.

الموقع: المغرب. الجزائر. تونس. ليبيا. مصر. الحجاز.

١٢- **اليشرطية:.**

أنشأها علي نور الدين اليشرطي (ت: ١٣٠٩هـ- ١٨٩١م).

السلسلة:نور الدين اليشرطي. ظافر المدني. العربي الدرقاوي. إلى زروق.

ولد اليشرطي في بنزرت بتونس، والتحق بالمدني في زاويته بمصراتة، ثم غادرها واستقر بعكا من أرض فلسطين ومنها نشر تعاليمه في لبنان والبلاد المجاورة.

الموقع: فلسطين. لبنان. جزيرة رودس.

١٣- **السنوسية:.**

أنشأها محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني (ت:١٢٧٦هـ- ١٨٥٩م).

السلسلة: محم د بن علي السنوسي. محمد بن محمد الناصري. محمد الناصري. جسرس. يوسف الناصري. محمد البناني. أبو البركات الفاسي. أحمد بن عبد الصادق. أبو الحسن الكومي. عبد العزيز بن عبد الحليم. أبو الطيب اليحياوي. الخياط الزرهوني. إبراهيم الفحام. وأحمد الراشدي. أحمد زروق.

كان السنوسي أحد أتباع أحمد بن إدريس. ولد في مستنغانم بالجزائر سنة

(١٢٠٣هـ- ١٧٨٧م) وذهب إلى الحجاز حيث انهمك في مجادلات دينية وسياسية. وبعد عدة رحلات ذهابًا وجيئة بين الحجاز وشمال إفريقيا استقر في شرقي ليبيا وابتنى زاوية في ما يسمى (البيضاء) الآن. ثم تحول إلى واحدة الجغبوب في الصحراء الليبية وبدأ نشاطه الديني والسياسي هناك. وقد ظلت زعامة الطريقة السنوسية في عقبه بعد موته حتى آخر شيوخها. محمد المهدي السنوسي. الذي أصبح فيما بعد ملكًا على ليبيا إلى أن خلعته ثورة الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩م.

الموقع: ليبيا. شمال إفريقيا. تشاد. النيجر. مصر. الحجاز.

الزاوية: .

وإذا كان الكلام عن الطريقة أو الطرق الصوفية، فإنه لا يكون تامًّا بحيث يحسن السكوت عليه والتوقف عنده، إلا إذا تضمن الحديث عن الزاوية أو الزوايا.

وللزاوية معنى وضعي ولها معنى اصطلاحي تعارف القوم عليه.

أما الزاوية في أصل وضع اللغة فإنها تدل على المعنى الذي يحمل الضم والتقارب والتضييق، على نحو ما نقول: إن الشيء قد انزوى بعضه إلى بعض.

وقد توسع إطلاق هذه الكلمة حتى شملت في دلالتها أركان البيت أو المكان المشيد إذا كان مربع الشكل، بحيث يقال لكل ركن من أركانه: زاوية.

والمربع الذي نعنيه هنا ليس هو الشكل المتساوي الأضلاع، وإنما هو ما كان ذا أربعة أضلاع تساوت أو لم تتساوَ، فإذا نقص منه ضلع؛ فإنه يقال له: أزور. بالراء في آخره.

أما الزاوية في اصطلاح القوم فلقد مرت في تاريخهم بمراحل من توسعات الإطلاق؛ فهي في أول الأمر كانت تطلق على "الخلوة" يتخذها الصوفي لنفسه مكانًا يخلو فيه إلى ربه، عابدًا متأملاً، ممارسًا لما يُطلب منه من أنواع العبادة.

وهذا إطلاق كما ترى دالٌّ على معناه على نحن ما هو في الإطلاق اللغوي يحمل معنى الانزواء والضم، والانتحاء إلى مكان ضيق من البيت أو غيره.

ثم تطور هذا المصطلح في دلالته وأصبح يدل على ما يشبه المعهد الذي يتلقى فيه الناس العلوم والآداب، والنصائح والتربية.

ثم ارتقت هذه الكلمة في دلالتها لتشتغل بالإضافة إلى ما ذكرناه على أماكن للإيواء صالحة للمعيشة المؤقتة، مشتملة على أسباب هذا النوع من المعايش؛ بحيث نجد فيها الحل لمشكلات القادمين من أماكن بعيدة لزيارة الشيخ والتزود من علمه ونصائحه.

والزاوية بمعناها الأخير تحتاج إلى رجال يقومون على الخدمة، ويهتمون بأمور القادمين إلى الزاوية من كل صوب وحدب.

والزاوية بمعناها الأخير تعد مركزًا إشعاع، وإمداد، وإيواء للمنتمين إلى الطريق، أو الراغبين في الاستفادة منه.

وكثيرًا ما يقوم بإنشاء الزاوية شيخ الطريقة الأول، والذي تنتسب الطريقة إليه.

والحال في الطريقة الزروقية، مختلف، إذ لم يشأ الشيخ أحمد زروق أن يقوم بإنشاء زاوية لنفسه بمعناها الذي انتهت إليه، أو الذي انتهينا معك في البيان إليه.

والذي يظهر لي أن السبب في عزوف الشيخ أحمد زروق عن بناء الزاوية، كان يرجع لقصر المدة التي استقل فيها بنسبة الطريق إليه، ودعوة الناس إلى أخذ العهد منه، وهو أمر جعل أتباع الطريق ورواده قليلين، خاصة من يعتقد منهم أن الزروقية لها صبغة مختلفة نوعًا من الاختلاف عن الطريقة الشاذلية.

وعلى كل حال فإننا نجد التاريخ خير شاهد على أن زوايا الطريقة الزروقية قد بناها أتباع الشيخ زروق من بعده.

زوايا الطريقة الزروقية: .

وزوايا الطريقة الزروقية قد انحصرت في ثلاث زوايا، أسماؤها معروفة مشتهرة، تمركزت في ليبيا – مصراتة– واحدة منها، وكانت الثانية في الجزائر، والثالثة في المغرب الأقصى.

ونحن سنزودك ببعض المعلومات عن كل واحدة منها بمشيئة الله.

١- زاوية مسراتة: .

وزاوية مسراتة تقع في وسط المدينة في منطقة يقال لها: "دكيران" كما تُنطق اليوم، وهي في المراجع القديمة تنطق "تكيران" و"تكرين" و"أتكران"، وهو مكان

يتوسط المدينة، الطريق بينه وبين الميناء يتوسطه "قصر أحمد".

والمسجد أو الزاوية في هذا المكان محاط بعدد لا بأس به من القرى والقبائل.

وتتكون الزاوية من مسجد، وضريح الشيخ، ومكتبة، ومعهد لتحفيظ القرآن الكريم.

أما المسجد فقد بناه الشيخ أحمد عبد الرحيم تلميذ الشيخ والقائم على أمر المكان بعد رحيل الشيخ "شمس الدين اللقاني" المصري.

وللزاوية أوقاف أوقفها أصحابها عليها كي يكون ريعها مصدرًا للإنفاق على الزاوية، وعلى القاصدين إليها، وعلى المعهد التعليمي بها بما يحتويه من طلبة وأساتذة.

وظل الشيخ أحمد عبد الرحيم وأسرته يقومون على خدمة هذا المكان أكثر من قرن ونصف من الزمان، أي ما يزيد على مائة وخمسين عامًا، ازدهرت الزاوية في أثناء ذلك ازدهارًا عظيمًا، وأدت وظيفتها كأحسن ما يكون الأداء.

غير أن السياسة والمطامع في أوقافها لعبا دورًا خطيرًا في إهمال الزاوية، والتقصير في خدمتها لأداء مهمتها؛ فأقصى ما بقى من ذرية الشيخ أحمد عبد الرحيم عن الخدمة، وذهب ريع أوقاف الزاوية حيث ذهب، ولم يعد يوظف لخدمتها، حتى أصبحت المكتبة الآن خالية من المراجع، لا سيما مؤلفات الشيخ زروق.

أما المعهد التعليمي الملحق بها، فقد كان في أول أمره بالغ الازدهار، يؤمه كل من حفظ القرآن الكريم وأتم حفظه وإجادته في جميع أقاء ليبيا، ليستكمل دراسته في هذا المعهد العريق، فيدرس من العلوم أصولها، كما يدرس العلوم المساعدة لفهم هذه الأصول، والإعانة على طلب ثمرتها التي هى الغاية منها.

وقد يرحل بعض القاصدين إلى هذا المعهد عنه إلى القاهرة لاستكمال بعض علوم الشريعة والحقيقة بها، ثم يعودون إلى هذا المعهد بمصراتة أئمة، علماء يقومون بوظيفة التدريس بها.

وفي عصور التدهور بدأ هذا المعهد يتراجع عن أداء وظيفته.

وقد حاولت الحكومة الليبية ضمه إلى الجامعة الإسلامية الرسمية، إعانة له على أداء مهمته، وإرضاءً لأهل الناحية من المسلمين المحيطين بالزاوية.

غير أن هذه المحاولة لم تفلح، وأخذ المعهد في التدهور إلى حد أنه لم يتبّق في المنطقة شيخًا يستطيع أن يقيم الشعائر الدينية للناس في المسجد الذي شابت عليه السنون، وألقت به إلى مكان الردى من التاريخ. وهكذا أصبحت الزاوية الآن بغير وظيفة.

ولقد ترامى إلى أسماعنا ونحن في الربع الأخير من العام الثالث والثلاثين والألف من هجرته (ﷺ)، أن مجموعة من الناس يعتنقون الوهابية دينًا لهم، قد انقضوا على قبر الشيخ زروق فهدموه على مرآى ومسمع من الجهات الرسمية والشعبية في ليبيا، باسم الإسلام وشريعته على غير علم بالإسلام ومبادئ شريعته.

٢- زاوية تليوان:-

والزاوية الثانية التي تنتسب إلى الزروقية هي هذه الزاوية في المغرب الأقصى، وهي تقع في حوزة قبيلة البرانس، والتي ينتسب إليها أحمد زروق كما علمت، ومكانها شرقي تازا، في الطائفة بالتحديد عند أهل تليوان، على بعد ثلاثة أميال جنوب غرب باب المروج، على نحو ما صرح به كولان الكاتب الفرنسي في مقال شهير له بهذا الخصوص، كتبه سنة ١٩٢٥م، وهو الذي نقل عنه صاحب كتاب "زروق والزروقية"، ونحن ننقل عن الأخير ترجمته للعربية على وجهها، قال بعد ما ذكرناه:

[ويعتقد أهل تلك البلاد اعتقادًا راسخًا أن هذه الزاوية شيدت فوق قبر الشيخ، وليس لديهم أقل معرفة عن زاويته بمصراتة، التي انقطع اتصالهم معها منذ صار الحج إلى مكة بحرًا أكثر منه عن طريق البر. ويظل السؤال على كل حال: من أنشأ هذه الزاوية ولماذا؟ هل بناها أحمد زروق نفسه، أو أحد أتباعه حتى يخلد ذكر مسقط رأس الشيخ أو مكان تدريسه؟ إذ يبدو من المؤكد أن أحمد زروق قضى بعضًا من الوقت بين أهل قبيلته، ولا يزال التراث المحلي يشير إلى آثار الجامع الذي علم فيه الشيخ وألق دروسه، غير بعيد من سوق السبت في روبة ".

ويتابع كولان حديثه فيقول: "وقد فقدت زاوية زروق في تليوان أهميتها السياسية والاقتصادية التي تمتعت بها كمحطة للقوافل عند أحد ملتقيات الطريق التجارية الواصلة بين مليلة وفاس، في عام ١٩١٤م حين دخل الفرنسيون المنطقة، غير أن أهميتها كمركز ديني وعلمي ظلت معها لم تمسي، ويعتبر شيخها- حتى الآن- حامي البلد ورئيس صُلاّحها السبعة، وعلى قبره تُقسم الأيمان، ويأخذ مقدم الطريقة العهود والمواثيق شفوية ومكتوبة، وإليه يأتي الزراع والرعاة ويدعون الله أن يمن عليهم بحصاد وفير وحمل للأغنام كثير. وإلى شفاعته يتجه الآباء في دعواتهم بأن يرزقوا ولدانًا ذكورًا، وثمة بالزاوية بضعة مدرسين (فقهاء) يعلمون حوالي عشرين طالبًا، ملحقين بها. وهم جميعًا يعيشون على ما تأتي به صدقات الزائرين للضريح، إلى جانب ما أوقف على الزاوية من أرض وأشجار الزيتون".

وكما هو الحال بالنسبة لزاوية مصراتة، فإن أمور زاوية "تليوان" ليست في يد عقب الشيخ، وإنما يسيرها ويستفيد من خيراتها أبناء سيدي أحمد الحاج دفين أولاد بويعلا، والذي ربما كان رفيقًا لزروق].

ونحن حين نتأمل في عبارات "كولان" نجد أنفسنا وقد توقفنا عند بعضها لا نستطيع أن نتجاوزها، خاصة والكاتب غير جازم ببعض ما يرويه. فمهما اشتهر بين أهل المنطقة من أن الزاوية التي نحن بصددها قد بينت على قبر الشيخ زروق؛ فإن هذه الشهرة وحدها ليست كافية لتأكيد مضمون ما اشتهر على ألسنة الناس، وذلك لأمرين:

أما **أحدهما**: فهو أن التاريخ القاطع يؤكد أن الشيخ أحمد زروق قد عاش آخر أيامه في مسراتة، وما ودفن بها، وقبره بها ظاهر.

وأهله وقبيلته لا يعرفون شيئًا عن مصراتة، ولا عن زاوية الشيخ بها، ولا عن قبره الذي يعرفه كثير من أتباعه.

وأما **ثانيهما**: وهو أن المسجد الكائن بتليوان، والذي زعمت الروايات أن الشيخ زروق كان يعلم الناس به، لا يقوم سببًا كافيًا لاعتماد الزاوية من قبل الشيخ أحمد زروق؛ فالشيخ أحمد زروق وإن كان قد أقام بنطقة فاس وما حولها فترة بعد

العودة إليها، إلا أنها كانت فترة جافة لم تشهد من إقبال الناس عليه ما يدفع إلى إقامة مثل هذه الزاوية، هذا بالإضافة إلى أن الشيخ في فترة إقامته بفاس لم يكن قد تراءى له أن يستقل بطريقته، وبذل النصيحة، وإعطاء العهد لمريديه بشيء من الاستقلالية.

ويبقى لنا أن نتساءل عن السبب وراء اشتهار هذه الزاوية وارتباطها باسم الشيخ أحمد زروق.

وفي معالجة الجواب على هذا السؤال يمكن لنا أن نسير في اتجاهين متوازيين أو متكاملين:

الاتجاه الأول منهما: أن هذه الزاوية في "تليوان" قد تهيأ لها أن خدمها رجل من أتباع الشيخ أحمد زروق تسمى باسمه تبركًا، فنُسبت الزاوية إليه (أعني لسمى الشيخ أحمد زروق) وبتوالي الزمان التبس الأمر على الناس.

وأما **الاتجاه الثاني:** فهو أن قبيلة البرانس والتي منها الشيخ أحمد زروق، قد اجتمعت على أمر هو من قبيل التعصب لأفراد القبيلة حين علموا باشتهار الشيخ أحمد زروق، فأرادوا أن تستفيد القبيلة من هذه الشهرة، وأن يؤكدوا ذلك بإنشاء زاوية تحمل اسمه، وتكون رمزًا له ولمكانته.

وأيا ما كان الأمر فهذه الزاوية في "تليوان" قد أنشئت واعتُني بها إلى حين، ووقف الناس عليها الأوقاف، واجتذبت إليها الصدقات، وكان لها من جانب الاقتصادي في وقت من الأوقات نصيب.

وهى وإن كانت قد فقدت شيئًا من مكانتها الاقتصادية، والسياسية، فقد بقيت لها مكانتها الدينية، التي تحمل البسطاء على أن يؤموها للبركة وللشفاعة كما علمت.

٣- زاوية أولاد طريف: .

وتبقى الزاوية الثالثة والأخيرة التي تنسب لزروق، وهي "زاوية أولاد طريف" في منطقة "برواقية" حول الجزائر العاصمة، حيث يبدو أن طائفة من الشاذلية حافظت على ذكرى شيخنا وآثاره هناك. ولا يُعرف شيء – في الواقع– عن إنشاءه هذه الزاوية، ومن الجائز أن تكون ذات صلة ما بتلميذي زروق، طاهر بن زيان

القسنطيني وأبي فارس عبد العزيز القسنطيني، وليس لأي منهما سند بعدهما يمكن العثور عليه. أو لعل لها صلة بابن زروق نفسه، أحمد الأكبر، الذي غادر مصراتة بعد وفاة والده وعاش في الجزائر، حيث يقال إنه ورث شيئًا من علم أبيه وفقهه وشهرته الصوفية الكبيرة. (راجع علي فهمي خشيم – زروق والزروقية – ص١٨٠).

* * *

سؤال حائر وجواب محتمل

ونحن وقد وصلنا إلى هذا الحد من البحث نحب أن نقف لنلتقط شيئًا ما من الأنفاس أو لنتأمل فيما أثر عن زروق والزروقية شيئًا ما من التأمل.

والرغبة في التقاط الأنفاس شيء تدفع إليه الطبيعة البشرية خاصة بعد بذل المجهود أو شيئًا منه يحتاج المرء معه إلى ترويحه يواصل بعدها المسير.

أما الرغبة في التأمل فهى أمر تدفع إليه النفس الطُّلَعَة التي تحب أن تقف على بواطن الأمور دون ظاهرها.

وسواء كانت دعوتنا إلى الوقفة هنا دافعُها الرغبة في التقاط الأنفاس أو الرغبة في التأمل أو كليهما معًا فإنا مضطرون إلى هذه الوقفة لنطرح هذا السؤال الحائر علنا من خلال التأمل نجد له جوابًا.

وهذا السؤال يتصل بما نلاحظه على زروق والزروقية وانعكاسهما على الناس، واستقبال الناس لهما أو انصراف الناس عنهما.

ونحن من خلال معايشتنا لزروق والزروقية وجدنا أن الناس مع قِلتها ربما تتوقف بعد جيل أو جيلين.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى. فأنا وأنت عندما نتأمل الرقعة التي انتشرت على وجمعها الطريقة الزروقية، كانت ولا تزال رقعة محدودة لم تحتل من الأرض إلا ما عسى أن نكون قد وجدناه في مساحات ضيقة من ليبيا والجزائر والمغرب الأقصى.

وهذا كله كان بالإمكان أن نتحمله من غير أن ندهش له، لولا أننا قد رأينا الطريقة الزروقية قد آثرت ألا تعبر عن نفسها على أنها كيان مستقل، إنما هى قد عبرت عن نفسها باعتبارها قاعدة أو أصلاً تفرع عليه غيره. وكل فرع يعلن استقلاله عن أصله وهى قدم.

وهى قد ظهرت في بعض الأحيان على أنها وسيلة ربط بين طريقتين كبيرتين، على نحو ما حدثناك عن أن زروق كان قد تمكن من الربط والجمع بين الطريقة الشاذلية والطريقة القادرية.

وجماع القول وعمومه نلخصه في هذا القول، وهو: أن الطريقة الزروقية وزروق نفسه لم يتمتعا بالانتشار في الأرض، كما لم يتمتعا بالانتشار في قلوب الناس أو على سلوكهم.

وهذا أمر قد يأخذ بتلابيب الباحثين ليلقي بهم في بحار الدهشة من هذا الحال، فتدفعهم الدهشة إلى التساؤل قائلين: لماذا كان حظ الزروقية ما نرى؟ ولماذا كان حظ زروق نفسه من الانتشار هذا الجزء الضيق؟

ويبدو لي أن زروق كان قد توقع ذلك في حياته، إلا أنه كان يظن أنه سيُقَدَّر لمبادئه من الانتشار من بعده أقدارًا لم يشهد مثلها في حياته.

وهو قد عبر عن هذا الإدراك وهذا الأمل حين سأله أحد تلاميذه أن يبني له زاوية على شاطئ المتوسط في مقره الأخير، فرفض قائلاً بعبارة هادفة:

إن مِسكنا لا تظهر رائحته إلا بعد أن نُسَوَّسَ تحت التراب.

وضاع أمل الشيخ في انتشار الزروقية بعد وفاته كما رأى واقعه في عدم الانتشار حال حياته.

والسؤال المُلِحّ لماذا كان هذا حال زروق والزروقية؟.

هذا هو السؤال.

وهو سؤال حائر يبحث لنفسه عن جواب مقنع.

وأنت إذا أردت أن تبحث لهذا السؤال عن جواب مقنع لابد أن تبحث في طبائع الناس، وطبائع الأشياء، وطبائع العلوم على السواء.

أما طبائع الناس فإنا نجدها في الناس على قسمين:

الأول منهما: هو الكثير الغالب – يتمثل في العوام من الناس رجالهم ونساؤهم كبيرهم وصغيرهم، وهو أنهم يتعلقون بالمنافع ويسيرون خلفها، سواء كانت هذه المنافع تلبي حاجات الجسد من الشهوات والملذات، أو كانت هذه المنافع تُلبي حاجات النفس وتطلعاتها ورغبتها في التميز والاستعلاء والإمارة.

وهذا الفريق من الناس يتبعون هذه الأسباب التي تحقق لهم مطامعهم كلما قدروا على اصطناع هذه الأسباب ولو بالحيلة والتدليس.

وهذا أمر لا يحتاج في إثباته إلا إلى مجرد إثبات ملاحظة الواقع.

ونحن سنضرب لك من الواقع مثلين يتصلان بما نحن بصدد الحديث عنه من انصراف الناس عن زروق والزروقية.

وهذان المثالان قد تحققا في رجلين لهما بزروق والزروقية صلة، ذكر على فهمي خشيم هذين المثلين يرصدهما قال: "ولنا هنا أن نقدم مثلين واضحين لما نذهب إليه قريبين من الشيخ كل القرب.

الأول: هو عبد السلام الأسمر الفينوري.

والثاني: هو أحمد بن يوسف الراشدي.

كان عبد السلام الأسمر أصلاً من قبيلة "الفواتير" بزلتين وهي بلدة من أعمال طرابلس ذات تاريخ طويل في عالم التصوف والصوفية، ولد عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م. وقد تتلمذ على يد زروق فترة من الزمن، ثم تحول عنه إلى بعض شيوخ الصوفية غيره، وأصبح من أتباع الطريقة "العروسية"، ثم أسس طريقته الخاصة "السلامية" التي ازدهرت في أثناء حياته ازدهارًا كبيرًا، وتمتعت بسلطة مطلقة، وكانت لها اليد العليا على الطرق الأخرى في المنطقة، وقوة عظمى في مناطق أخرى، وأصبح الأسمر بهذا "سيد ليبيا" كما يقول (ديبو وكابولاني) وكان تأثيره الكبير جدًا على أتباعه فوق ما يمكن تصوره. وقد حدث هذا كله لأن الأسمر أخذ من التصوف ما كانت العامة تفهمه منه وتتطلع إليه، فتحول تساميه الروحي إلى ضرب من البهلوانية والشعوذة واختلاف الكرامات والخوارق والمعجزات ونسبتها إليه، ودغدغة مشاعر جماعته بالدفوف والمزامير، كان الأسمر- باختصار- ظاهرة "خارقة للعادة" في حد ذاته أكثر من صوفيا. ورغم هذا فقد استطاع أن يحجب غيره من المتصوفة والصوفيين، في أثناء حياته وبعد موته- عن فهم زروق نفسه ولعل في ظهور الأسمر على المسرح في بداية تأسيس "الزروقية" ما أثر على تطورها ونموها وكان عاملاً معرقلاً لهذا التطور والنمو.

وكما كان الأسمر، كذلك كان أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي أحد أتباع زروق، وبعد مقابلتهما الأولى في بجاية من بلاد الجزائر عاد زروق إلى مصراتة

في حين تحرك الراشدي إلى غرب الجزائر حيث طفق ينشر تعاليمه بين العامة مستعينًا بقدرته على مخاطبة إحساساتهم بشعبذات الجذب والشطح مما كان بسطاء الناس يلقونه بالترحيب والإكبار. وكان النجاح الذي لقيه الراشدي بين الجمهور في الجزائر والمغرب الأقصى لا يوازيه سوى النجاح الذي حققه الأسمر في ليبيا وتونس. ومما له مغزاه الكبير هنا أن نلمس هنا تحول الراشدي (أو النقل انحرافه) عن تعاليم أستاذه زروق الذي لقنه وأخذ منه العهد. وكان هذا طبيعيًا ممن يبحث عن الظهور بين الناس وجذب أكبر عدد من الأتباع والمريدين. ومن هنا نرى أن الراشدي كان يعمل في اتجاهين: **أحدهما** للخاصة وأهل العلم ويتبع فيه منهج زروق وطريقته. **والآخر** للعامة ينشر فيه مبادئه وأفكاره، ويزاول وسيلة اتصاله السهلة بالجمهور. وهذا ما يفسر لنا كون الراشدي يحسب دائمًا على رأس طريقتين اثنتين لا طريقة واحدة تنسب إليه كما هي العادة: الطريقة الزروقية – الراشدية، والطريقة الراشدية أو اليوسفية. (نقله عن السنوسي المنهل الروي الرائق ص٧٧-٧٨).

هذه طبيعة الإنسان، أو طبائع الخلائق يجذبهم ما ينفعهم ولو كان عديم القيمة، ويخضعون لما يمتعهم في الحال وإن كان لا ينفعهم في المآل.

أما طبائع الأشياء، فهي على ما هي عليه كل شيء على هيأته، وهي درجات بعضها فوق بعض من حيث القيمة والمكان.

ولكن هذه الأشياء لا تُغيِّر بطبائعها، وإنما تُغَيَّر باصطناع الخلائق لها، وهي تقبل التدليس والتعمية، وبعضها يقبل أن يُتخذ وسيلة لدغدغة العواطف والتأثير على الغرائز والمتطلبات.

والتصوف أو الطرق الصوفية على العموم هي أشياء يمكن أن تتخذ وسيلة لمرضاة الله وللسعادة في الآخرة، كما يمكن أن تتخذ وسيلة للتأثير على الناس من العامة والبسطاء لأخذ ما عندهم باسم الولاية، والتأثير عليهم باسم الله، على نحو ما رأينا في المثالين السابقين، ولهما في الوجود نظائر وأشباه.

بقي لنا أن نحدثك عن أصول المذاهب ومبادئها، وما يتفرع على هذه الأصول

وتلك المذاهب.

وهنا منطقة الجد من الحديث التي تأبى الهزل وترفض سخافته.

إن المذهب أو الطريقة، أو السنة والنظام أمورٌ تُتتبع، وينجذب إليهما الناس بقصد إصلاح شئونهم العاجلة والآجلة.

وهنيئًا لمن تعرف على أصول كل مذهب، ووقف على قواعد كل طريقة، وفهم منهما الوسائل والغايات، والأسس وما تفرع عنها، والفروع وكيف ترتبط بأصولها وقواعدها.

ومن يفهم هذه الأشياء ويصطنعها من الناس قليلون، وهم قليلون لأنه لا يفهم هذه الأصول، وما يتفرع عنها، وما تنتهي إليه من غايات، لابد أن يكون مالكًا للمؤهلات التي تجعله يدرك هذا كله ويتمكن من توظيفه، وبوابة هذه المؤهلات: حسن الإدراك الذي يدخل بالمرء إلى قوته المفكرة، وهذه مقدرة لا يملكها إلا الأقلون، إذ الكثرة الغالبة خاصيتها الكبرى: أنها تفكر بأعضائها، وحواسها من نحو: السمع والبصر، والشم، والذوق، واللمس، ولا يقدر الواحد منهم على أن يتعدى ذلك إلى الفكر وقوة النظر.

وآفة التصوف أن ما فيه من الأشياء تعرضت إلى التدليس، والمستقبلون له لا يملكون أدوات الفكر والنظر، فانتشر التصوف بخرافات اصطنعها مجموعة من المَهرة في مجال اصطناع الخرافات، وعمل على نشرها والاستفادة منها مجموعة من عباقرة التضليل ودغدغة العواطف.

وهذه هى البيئة التي ظهر فيها الشيخ زروق، فوجدها بيئة فاسدة قد سترت عن الناس الحقيقة، وغمت عليهم أن يدركوها؛ فغضب لذلك غضبًا شديدًا، ولكنه قد ضبط عواطفه لا ينفعل، وقبض على لسانه لا يتكلم ولو أدى ذلك إلى تحمل المتاعب والصعاب على نحو ما رأيت من علاقته مع الزيتوني في فاس، ومع الحراني في القاهرة، لقد أغضباه وضايقاه، وهو لم يظهر من تأثره شيئًا، قل هذا الشيء أو كثر، ولكنه قد أخذ على عاتقه أن يصلح من شأن التصوف، ولو كان ذلك على حساب شهرته، وأن يظهر بطريقة جادة على مستوى العقول، وعلى مقياس

الشرع، ولو كان ذلك على حساب انتشارها، واتساع رقعتها.

هذا هو السبب الذي لا ينازعه غيره، لمن أراد أن يسأل عن سبب انحصار طريقته.

وهذا هو الجواب الذي لا جواب بعده لمن كان يسأل عن زروق وعن طريقته، لماذا لم يكن زروق من المشاهير بين العامة، ولماذا لم تنتشر طريقته بين الدهماء؟!

وهذا الجواب الذي اخترته، لم أكن أنا الذي ابتدعته، وإنما قد سبقني إليه غيري، ويحسن أن أنقل بين يديك عبارة من سبقني إليه.

من الكتاب الفرنسيين الكاتبان الشهيران "ديبو" و"كابولاني" اللذان كتبا في هذا الموضوع. فقد قالا:

"على الرغم من ذيوع صيت زروق وليًا عالمًا، فإن أتباعه الذين انضووا تحت لوائه لم يكونوا سوى بدايات لطرق صوفية أخرى. وقد ظلت تعاليمه في بطون الكتب والأسفار، ولم تجد سبيلاً للتأثير على عامة الناس الذين اكتفوا بفكرة غائمة من مؤلف هذه الكتب والأسفار".

هذه الملاحظة ذاتها هي التي يراها الباحث الفرنسي أيضًا "ج. كولان" في مقالته عن زروق حيث يقول:

" لقد كانت تعاليم زروق الصوفية أرقى مستوى، ولعلها أنقى وأصفى، من أن تصادف نجاحًا بين عامة الجمهور، وهذا ما جعل هذه التعاليم غير قادرة على تجاوز الدائرة الضيقة لأتباعه وتلاميذه المباشرين في أثناء حياته ".

وكل هذا- في الحق- صحيح، إذ لم يكن شيخنا بحال من جملة أولئك "المرابطين" الذين يعتمدون في اجتذاب الجمهور إليهم على الخوارق والكرامات. بل كان على العكس من ذلك تمامًا ضد مدعي الصوفية وسيفًا مصلتًا عليهم، وكثيرًا ما سلكهم في عداد المفسدين في الأرض المسيئين للتصوف ومعناه، والسبب المباشر في تدهوره وانحداره. وكان علمه الغزير وفهمه الواعي لروح التصوف ورسالته الحقيقية، يجعلان من مؤلفاته شيئًا بعيدًا لا يمكن للعامة أن تدركه، رغم محاولته تبسيط تعاليمه هو وتيسير مفهومات التصوف على وجه التعميم. ولم يكن لطريقة

متنورة كالزروقية – في تلك الأيام المعتمة من تاريخ الحضارة الإسلامية– أن تستمر بنقائها وصفاء جوهرها. وهي ربما كانت طريقة الخاصة من الناس، أما عامتهم فلهم طرق أخرى تتفق مع ميولهم وأهوائهم ومستوى إدراكهم العقلي والروحي على حد سواء.

* * *

التصوف علمٌ وعمل

إن من الأشياء التي أنعم بها الله عز وجل على المشتغلين بالتصوف الصحيح، أن فتح عليهم أبوابًا من الفضل لفهم التصوف الصحيح، وتقديمه للناس على وجهه.

ومن أبواب الفضل التي فتحها الله لأهل التصوف، أن أدركوا أن التصوف قائمٌ على ساقين، ومعتمدٌ على قدمين، لا يقوم بدونهما، ولا تتحقق شخصيته إذا غاب واحد منهما؛ فالتصوف لا يتحقق إلا بمعرفة في القلب، وعمل يُظهر سلوكًا على أعضاء المنتسبين إليه.

وعلى سالك الطريق إلى الله أن يكون واعيًا بحقيقة التصوف، وبما يتصل به من علم، وأن يكون صادق التوجه إلى ربه وهو يطبقه على نفسه، ويأخذ به سلوكه.

تعريف التصوف: .

ومن أول درجات العلم بالتصوف أن يعلم المتصوف حقيقته، ويدرك ماهيته، إذ الجهل به، وعدم الوقوف على ماهيته يؤدي إلى التخبط في التوجه، كما يؤدي إلى التخبط في السلوك.

والشيخ زروق قد بدأ يقدم التصوف للناس بعد أن ثبت حقيقة مستقرة في قلبه من خلال كتابه الفذ ومؤلفه المتميز الذي سماه بحق: "قواعد التصوف"، وهو كتاب نفيس، شهد به اطلع عليه وأمكنه الله من فهمه وإدراك مراميه.

والشيخ في بداية كتابه هذا قد شدد تشديدًا لا يحتمل الاستثناء على كل مشتغل بالتصوف علمًا وعملاً، وعلى كل من حاول أن يتعرف على التصوف وأهله ويحيط بهما علما، لقد شدد الشيخ زروق على هؤلاء وهؤلاء تشديدًا لا يقبل استثناء أن يبدأوا أول خطواتهم في طريقهم إلى غاياتهم في التعرف على التصوف ما هو؟ والوقوف على حقيقته وإدراك ماهيته؟ قال في عبارة قاطعة: [الكلام في الشيء وماهيته وفائدته، بشعورٍ ذهني مكتسب أو بديهي ليُرجَع إليه في أفراد ما وقع عليه ردًا وقبولاً، وتأصيلاً وتفصيلاً.

فلزم تقديم ذلك على الخوض فيه، إعلامًا به، وتحضيضًا عليه، وإيماءً لمادته].

واستنادًا إلى ما ذكره الشيخ فيما تضمنه هذا النص بين يديك، نجده قد أخذ نفسه بهذا المضمون قبل أن يأخذ به غيره، أو أن يُلْزِم به سواه، فارتحل بين رجال التصوف بذهنه، كما ساح بين مؤلفات التصوف لا يلتفت إلى مَلَل، ولا يستجيب إلى إرهاق.

لقد قرأ في التصوف يستخرج ما فيه من مُشْتَرَك المعاني، ويتتبع المتصوفة وأحوالهم يجمع ما يُؤثر عنهم من الكليات التي يعبرون بها عن الأحوال.

ولقد انتهى الشيخ من رحلته الطويلة إلى أن رصد للتصوف تعريفات ربما تزيد على الألفين، تضمن معظمها كتاب "حلية الأولياء" لأبي نعيم، وهو كتاب يتحدث عن رجال التصوف، وفي بداية سيرة كل متصوف يذكر تعريف صاحب السيرة للتصوف باعتبار النهج الذي ارتضاه لنفسه.

والشيخ أحمد زروق لم يندهش من هذه الكثرة الهائلة التي تضمنها كتاب "الحلية" وهو يحاول أن يقدم تعريفًا جامعًا مانعًا للتصوف.

ونحن نتساءل عن الشيخ زروق وعن ثبات جأشه أمام هذه الكثرة الكاثرة من التعريفات.

والشيخ يرد دهشتنا بعبارة علمية رائقة، تتضمن الجواب عن هذا التساؤل الذي أخذ بتلابيبنا وألقى بنا في بحار الدهشة.

يقول الشيخ في هدوءٍ هادئ، وتؤدة في العبارة تمكننا من التأمل والتصور: [ماهية الشيء حقيقته، وحقيقة ما دلت عليه جملته، وتعريف ذلك بحدٍّ – وهو أجمع–، أو رسم –وهو أوضح– أو تفسير– وهو أتم لبيانه، وسرعة فهمه.

وقد حُدَّ التصوف ورُسِم وفُسِر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجعُ كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوهٌ فيه].

ولعلك لاحظت معي ما في العبارة من دقة.

ولعلك لاحظت معي أيضًا ما في العبارة من توجيه؛ فماهية كل شيء حقيقته، وحقيقته هى هذا العنصر المشترك الذي نجده في العقل كما نجده في الواقع، متمثلاً

في كل جزءٍ من أجزائه، وفي كل حالٍ من أحواله.

وهذا العنصر المشترك الذي لا يخطئ الأجزاء ولا تخطئه الأجزاء هو الذي يقوم عليه التعبير عن الحقيقة، سواء كان ذلك بالحد الذي يجمع جميع العناصر ويضم جميع الأجزاء، أو كان ذلك بالرسم وهو أوضح من الحد، أو كان ذلك بالتفسير وهو أتم بيانًا وأسرع فهمًا.

والتصوف من هذا القبيل حيث قد حُدَّ ورُسِمَ وفُسِرَ.

والشيخ زروق قد حدد الجزء المشترك الذي يمكن اعتباره في الحد والرسم والتفسير للتصوف، فوجده قد تمركز في شيء واحد هو صدق التوجه إلى الله.

وعليه فإنك تستطيع أن تنظر في سيرة كل متصوف، فإن وجدت لديه صدق التوجه إلى الله، علمت منه أنه على الطريق المستقيم والنهج القويم.

أما من أخطأه صدق التوجه إلى الله فإن التصوف الصحيح يأباه، وإن المتصوفين إذا قابلوه أو قابلوا مثله نبذوا به خلف ظهورهم واعتبروه دَعِيًّا في الطريق، ضرره أكثر من نفعه لو فُرِض شيء من النفع فيه.

الآن وقد اتضح الأمر في تعريف التصوف عند الشيخ زروق على نحو ما اتضح عند غيره في أشباهه في الطريق ونظائره.

ونحن عند هذا الحد نجدنا مضطرين إلى التنبيه على أمرين:

أما **أحدهما:** فهو محاولة تفسير هذه الكثرة من التعريفات التي وجدناها ووجدها الشيخ زروق عند أبي نعيم في حليته، وعند غيره من كتاب السير، أو من الباحثين في التصوف من كثرة التعريفات، وتعدد العبارات حول تعريف التصوف.

وهذا الأمر المُلِّح قد بينه الشيخ زروق وذكر أن هذه التعريفات الصادرة عن أصحابها، ما من تعريف منها إلا وصاحبه يجد من نفسه صدق التوجه إلى الله، غير أنه قد يغلب عليه حال من أحوال التصوف، أو يسيطر عليه مقام من مقاماته، فيعبر عما غلب عليه هو دون أن يقصد إلى تعريف التصوف ببيان ماهيته وحقيقته.

وأبو نعيم قد ارتأى لنفسه وهو يكتب سيرة كل متصوف أن يضع إلى جانب اسمه العبارة التي صدرت عنه تعبر عما غلب عليه من الحال أو المقام [الاختلاف

في الحقيقة الواحدة إن كثر دل على بعد إدراك جملتها.

ثم هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما قيل فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فُهم منه، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله، واعتبار كل واحد على حسب مناله علما أو عملاً أو حالاً، أو ذوقًا أو غير ذلك.

والاختلاف في التصوف من ذلك، فمن ثَمَّ ألحق الحافظ أبو نعيم رحمه الله بغالب أهل حليته عند تحليته كل شخص قولاً من أقواله يناسب حاله قائلاً: وقيل إن التصوف كذا.

فأشعر أن من له نصيب من صدق التوجه، له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه].

وأما **ثانيهما:** فهو ما يبدو لنا من أن الشيخ زروق قد تأثر تأثرًا بالغًا بهذه القراءة لمأثورات الإمام الغزالي.

وتأثره هنا قد ظهر في أنه قد اهتم بمعنى التصوف يتتبعه في كتابات المتصوفة وممارساتهم، فلما استقر بين يديه المعنى الذي يرتضيه تعريفًا للتصوف، اختار له العبارة التي تعبر عنه.

وهذا المسلك قد تحمس له الإمام الغزالي من قبل تحمسًا بالغًا في كثير من كتبه، وحض أتباعه على اتباعه والأخذ به، والاعتماد عليه.

وهذان الأمران اللذان نبهناك إليهما نحب منك ألا تغفلهما وأن تجعلهما نُصب عينيك، فكل واحد منهما يعبر عن شيء مهم ينفعك في مسيرتك وأنت تدرس الشيخ زروق، كما ينفعك وأن تدرس مأثوراته التي تسمى بالزروقية.

الأصل الذي يعتمد عليه تعريف التصوف الاصطلاحي: .

ونعود من جديد إلى تعريف التصوف كما ذكره الشيخ زروق، والذي هو صدق التوجه إلى الله.

ولكننا في هذه المرة نعود إلى التعريف لنتعرف على الأصل الشرعي الذي يستند إليه هذا التعريف.

والشيخ أحمد زروق يؤكد وهو مستريح إلى ما يؤكده أن التصوف إنما يرجع

في تعريفه إلى مقام الإحسان الوارد في صحيح الحديث الوارد عن رسول الله (ﷺ) في سؤال جبريل للنبي عنه، وفي جواب النبي لجبريل عن حقيقة ما سأل عنه؛ فإذا كان جبريل قد سأل النبي عن الإحسان ما هو؟

فإن النبي قد أجاب جبريل بحقيقة الإحسان على هذا النحو: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وإجابة النبي عن الإحسان بهذه العبارات وهذا البيان، تجعلنا لا نشك لحظة في صلاحية هذا الإحسان، لكي يكون أصلاً يعتمد عليه التعريف الاصطلاحي للتصوف؛ إذ من المعقول جدًا أن نقول: إذا كان التصوف هو صدق التوجه إلى الله؛ فإن أصله الأصيل الذي يعتمد عليه لن يكون إلا مقام الإحسان الذي معناه: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وعبارة الشيخ قاطعة في هذا الربط بين حقيقة التصوف وبين مقام الإحسان الذي صلح دون سواء كي يُتخذ أصلاً لهذه الحقيقة.

قال: [إسناد الشيء لأصله والقيام فيه بدليله الخاص به يدفع قول المُنكر لحقيقته.

وأصل التصوف مقام الإحسان الذي فسره رسول الله (ﷺ) بـ: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة، وعليه دائرة، إذ لفظه دال على طلب المراقبة الملزومة عنه.

فكان الحض عليها حضًا على عينه....

فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علَّمه (عليه الصلاة والسلام) جبريل (عليه السلام)، ليتعلمه الصحابة (رضي الله عنهم)].

لفظة التصوف وأصل الاشتقاق: .

ويعود الشيخ زروق من بيان ماهية التصوف وحقيقته إلى اللفظ اللغوي الذي يدل على هذه الحقيقة من حيث الوضع.

ومع أن الشيخ زروق على منهج الإمام الغزالي وغيره في اعتقاد أن الباحث

لابد أن يلتفت إلى المعنى والحقيقة والماهية أولاً، ثم يلتفت بعد ذلك إلى اللفظ الدال على هذه الحقيقة وتلك الماهية، إلا أنه يرى أننا حين نلتفت إلى اللفظ الدال على الماهية، ينبغي أن نكون على وعي كامل بأن الألفاظ واشتقاقها وتنوعها في دلالتها على الشيء الواحد والحقيقة بعينها، لابد أن يكون لها ظلال تؤثر على الشعور حين تنطبع في النفس، وهذه الظلال المؤثرة على الشعور تتعدد بتعدد الألفاظ الدالة على المعنى الواحد، كما تتعدد بتنوع الاشتقاقات، فإن أردنا أن نجمع المتعدد في كليٍّ واحد، فإنه يجب أن نلاحظ أن الجمع لابد أن يكون من الكل، بحيث يساهم كل لفظٍ بظلاله، أو مشتقٍ بمؤثراته على الشعور في المساهمة في هذا الكل الواحد الذي أردناه.

ومهما استطاع الباحث أن يجمع المتفرق في واحد على شرط جمعه فَعَلَ ذلك.

ولو قد تأبىَّ المتفرق على الجمع بسبب يحول بينه وبين هذا الجمع، فإنه يبقى مباحًا لكل واحدٍ أن يلاحظ انطباع المشتق أو اللفظ عليه هو، وأن يعبر عما انطبع في شعوره منه شريطة أن لا يكون هناك معارض يعارض ما انطبع في ذهنه، وتأثرت به مشاعره، فإن وُجد هذا المعارض امتنع على صاحب هذا الشعور وذلك الإحساس أن يعتمد ما شعر به، وأن يذيعه بين الناس.

والشيخ زروق يلخص هذه المعاني التي أثبتناها بين يديك. فيقول: [الاشتقاق قاضٍ بملاحظة معنى المشتق والمشتق منه.

فمدلول المشتق مستشعَر من لفظه، فإن تعدد تعدد الشعور.

ثم إن أمكن الجمع فمن الجميع، وإلا فكل يلاحظ معنى ما فهم إن سلم عن معارض في الأصل].

وما ذكره الشيخ زروق هنا يشبه أن يكون قاعدة منهجية أراد أن ينبه كل باحث إليها من ناحية، ثم هو قد رآها مناسبة لوضعها مقدمة بين يدي الحديث عن بيان أصل كلمة "تصوف".

فيعود الشيخ من التقعيد إلى التفصيل في المقصود.

والمقصود هو بيان أصل الاشتقاق في كلمة "التصوف".

وهو حين تأمل فيما يرجع إليه لفظ "التصوف"، أو ما ينتسب إليه من معنىً تدل عليه المفردة اللغوية من حيث الوضع وجد تعددًا في الاشتقاقات المحتملة تنوعت معها الدلالات، كما تنوعت الظلال التي انطبعت بها المشاعر.

والشيخ قد ذكر من هذه التنوعات خمسًا سنعرضها الآن بين يديك:

أولها: أن يكون التصوف مأخوذًا من "الصوفة"، وهي الواحدة، من شعر الغنم مثلاً، وهذا القول يناسب جزءًا من المعنى الذي تدل عليه كلمة "الصوفي"، وهو أن المتصوف يعتقد أنه لا إرادة له مع ربه على نحو ما قال أبو سهل الصعلوكي وهو يعرف التصوف: ["التصوف الإعراض عن الاعتراض"].

وثانيها: قريبٌ من أولها، حيث يكون التصوف منسوبًا إلى الصوفة، لكن المراد: صوفة بعينها وهي "صوفة القفا" وصلة هذه الدلالة بالمعنى الذي تدل عليه كلمة "تصوف" أن "صوفة القفا" فيها من اللين والهوان والضعف مثل ما نراه لدى المتصوف، فأنت تراه لينًا هينًا بسيطًا، كما ترى هذا اللين وهذه البساطة في "صوفة القفا ".

والتعبير عن التصوف بهذا المعنى نجده عند مثل الجنيد شيخ الطائفة حين مثَّل "الصوفي بأنه كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح".

وقوله أيضًا: "الصوفي كالأرض يطؤها البار والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالقطر يسقى كل شيء".

وثالثها: أن التصوف من الصفة، والصلة بين هذا النوع من الاشتقاق والدلالة على معنىً من التصوف أن الشأن في كل صوفي أنه دائمًا على سنام الفضيلة، متأبيًا على كل رذيلة.

وهذه الصلة هي ما عبر عنها أبو محمد الجريري حين أراد تعريف التصوف فقال: [" التصوف الدخول في كل خُلُق سَني، والخروج عن كل خُلُق دني إثمي" وهذا ملحظ جميل إلا أنه لا يخفى أن النسبة إلى الصفة لا تكون، "صوفيا" حيث إن الخطأ فيه ظاهر]

ورابعها: أنه من الصفاء، فالصوفي إذًا منسوب إلى "الصفاء".

والملحظ فيه: أن الصوفي آخذ نفسه دائمًا بممارسة التصفية، وتعهدها بالارتقاء في الصفاء.

وهذا هو ما يعنيه الكتاني، فهو القائل: ["التصوف خلقٌ؛ فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء "].

وأبو العباس المرسي من المعجبين بنسبة التصوف إلى الصفاء، حيث قال في ["الصوفي: إنه منسوب لفعل الله به، أي صافاه الله فصُوفى، فسمى صوفيًا"].

ولقد ازداد إعجاب أبي الفتح البستي بنسبة التصوف إلى الصفاء، فصاغ ذلك شعرًا حيث قال:

[تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقًا من الصوف.

ولست أمنح هذا الاسم غير فتىً صافَى فصُوفىَ حتى سُمى الصوفي].

وقائل هذا الشعر يشير إلى نسبة لم يتحدث عنها زروق هنا، وهى أن يكون التصوف منسوبًا إلى لبس الصوف، من قوله تقمص إذا لبس القميص، وتصوف إذا لبس الصوف، وهى إشارة تحمل معها اعتراضًا شديدًا على هذا الرأى وقائليه؛ فالدنيا ملأى بأناس يلبسون الصوف ولا ينتهجون منهج المتصوفة، والدنيا ملأى بأناس ينهجون منهج المتصوفة ولا نراهم يلبسون الصوف.

وينتهي صاحب هذا الشعر كغيره إلى أن التصوف مأخوذٌ من الصفاء، والناس عنده مهما اختلفوا وتباينت آراؤهم فهو لا يمنح هذا اللقب إلا لفتىً قد صافى فصوفىَ حتى أصبح الصوفي.

وكاتب هذه السطور كغيره ممن سبقوه يرى أنه مهما كان لهذه النسبة من جاذبية، ومهما كان للتعلق بها من شجًا، فإنها تبقى نسبة تعوزها الدقة، إذ النسبة إلى الصفاء: "صفوي". وليست "صوفيا".

قال القشيري في رسالته: ["ومن قال إنه من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة "].

خامسها: أن التصوف لفظ راجع في نسبته إلى الصُّفّة، وهى على وزن فُعلة

بضم الفاء وسكون العين.

قال زروق في "شرحه على المباحث" أي "المباحث الأصلية" وهى منظومة في التصوف وما يتعلق به من أحكام لابن البنا السرقُسطي أحمد بن محمد بن يوسف التحييي: الصُّفّة [" مكان في المسجد النبوي كان يجلس فيه فقراء الصحابة المتجردون فعُرفوا به، وكانوا يُعرفون بأضياف الله وأضياف الإسلام، وكانوا نحوا من ثمانين رجلاً، وآثروا التجرد للعبادة ومجالسة سيد المرسلين، مع التزام شرط ذلك من ترك التشوف للأسباب، والرضا بما يواجههم الحق به من سعةٍ أو ضيق"].

والأصل في الارتباط عند أصحاب هذا الرأى بين ا لصُّفّة والتصوف، إنما يرجع لمجموعة الصفات التي توفرت في هؤلاء المقيمين في صُفّة مسجد رسول الله (ﷺ).

وهذا كلام جيد في ظاهره.

ولكنه نوع من الارتباط تأباه اللغة ويأباه الواقع التاريخي على السواء.

أما أن اللغة تأباه فلأن النسبة إلي الصُّفّة: " صُفّيٌّ، هكذا بالتشديد، وليست "صوف" بالتخفيف كما هو ظاهر.

قال الإمام القشيري في ذلك: [" ومن قال إنهم منسوبون إلى صُفّة مسجد رسول الله (ﷺ)، فالنسبة إلي الصُفّة لا تجئ على نحو الصوفي].

وأما أن هذه النسبة مخالفة للواقع فهذه ملاحظة قد لاحظها كثيرون من الكتاب، ذلك: أن أهل الصُّفّة لم يكن لهم طريقة معينة انتهجوها يمكن إلحاق الصوفية بها، وأنها تكون السبب الذي أُلحقوا بالصُفة من أجله، فإلحاقهم بالصُّفّة للغربة لا للامتياز بالطريقة.

قال ابن خلدون بحق: [قال آخرون: واشتقاقه من الصُّفّة، وإن أصل هذه الطريقة مأخوذ من أهل الصفة، وهم المهاجرون الذين اختصوا بالسكنى في صفة مسجد رسول الله (ﷺ)، مثل أبي هريرة الدوسي، وأبي ذر الغفاري، وبلال الحبشي، رصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وأمثالهم.

واعلم أن أهل الصفة لم يكونوا مختصين على عهد رسول الله (ﷺ) بطريقة

في العبادة، بل كانوا إسوة الصحابة في العبادة والقيام بوظائف الشريعة، وإنما خصوا بملازمة المسجد للغربة والفقر، فإن المهاجرين من قريش نزلوا على أنظارهم من الأوسى والخزرج، وآخى رسول الله (ﷺ) بينهم، وبقى الغرباء فآواهم إلى نفسه، وأسكنهم مسجده، وأمر بمواساتهم، وكان يتفقدهم ويحملهم معه إلى الدعوات.

وفي البخاري (رقم ٦٠٨٧) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) في حديث طويل، قال: "وأهل الصُّفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها.

هذا مع أن قياس النسب إلى الصُّفة يأباه "].

ومع هذه المخالفات فإن القائلين بهذه النسبة بين التصوف والصُّفة على قناعة بأن المعنى الملاحظ في الاشتقاق هو ما بين المتصوفة وأهل الصفة من الاشتراك في الصفات.

وعبارة الشيخ زروق ناطقة بهذا قال: [لأن صاحبه (أي التصوف) تابع لأهلها (أي الصُّفة) فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال تعالى "يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه"].

ترجيح: .

ومع كل ما ذكرناه فإن صاحبناه الشيخ أحمد زروق على موقفه متمسكٌ به، من أن سبب إلحاق التصوف بالصُّفة هو ما عليه أهل الصُّفة من الصفة.

ثم عاد يشرح ما عليه أهل الصُّفة من الصفات بادئًا بقاعدة الإلحاق.

وقاعدة الإلحاق عنده نتيجتها الكبرى في أمرين:

أحدهما: أن التابع يأخذ حكم المتبوع فيما يتبعه فيه، وفيما كان سببًا لإلحاقه به لا يتخلف عنه منه شيء.

وثانيهما: أن المتبوع في منزلة المشبَّه به، وهذه المنزلة تقضي بأن المشبَّه به أقوى في وجه الشبه من المشبَّه، وبالتالي فإننا في التعميم نقول: إن المتبوع في

قاعدة الإلحاق يكون أقوى من التابع في هذه العلاقة التي قضت بأن يكون هناك تابع ومتبوع.

وفي مجال التطبيق رأينا صاحبنا زروق يتحدث عن أهل الصُّفة في مرحلتين يكون لكل واحدة منهما حكمٌ يناسبها.

أما **المرحلة الأولى:** فهي تتصل بأوائل هجرة أهل الصُّفة إلى المدينة، وفيها: أن هؤلاء الذين اتخذوا من الصُّفة مسكنًا لهم قد اتصفوا بـ: الغربة والفقر. والغربة: إنما تعني الانقطاع عن الأهل والأوطان، والفقر: إنما يعني الانقطاع عن المال وعن الأسباب التي تؤدي إلى اكتسابه، الأمر الذي يضفي على هؤلاء وصف: الفقر.

وأما **المرحلة الثانية** فهي هذه المرحلة التي تلي المرحلة الأولى، وفيها: أن هؤلاء الذين سكنوا الصُّفة قد اكتسبوا شيئًا من الاستقرار، والتعرف على الظروف المحيطة، مما يمكّن لبعضهم من اصطناع الأسباب إلى الكسب، وهو ما يؤدي بهم إلى اكتساب وصفٍ جديد ما كان لهم من قبل، وهو وصف: الوجدان.

مرحلتان إذًا قد مر بهما القوم، نتيجة أولاهما: الفقر، ونتيجة ثانيتهما: الوجدان.

ويؤكد صاحبنا على أن هاتين المرحلتين بما اتصل بهما من أوصاف لم تخرج واحدة منهما بأهل الصُّفة ولا بواحدٍ منهم عن تلك الصفات التي امتدحهم القرآن بها. فهم عندما وجدوا شكروا، ورفعوا أيديهم بالشكر لله يطلبون منه القبول والمزيد: "لئن شكرتم لأزيدنكم".

وهم عندما فقروا صبروا ورفعوا أيديهم بالدعاء إلى الله يسألونه أن يسد حاجتهم وألا يلجئهم إلى غيره.

صبرٌ وشكرٌ يجمعهما اللجوء إلى الله، ورفع الأكف إليه مع الصبر والشكر.

وقد تضمنتها الآية الكريمة حين انتظمها هذا الجامع من رفع الأكف إلى الله واللجوء إليه: "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" [الأنعام:٥٢].

ودلالة هذه الآية قاطعة -كما يقول زروق- في أن أهل الصُّفة لا تعلق لهم بالأسباب حين وجدوا، وهم لا تعلق لهم بانقطاع الأسباب حين فقروا، لأنهم في الحالتين قد أخلصوا التوجه إلى الله.

وفي مجال التطبيق كذلك يؤكد صاحبنا أن أهل الله من السادة الصوفية، قد تحققت لهم هذه الصفات جميعًا، فهم إذا فقروا صبروا، وهم إذا وجدوا شكروا، ولا تعلق لهم في الحالتين لا بالوجد ولا بالفقر، وإنما هم في جميع أحوالهم لاجئون إلى الله، رافعون الأكف إليه، يدفعهم إلى كل ذلك إخلاص التوجه إلى الله.

وأنت ترى زروقًا- كعادته- يعبر عما يراه، فيأتي تعبيره دقيقًا، ويأتي إقباله متحمسًا.

ونحن نستطيع أن نطالع عبارته وهو يتحمس إلى هذا الرأى الذي خلاصته: أن اسم التصوف إنما يرجع إلى صُفّة مسجد رسول الله في النسبة اللفظية، وفي الاشتراك في الصفات، وإن كان المتقدم أمكن في الفضل من المتأخر.

قال: [حكم التابع كحكم المتبوع فيما يتبعه فيه، وإن كان المتبوع أفضل.

وقد كان أهل الصُّفة فقراءً في أول أمرهم حتى كانوا يُعرفون بأضياف الله، ثم كان منهم الغني والأمير، والمتسبب والفقير، لكنهم شكروا عليها حين وُجِدت كما صبروا عليها حين فقرت.

فلم يُخرجهم الوِجدان عما وصفهم مولاهم به من أنهم يدعونه بالغداة والعشي يريدون وجهه.

كما أنهم لم يُمدحوا بالفقدان، بل بإرادة وجه الملك الديان، وذلك غير مقيد بفقر ولا غنى.

وبحسبه فلا يختص التصوف بفقر ولا غني، إذا كان صاحبه يريد وجه الله].

تحمس صاحبنا إلى هذا الرأى القائل بأن التصوف من الصُّفة، وبين السبب الذي جعله يتحمس إلى هذا الرأى.

إن الشيخ يفهم من التصوف والصوفي شيئًا واحدًا هو: إخلاص التوجه إلى الله عز وجل.

ولا بأس مع ذلك أن يكون الصوفي غنيًا أو فقيرًا.

ولا بأس مع ذلك أن يكون الصوفي مأمورًا أو أميرًا.

ولا بأس مع ذلك أن يكون الصوفي من وجهاء القوم أو يكون من المغمورين فيه.

تحمس الشيخ لهذه النسبة تحمسًا شديدًا كما ترى، فالصوفي شديد الشبه بأهل الصُّفة في صفاتهم وأحوالهم.

فأنت خبير بأن حكم المتصوفة المحققين في كل عصر وزمن حُكمُ متبوعِهم، وهم أهل الصُّفة، في عدم اعتبار الفقر والغنى، والتجرد من الأسباب والولايات وتعاطيها.

هذا هو ما رجحه زروق في قضية البحث عن النسبة أو الاشتقاق الذي ترجع إليه كلمة التصوف أو كلمة الصوفية.

ويبدو أن صاحبنا لم يلتفت، أو التفت ولم يهتم بمثل ما ذكره ابن خلدون وغيره، من أن اللغة تأبى هذه النسبة، ومن أن أهل الصُّفة لم تكن لهم طريقة مبتدعة أو خاصة بهم تميزوا بها عن سائر الصحابة.

فالتفاتة زروق الكبرى إنما كانت إلى مجموعة الصفات المشتركة بين التابع والمتبوع، والتي تناسبَ تعريفَ التصوف المشتمل على بيان ماهيته وحقيقته.

وهي التفاتة بالغة القيمة.

التصوف والشريعة: .

الآن وقد انتهينا من تصوير رأى الشيخ زروق في تعريف التصوف لغة واصطلاحًا، وأدركنا مهارة الرجل ودقته في تصوير آرائه.

وما فعله زروق خدمة أكاديمية تسر الباحثين بنفس القدر الذي يغضب من أجله الشانئون.

غير أن الأمر الأكثر أهمية يدور حول قضية العلاقة بين الشريعة والحقيقة، أو إن شئت فقل: العلاقة بين التصوف والإسلام، أو قل: العلاقة بين التصوف والفقه.

إنها عبارات متعددة ولكنها جميعها تنصب على أمر واحد، يحدد العلاقة إرادته

إليه، وبين التصوف باعتباره إخلاص التوجه إلى الله.

والأمر هنا يبدو بسيطًا بادي الرأى، غير أن الساحة بما تشهده من ممارسات، قد وُجد عليها بعض الناس قد قاموا قاصدين أو غير قاصدين بعملية فصل ممقوتة بين الشريعة والتصوف، أو كما يقولون، بين الشريعة والحقيقة.

لقد قام هؤلاء بإحداث شيء من الفصام النكد، بين الفقه وبين الزهد أو التصوف، أربك المتخصصين كما أدهش الناظرين، وهذا الإجراء قد أضفى على الممارسات الدينية من الأمور المنكرات ما جعل بعض الصوفية يتصدون إلى هذه الظاهرة بألوان من الجِدّ لافتة للأنظار.

ومن أوائل هؤلاء الإمام القشيري (رضى الله عنه).

ونحن سننقل بين يديك عبارته بطولها لا نخفى عنك منها شيئًا، مهما كان شعورك بالمرارة التي تصاحبها ولا نزوي عنك من معانيها شيئًا مهما قيل لنا إنها تدفع إلى اليأس ولا تقتصر على النكران.

إنا سننقل بين يديك عبارة القشيري على وجهها لتكون معبرة عن وصف الحال وصفًا يدفع إلى الأمل في تغييره في المآل.

قال: "أما بعد.. (رضى الله عنكم) فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، وأختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره.

فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدرات البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية. ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجاري الربوبية فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف. ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار، ونعت الانكسار ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال، علمًا منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد. لا يحكم عليه خلق. ولا يتوجه عليه لمخلوق حق.

ثوابه: ابتداءُ فضل، وعذابه: حُكمٌ بعدل. وأمره: قضاءٌ فضل.

ثم اعلموا – رحمكم الله- أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم: كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم... وأدى نساء الحي غير نسائهم.

حصلت الفترة في هذه الطريقة...، لا، بل اندرست الطريقة بالحقيقة مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء وقل الشباب الذين لهم بسرتهم وسنتهم اقتداء وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدُّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان العقلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات. وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق. والأحوال. وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق. تجري عليهم أحكامه وهم محوٌ. وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم. وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية. واختطفوا عنهم بالكلية، وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا. والنائب عنهم سواهم فيما تصرَّفوا، بل صرفوا.

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوَّحت ببعضه من هذه القصة.

وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار. غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء. أو يجد مُخالف لثلبهم مساغًا إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم. ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة.

ولما أبى الوقت إلا استصعابًا. وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تماديًا فيما

اعتادوه، واغترارًا بما ارتادوه.

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر- على هذه الحملة- بنى قواعــده. وعلى هذا النحو سار سلفه.

فعلقت هذه الرسالة إليكم. أكرمكم الله [الرسالة القشيرية ج١ ص١٨ وما بعدها ط/ دار الكتب الحديثة. الأولى/ ١٣٨٥هــ- ١٩٦٦م].

* * *

ونحن نرى من خلال ما ذكره الإمام القشيري نوعًا من الغضب والأسى، أبداه القشيري من خلال مرحلتين:

الأولى منهما: قد بين فيها التصوف المعتمد في الدين الإسلامي، وهو هذا التصوف الذي يعتمد على الشريعة المحتوية لأوامر الله ونواهيه، والمؤدية إلى انطباع سلوك المتصوف بما يرضاه الله سبحانه وتعالى من سلامة الأداء، وإخلاص التوجه به إلى الله.

والثانية من هاتين المرحلتين: هي هذه المرحلة التي ضل فيها الكثيرون عن المنهج الرشيد، فتخلصوا من الشريعة بكثير من التعلات، وتعلقوا بدعاوى كاذبة من أنهم أصحاب أحوال وكرامات، يدّعون أن الله قد وهبهم إياها والله من ذلك براء.

هذا هو مسلك الإمام القشيري الذي انتهى به إلى التصريح بأن القوم قد فقدوا آحادهم وجماعاتهم في العصور المتأخرة بتأثير الدعاوى الكاذبة.

واقتصر الشيخ القشيري على تسجيل صفات الأوائل، لعله يكون في تسجيلها إحياءً لبعض قلوب المتأخرين.

أما الشيخ زروق فقد انتهج للإصلاح منهجًا آخر يقوم على شرح وإيضاح الطريقة بما تشتمل عليه من الشريعة والحقيقة وضرورة الارتباط بينهما، ليتخذ من ذلك أرضية صالحة لإقامة الجانب العملي والعقدي عليها.

والشيخ زروق يبدأ من ذلك بعرض قضية كلية، قوامها من عنصرين هما ركنان إن شئت، أو هما شرطا صحتها إن أردت.

ونحن نبسِّط هذا القول نوعًا من التبسيط فنقول مع الشيخ زروق: إن صدق التوجه إلى الله الذي هو ماهية التصوف وحقيقته كما علمت، لا تقوم له قائمة مُعتبرة إلا من خلال شرطين يصححان معًا قيام هذا المعنى الذي هو: صدق التوجه إلى الله.

أما الشرط الأول فخلاصته: أن صدق التوجه إلى الله لا يقوم إلا من خلال

تحقيق أمور قد ارتضى منا أن نؤديها على الوجه الذي أراده.

وحين نريد أن نشرح هذا الشرط نقول: إن الله عز وجل قد فرض علينا أداء الصيام شهرًا في العام، أو أداءً للكفارات، أو وفاءً بالنذر.

والله يرتضي منا هذا الفعل إذا أُدى على الوجه الذي يرضاه الله، كأن يكون الصيام من طلوع الفجر إلى غروب شمس ذلك اليوم.

ولنا أن نفترض فرضًا فنقول: ماذا يكون الحال حين يؤدى المرء هذا العمل الذي هو الصيام، ولكنه يؤديه في يومي العيدين وفي أيام التشريق، أعنى أنه يؤديه في الوقت المحرم شرعًا؟

إنك ترى أن المرء في هذه الحال قد أدى عبادة مشروعة، لكنه قد أداها على غير الوجه الذي طُلب إليه أداؤها عليه.

إنه بهذا العمل قد أدى عبادة يرضاها الله، لكن على غير الوجه الذي يرضاها منه.

وهنا نقول: إن الشرط الأول قد اختل، وباختلاله لا يتحقق إخلاص التوجه إلى الله، فيسقط التصوف لسقوط حقيقته، بل إنه لَيَسقط بسقوط هذا الشرط تحقق العبودية العادية لله.

أما الشرط الثاني فهو: أن من أراد أن يخلص التوجه إلى الله، ويحقق ماهية التصوف فيه، فإنه يُشترط أن يتخذ لذلك كل فريضة فرضها الله عليه فيؤديها، وكل نهى نهاه الله عنه فيجتنبه.

والفرق بين هذا والذي قبله، أن ما ذكر قبلُ كان فيه أداء لما فرض الله عليه، ولكن من غير الوجه الذي فرضه الله أن يُؤدَّى منه.

أما في هذا الشرط الثاني فإننا نرى بعض الناس يبتكرون عبادة ما فرضها الله، ويجتنبون عبادة قد طلب الله إليهم أن يؤدوها.

ومثال ذلك أن يبتدع المرء طريقة في العبادة موازية لما فرض الله وليست منه، ثم يتخذها طريقة له مستريحًا إلى أداء العبادة على أساسٍ منها.

وهذا مسلك لا يؤدى إلى التصوف الذي هو صدق التوجه إلى الله، بل هو

نفسه هذا المسلك الذي يَعْرِفه العلماء باسم البدعة السيئة.

ودونك هذه القصة فتأملها، وهي تدور حول رجل دفعته غريزته إلى النظر إلى المحرم، فقرر أن يعبد الله بتغطية عينه بالشمع، ثم ظل يتوضأ للصلاة السنين ذوات العدد، وماء الوضوء لا يصل إلى هذه اللمحة من وجهه. فكانت عبادته لذلك بما لا يرضى الله عز وجل.

شرطان إذًا لا يتحقق التصوف بدونهما: أن يعبد الله بما يرضيه من الوجه الذي يرضيه، وألا يعبد الله بما لا يرضى به الله.

وهذان الشرطان قد تضمنتهما عبارة الشيخ زروق: [صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروطٌ بدون شرطه].

هذه قاعدة كلية، أو هذا قول جامع، اتخذه زروق مدخلاً لما يريد أن يقوله.

وما يريده أن يقوله هنا مبني على هذه الكلية، إذ لا يتحقق مشروط بدون تحقق شرط صحته.

وأنت خبير ولا شك – إذا أحسنت التأمل فيما ذكرناه- أن إخلاص التوجه إلى الله لا يتحقق إلا إذًا التزم المكلَّف بالأمر الذي يرضى الله وعلى الوجه الذي يُرضيه.

وما يرضى الله عز وجل هو مجموعة التكاليف التي جاء بها النبي يخبرنا أن الله قد كلفنا بها.

ومجموعة التكاليف التي كلفنا الله بها هي هذه الأوامر وتلك النواهي، وهى ما نسميها بالفقه في زماننا هذا، أو هى ما نسميه بالشريعة فى جميع الأزمان.

والأساس الذى يقوم عليه الفقه أو تقوم عليه الشريعة، هو: الإسلام، على نحو ما ورد في حديث جبريل المشهور.

والإسلام من مادته اللفظية يُفهم معناه، ومعناه: الخضوع إلى الله والاستجابة له فى كل ما أمر ونهى.

والفقه أو الشريعة بهذا المعنى يربطهما بالتصوف علاقة وثيقة يؤدى فصمها إلى أن كلاً منهما لا يبلغ هدفه ولا ينتهي إلى غايته: فلا فقه بغير تصوف، إذ لا

عمل بغير إخلاص التوجه إلى الله، وإلا كان العمل شكليًا لا يرضى الله عنه ولا يقبله، ولا تصوف بغير فقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا من خلال شريعته، وإلا من خلال الفقه الذي يحتويها.

وأحكام الله الظاهرة كذلك تحتوي على العقيدة المعبرة عن ارتفاع وعينا بالحق الأول وتوقيره.

والأساس الذى تعتمد عليه مسائل العقيدة هو: الإيمان، على نحو ما هو كذلك وارد في حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب.

والإيمان والتصوف، أو العقيدة والتصوف يرتبطان ارتباطًا وثيقًا، فلا تصوف بلا عقيدة وإيمان، ولا إيمان وعقيدة بغير تصوف، وكذلك لا توجد الشريعة بغير إيمان، ولا إيمان بغير شريعة.

إنها ثلاثية يرتبط بعضها ببعض، ولا ينفصم بعضها عن بعض، هي: الشريعة التي أساسها الإسلام، والعقيدة التي أساسها الإيمان، والتصوف الذي أساسه الإحسان كما علمت.

وعبارة الشيخ زروق واضحة الدلالة في هذا المجال وضوحًا لا يخفى: [ولا يصح مشروط بدون شرطه "ولا يرضى لعباده الكفر (الزمر/ ٧) فلزم تحقيق الإيمان، "وإن تشكروا يرضه لكم" (الزمر/٧) فلزم العمل بالإسلام.

فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه.

ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه.

ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه.

فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد.

ولا وجود لها إلا فيها، كما لا حياة لها إلا بها].

والشيخ زروق هنا ينقل عن الإمام مالك صاحب المذهب ما قد التفت إليه في هذا المقام، حيث بين في عبارة موجزة أن الفصل بين التصوف والشريعة يؤدي إلى خطرٍ عظيم، ومراعاة الربط بينهما هو قنطرة النجاة في الدنيا والآخرة.

قال مالك: [من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسّق،

ومن جمع بينهما فقد تحقق].

والشيخ زروق قد أخذ في إلقاء الضوء على هذه العبارة، حتى يفهمها من سمعها على وجهها، ولا يضل به الطريق في فهمها.

قال: [قلت: تزندق الأول: لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام.

وتفسّق الثاني: لخلو عمله من التوجه الحاجب منهما عن معصية الله، ومن الإخلاص المشترط في العمل لله.

وتحقّق الثالث: لقيامه بالحقيقة في عين التماسك بالحق، فاعرف ذلك].

* * *

العقيدة في الإسلام كما يفهمها الصوفية
ويعبر عنها زروق

تحدثنا عن العقيدة والشريعة فيما أزلفناه لك من الحديث، وبينا أن زروق منذ صباه المبكر، ومنذ أول عهده بالتصوف يرى أن التصوف لا يستغني عن الشريعة، وأن من أهمل الشريعة وادعى أنه صوفي هو زنديق دعيّ لا يعترف التصوف به، ولا يراه الصوفيون إلا زنديقًا.

والآن نتساءل عن العقيدة التي هي محتوى الإيمان: ما موقف زروق منها؟ ولا يجوز أن نتحدث عن زروق أو غيره في صحراء من الفكر، إذ الصوفية لا يعترفون بالتسحر المعرفي في مجال التصوف.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نحب أن نجيب على هذا السؤال من خلال هذه الربوة المعرفية التي تنتظم الصوفيين في باقات مزهرة على ربوات متلاحقة، يظهر زروق من خلال سلك نظامها متألقًا في لمعانه، واضحًا في ضوء نوره.

في بيان اعتقاد هذه الطائفة في مسائل الأصول:.

قال القشيري: [اعملوا، رحمكم الله، أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة: من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم.

ولذلك قال سيد هذه الطريقة "الجنيد" رحمه الله: "التوحيد إفراد القدم من الحدث".

وأحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل، ولائح الشواهد.

كما قال أبو محمد الجريري رحمه الله: "من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلّت به قدم الغرور في مهواة من التلف" يريد بذلك: أن من ركن إلى التقليد، ولم يتأمل دلائل التوحيد، سقط عن سنن النجاة، ووقع في أسر الهلاك.

ومن تأمل ألفاظهم، وتصفح كلامهم، وجد في مجموع أقاويلهم ومتفرقاتها ما يثق – بتأمله– بأن القوم لم يقصروا في التحقيق عن شأو، ولم يعرجوا في الطلب

على تقصير.

ونحن نذكر في هذا الفصل جملاً من متفرقات كلامهم فيما يتعلق بمسائل الأصول.

ثم نحرر على الترتيب بعدها ما يشتمل على ما يحتاج إليه في الاعتقاد، على وجه الإيجاز والاختصار، إن شاء الله تعالى].

.... إلى أن قال: [إنه سبحانه لا يظله فوق، ولا يقله تحت، ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا يحده أمام، ولا يظهره قبل ولم يفته بعد، ولم يجمعه كل، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس.

وصفه: لا صفة له، وفعله: لا علة له، وكونه: لا أمد له، تنزّه عن أحوال خلقه. ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج، باينهم بقدمه، كما باينوه بحدوثهم.

إن قلت: متى، فقد سبق الوقتَ كونُه. وإن قلت: هو، فالهاء والواو خلقُه، وإن قلت: أين، فقد تقدم المكانَ وجودُه.

فالحروف آياته. ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه. ما تُصوِّر في الأوهام فهو بخلافه، كيف يحلُّ به ما منه بداه؟ أو يعود إليه ما هو أنشأه؟ لا تماقله العيون، ولا تقابله الظنون، قربه كرامته، وبعده إهانته، علُوه من غير توقُّل. ومجيئه من غير تنقل]...

إلى أن قال بعد أن أثبت أقوال أكابر القوم في مجال العقيدة: [دلت هذه الحكايات على أن عقائد مشايخ الصوفية توافق أقاويل أهل الحق في مسائل الأصول.

وقد اقتصرنا على هذا المقدار خشية خروجنا عما آثرناه من الإيجاز والاختصار]. (القشيرية – ج١– ص٢٣ وما بعدها).

العقيدة في الإسلام كما يصورها زروق:

وإذا كنا قد اقتصرنا في تصوير اعتقاد القوم على ما ذكره القشيري في رسالته، إن الاقتصار على هذا القدر لا يعني إلا شيئًا واحدًا، وهو أنني أبغي أن

أجنبك التطويل مخافة السآمة عليك، والملالة أن تتمكن منك، وإلا فإنه كان من الممكن أن ننقل لك عبارات من هذا النوع منسوبة إلى القوم جملة وآحادًا على نحو ما هو وارد في كتاب "التعريف بمذهب أهل التصوف" "لأبي بكر محمد الكلاباذي"، وعلى نحو ما جاء في كتاب "الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر" والذي كتبه العارف بالله الشيخ "عبد الوهاب الشعراني" وغير ذلك وهو كثير متاح لك ولغيرك لمن أراد منكم المزيد.

فلتنصرف إذًا إلى الشيخ "أحمد زروق" الذي هو موضع اهتمامنا بالقصد الأول.

والعقيدة عند الشيخ "زروق" يمثلها في الإنسان هذه اللحمة بين العين والأنف، إذ العقيدة هي أساس النظام الإسلامي كله يتفرع عنها كل مهم، ويرجع إليها كل فرع، كما ينفصل الفصيل عن أمه ليثبت شخصيته ثم يعود إليها ليتزود في أسباب وجوده منها.

التعرف على العقيدة وطرق إثباتها لدى الصوفية:.

وإذا كانت العقيدة بهذه المثابة، فقد رأيناها موضع اهتمام المسلمين على تنوع توجهاتهم واختلاف مسالكهم.

غير أن جميعهم فيما عدا الصوفية يتوسلون إلى إثبات موضوعات العقيدة بالأدلة التي تتخذ من المقدمات طريقًا إلى النتائج.

أما المتصوفة فقد انتهجوا إلى دراسة العقيدة منهجًا آخر قعَّدوا له القواعد، ومهدوا إليه السبل.

وخلاصة ما فعلوه أنهم رأوا في العقيدة أنها أصل، وقاعدة كلية، وفرعوا على هذا الأصل فروعًا هي الشريعة بجميع تفصيلاتها، من نحو: الصلاة والصوم، والزكاة والحج... إلخ.

وهذه الفروع هي بالإضافة إلى أنها مجال استنباط القاعدة العامة التي تحكمها جميعًا، فهي من جهة أخرى محتوى الخطاب الإلهي الذي توجه به الشارع لكل مكلفٍ.

وبناءً على هذا الذي ذكرناه، فإن المكلَّف حين يستشعر الفرع ويدركه ويدرك أنه مكلَّف به؛ فإن هذا الشعور وذلك الإدراك يصحبانه جميعًا إلى الأصل الذي انبثق عنه الفرع.

وهذا المسلك يعد أمرًا محتومًا لأنه من قبيل البديهيات أو الضروريات التي لا تحتاج إلا لمجرد لفت النظر إليها.

والمتصوفة قد أدركوا هذا وثبت في وعيهم ثبوتًا لا يقبل اللجاجة ولا يحتمل المراء.

وهذا ما أكده الشيخ أحمد زروق فيما أُثر عنه حيث قال:

[تحقيق الأصل لازم لكل من لزمه فرعه إن كان لا ينفك عنه.

فلابد من تحقيق أصول الدين، وإجرائه على قواعده عند الأئمة المهتدين.

ومذهب الصوفي من ذلك تابع لمذاهب السلف في الإثبات والنفي].

محاور العقيدة في الإسلام كما يعبر عنها زروق: .

وهذه العقيدة التي لم تحتج إلى كد الذهن في إثباتها لتحرير الأدلة المنطقية، يديرها الشيخ زروق على محاور ثلاثة لم يشذ بها عن تقسيمات غيره من المسلمين، هي: الإلهيات، والنبوات، والسمعيات أو الخبريات.

قال: [وفصِل الاعتقاد ثلاثة:

أولها: ما يعتقد في جانب الربوبية، وليس عندهم، إذ ليس ثَمَّ ألحنُ من صاحب الحجة بحجَّته.

الثاني: ما يعتقد في جانب النبوة، وليس إلا إثباتها وتنزيهها عن كل علم وعمل وحال لا يليق بكمالها، مع تفويض ما أشكل، بعد نفي الوجه المُنقَص إذ للسيد أن يقول لعبده ما شاء، وللعبد أن ينسب لنفسه ما يريد تواضعًا مع ربه.

وعلينا أن نتأدب مع العبد، ونعرف مقدار نسبته.

والثالث: ما يعتقد في جانب الدار الآخرة، وما يجري مجراها من الخبريات؛ وليس إلا اعتقاد صدق ما جاء من ذلك على الوجه الذي جاء عليه من غير خوض في تفاصيله إلا بما صَحَّ واتضح.].

هذا ما ذكره الشيخ "زروق" وهو يتحدث عن محاور العقيدة؛ لكن على وجه مجمل.

فإذا أردنا أن نفصل في ذلك شيئًا ما من التفصيل، كان ذلك أجدى للموضوع، وأنفع للمتلقي.

الألوهية والعبودية:.

والمحور الأول من هذه المحاور هو هذا المحور الذي يضم تلك المسائل المتعلقة بالله عز وجل، وهي مسائل متعددة:

وأولها أن الحديث عن الله والمسائل المتعلقة به يستلزم أول ما يستلزم معرفة الطريق الذي يوصلنا إلى الله والإيمان به.

وقد سبق أن قلنا قريبًا: إن المتصوفة قد امتازوا من سائر الباحثين في مجال العقيدة، بأنهم لم يصطنعوا في إثباتهم لوجود الله والإيمان به الأدلة المنطقية، وإنما قد اكتفوا في هذا المجال بهذا الوعي الكامل بعلاقة العبد بخالقه، وهي علاقة تقوم على أن العبد مخلوق ومكلف من جهة الخالق، ولذا فإنه يدرك ولا شك أن إلهه قد خلقه من العدم، وأمده بالنعم، والخلق محتاج إلى صفة بها يكون المُوجد خالقًا، ومانح النعم مُنْعِمًا، والخلق والإنعام من صفات الألوهية والربوبية، والمخلوق محتاجٌ إليهما في مجالي الإيجاد والإمداد.

والوعي بهذا الذي ذكرناه أخصر طريق لإثبات وجود الله.

هذا من ناحية؟

ومن ناحية أخرى ترى العبد المخلوق من العدم، والذي أمده خالقه بالنعم، كي يستمر وجوده، وقد أدرك أن الله موجود؛ فإنه يقوّي هذا الإدراك عنده، أن إلهه ليس إلهًا بلا مطالب، وإنما هو إله يتوجه إلى عبده بخطاب التكليف، لكي يصيغه بالمنهج صياغة تضعه على درجته المناسبة في الوجود.

وهذا التكليف يتناول جميع مناحي حياة العبد.

وهذا التكليف كما علمت سلفًا يمثل مجموعة من الفروع انبثقت عن أصل يجمعها جميعًا، وهذا الأصل هو العقيدة، وأهم محاورها: المسائل المتعلقة بالألوهية.

وما على المكلف إن أراد أن يستوثق من أن إلهه موجود، إلا أن يتابع المسير من كل فرع إلى أصله، ليجد نفسه غير محتاج إلى شيء من أدلة المتكلمين.

أمران إذًا هما: الخلق والتكليف، يحملان المكلَّف من سفوح الشك إلى قمة ارتفاع الوعي بالتوحيد.

والشيخ "زروق" يصور هذا كله أثناء شرحه "لحكم ابن عطاء الله السكندري" فيقول في بعض ما قال: ["فائدة الطريقة ومقصودها إنما هو البحث عن تحقيق الحقيقة الإنسانية بالحقائق العرفانية، وذلك من وجوده، لوجوده، إذ له نسبة ربانية في وجود كماله اللائق به، وإلا فلا نسبة بين عبد ورب إلا من حيث اعتناء الرب بعبده، حيث أوجده من عدم، وأمده بالنعم وخصصه بالكرم، فكان دليلاً عليه مدلولاً موصلاً إليه موصولاً به ".

ومنذ البداية، يقول الشيخ: "تجب علينا معرفة أن الله مغاير تمامًا لأي شيء نراه أو نفكر فيه أو نتصوره. وجوده متميز عن أي وجود آخر، وكينونته لا تشبه أي كينونة أخرى، وأول ما يثبت هذا التميز أن الإنسان خلق من عدم بإرادة الله وحكمته كما جاء في القرآن الكريم: "أفمن يخلق كمن لا يخلق"؟ والقدرة على الخلق قاصرة على الله وحده، ويتبع هذا أن نجد أنفسنا في موقف يحتم علينا التسليم له والرضا بكل ما يريده "].

فكرة الخلق على ألسنة النظار وفي أذهانهم: .

ومن المسائل المرتبطة بفكرتي العبودية والألوهية هذه المسألة التي تسمى: "الخلق من العدم".

والخلق من العدم في هذه العملية هو الذي اشتُق منه اسم الله "الخالق"، وهو اسم فاعل يدل على ذات وصفة معًا.

ومن هنا تكلم المتدينون –حتى في الديانات السابقة على الإسلام– في مسألة الخلق باعتبارها أخص صفات الألوهية، وفي صفة المخلوق باعتبار أنه قد وجد من العدم.

ولقد وجد أصحاب الديانات من خلال بحثهم أن فكرة الخلق قد أوقعت القائلين

بوحدة الوجود في حرج شديد، حرجٌ لا يساوي نفس الحرج الذي وقعت فيه الهندوكية حين نادت بفكرة الظهور الإلهي؛ لأن فكرتي الظهور ووحدة الوجود يستلزمان ضرورةً قدم المخلوق، وهذا اللزوم أو الاستلزام لا يتناسب مع فكرة الخلق من العدم التي تعني حدوث المخلوق، وتترك للخالق وصفاته أن ينفردا بصفة القدم.

وفي الفكر الإسلامي قد طُرحت المسألة نفسُها للبحث والنظر، وانقسم الناس حولها إلى أقسام، كلٌّ حسب توجهه المذهبي.

فأنت ترى أصحاب المذهب الظاهري يؤكدون أن العالم حادث، وأن الخالق قديم، وأن هناك بعض الصفات لهذا الخالق القديم تكون حادثة، ولا يرون في قيام الحوادث بذات الله بأسًا.

والكلام عند المعتزلة ربما يكون فيه شيء من الاضطراب فيما ينتهون إليه من النتائج.

أما الأشاعرة فهم قد انتهوا إلى القول: بأن المخلوق حادث، وبأن الخالق بصفاته قديم، غير أن صفات القديم صالحة في كل وقت للتعلق بالفعل، ويسمى تعلقها به قبل خلقه (صلوحيٌّ قديم). ثم تتعلق إرادة الله عز وجل بعد علمه بإيجاد المخلوق في الوقت الذي يريده كي يوجد من العدم، فترجحه الإرادة التي كانت صالحة قبل إيجاده لهذا النوع من التعلق. فإذا ما تعلقت الصفات بهذا الخلق من العدم، وأوجدت المخلوق بالفعل، سمى هذا النوع من التعلق عند الأشاعرة بـ "التنجيزي الحادث".

والإمام الغزالي وهو الصوفي المتكلم يشرح هذه المسألة في العديد من كتبه، وهو ما يسميه بـ (الخلق على التراخي) أي القدرة على الخلق أزلاً و"تأجيل فعله" إلى حين يرتبط بالإرادة الإلهية.

والفكرة نفسها عند ابن عربي؛ حيث إن المخلوق الحادث يمر بمرحلتين: مرحلة هو بها في علم الله قبل خلقه، ومرحلة أخرى هو بها حادث في الطبيعة، وهذا الأخير هو ما يسميه ابن عربي بـ "التعيّن" بالنسبة لله وخلقه.

والشيخ زروق معتنقٌ لهذا النوع من التقابل بين الله والعبد؛ فهذا خالقٌ قـديم، وهذا مخلوق حادث. وصفات الله صالحة للإيجاد أزلاً، موجدة للمخلوقات حديثًا.

والظاهر أنه لا بأس عنده أن يعبر عن ذلك بتعبير الأشـاعرة عـن تعلقـات الصفات، وأنها تمر بمرحلتين: إحداهما: الصلوح القـديم، وثانيتهمـا: التنجيـزي الحادث، كما أنه لا بأس عنده أن يعبر عن ذلك بتعبير ابن عربي؛ حيـث تكـون النسبة بين المخلوق والخالق أن المخلوق يمر بمرحلة هو فيها موجودٌ في علـم الله أزلاً، وأخرى هي مرحلة "التعين" وهو فيها موجود طبيعي حادث.

غير أن هذه المسألة قد شوشت على فكر الفلاسفة في الإسلام، وفكر ابن تيمية وأتباعه، فتخلصوا من هذه المعضلة بالقول: إن العالَم المخلوق حادثٌ بالأفراد، قديم بالنوع.

غير أن منطلق الفلاسفة هو اعتقادهم بفكرة الفـيض، وعـدم قـدرتهم علـى الانعتاق من آثار قانون "العلة والمعلول".

أما ابن تيمية فمنطلقه مخالفٌ تمامًا لما ذكره الفلاسفة؛ حيث إن ابن تيمية قـد حكمته مقولة استقرت في ذهنه ولم يقدر على التخلص من آثارها، وهي: أن كمال الصفة في أن تكون مباشرة لوظيفتها بالفعل، فإن لم تباشر وظيفتهـا بالفعـل فقـد انخدش كمالها، وانثلم تمامها، مهما كانت درجة صلاحيتها لمباشرتها لأفعالها.

والصوفية لم يُدخلوا أنفسهم في هذه البوتقـة، تحاشـيًا للانـصهار بالـشك، وللتشويش بالارتياب؛ فالله عندهم خالق، والكون مخلوق، وصفات الخـالق غيـر صفات المخلوق على وجه قطعي، ونسبة المخلوق للخالق هي هذه النسبة التي تدل المخلوق على خالقه، وتوصله به، وتدفعه إلى الاستجابة له في أمره ونهيه كلما أمر ونهى، وهو ما قد التفت إليه الشيخ زروق.

قال: [وعلينا – بعد معرفة هذه الحقيقة الجوهرية وفهم موقفنا – أن نعمل طبقًا لهذه المعرفة وهذا الفهم، وهو ما يحتاج منا إلى نظرة أعمق وأشمل في أنفسنا وفي الطبيعة استجابة لقول القرآن الكريم: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفـسهم حتـى يتبين لهم أنه الحق" نظرة أعمق في باطننا وفي الوجـود الظـاهر ستوضـح لنـا

اعتمادنا الكلي على الله، ليس في وجودنا فحسب بل في استمرار هذا الوجود. الله هو الذي خلقنا وهو الذي يحفظ وجودنا، ولإرادته المطلقة أن يفعل بنا- وبالخلق كله – ما يشاء.

هذا عن الخلق والخالق – وهي أخص صفات الله سبحانه- فيما يتصل بالألوهية في مقابل المخلوق].

ويدفع الشيخ زروق فكرتِه شيئًا إلى الأمام كي تتضح أمام الناظر، وتمتاز من فكر الفلاسفة والتيميين.

فيقول تعليقًا على ما قاله ابن عطاء الله السكندري في حكمه: [كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟!] (٦/١٦).

قلت: [ليس معه شيء أبدًا كما لم يكن معه شيء أزلاً؛ لأن الكل فعله وهو المنفرد بالكمال، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان].

ولقد روى الإمام البخاري في بدء الخلق أن رسول الله (ﷺ) قال: " كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض".

ويقول الإمام ابن حجر في الفتح شرحًا وتعليقًا على الحديث الشريف في الرواية الآتية في التوحيد: "ولم يكن شيء قبله" وفي رواية غير البخاري "ولم يكن شيء معه" والقصة متحدة، فاقتضى ذلك أن الرواية وقعت بالمعنى، ولعل راويها أخذها من قوله (ﷺ) في دعائه في صلاة الليل كما تقدم من حديث ابن عباس: "أنت الأول فليس قبلك شيء" لكن رواية الباب أصرح في العدم، وفيه دلالة على أنه " لم يكن شيء غيره لا الماء ولا العرش ولا غيرهما لأن كل ذلك غير الله تعالى، ويكون قوله: "وكان عرشه على الماء " أنه خلق الماء سابقًا ثم خلق العرش على الماء، وقد وقع في قصة نافع بن زيد الحميري بلفظ: "كان عرشه على الماء ثم خلق القلم فقال: اكتب ما هو كائن! ثم خلق السموات والأرض وما فيهن" فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء والعرش.

وعلى هذا يكون قد سكن الغبار الذي أثارته فكرة ابن تيمية، التي وضعت

هاتين الروايتين وجهًا لوجه: "كان الله ولا شيء معه" و"كان الله ولا شيء قبله".

الربوبية والعبودية: .

هذا. ومن المباحث المتعلقة بالله عز وجل مبحث "الربوبية والعبودية".

وإنه ليس بغريب أن يكون الشيخ زروق قد سمع عن هذه الفكرة التي كرس لها ابن تيمية وأتباعه جهودهم فترة من الزمن ابتغاء تحقيق أمرٍ قد عرفوه، وهي فكرة "الألوهية والربوبية ".

ليس بغريب أن يكون الشيخ زروق قد سمع بهذه الفكرة وما وراءها من مجهود، فقد انتشرت وعمّ الضجيج بها في أوائل القرن الثامن الهجري، فأصبح الشيخ قريب عهد بها وبقائليها.

غير أن الشيخ لم يتابع الفكرة على منهج ابن تيمية، لأنه لم يستهدف هدفه من وراء إثارتها، ولم يبتغ مبتغاه من الدندنة حولها.

وإنما الشيخ قد رجع بكل شيء إلى أصله.

والأصل في أسماء الله الحسنى أن منها: ما هو العَلَمُ الدال على الذات، ومنها: ما هو الاسم الذي ينفي عن الله عز وجل ما لا يليق به، ومنها: ما يكون اسمًا دالاً على الذات وعلى معنىً زائدٍ على الذات، ومنها: ما يكون اسمًا دالاً على الذات وعلى فعل قد قامت به هذه الذات.

هذا هو الأصل في إطلاقات أسماء الله الحسنى على الله.

ونحن إذا تحدثنا عن "الربوبية والألوهية" تحتم علينا أن نكون واعين بما يلقيه علينا كل اسم من هذين الاسمين من ظلال.

فإذا كنا قد سمعنا أن من أسماء الله الحسنى (الله) فإنه ينبغي علينا أن نعلم أن هذا الاسم هو علم على الذات.

ومن أخص خواصه جل وعز أنه خالق، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

والخلق واستحقاق العبادة دون شريك أمران ملازمان للألوهية كما رأيت، قديمان بقدمها، دون أي إحساسٍ أو تفكير في لزوم أن يكون هناك مخلوقٌ أو عابد

قديم مع الذات.

وهذا أمرٌ قد فرغنا من الحديث عنه.

أما الربوبية فهي اسم آخر من أسماء الله عز وجل إذا استعملناه، أُشعر النطق به والسماع له بأن هناك مخلوق يحمل من الصفات صفاتٍ مضادة لما تُوحي به كلمة (الرب) من خواص أو ظلال.

فإذا كانت (الربوبية) تقتضي مثلاً: الغنى، والعزة، والقدرة، والقوة، فإن المخلوق المقابل الذي هو العبد لابد وأن يكون مختصًا بما يقابل هذه الصفات، وهي: الفقر، والذي والانكسار، والعجز، والضعف.

وهذه الصفات التي تقتضيها العبودية تجعل العبد محتاجًا إلى من يقوم بوظائف أضدادها عنه، فهو يحتاج قطعًا إلى الغنى ليمده بالنعم، ويحتاج إلى العزيز ليدفع عنه كل شر ومكروه، ويحتاج إلى القادر ليسدَّ له كل نقصٍ يعجز عن تحصيله لنفسه، ويحتاج إلى القوى ليشدَّ عضده، ويمده بما يستطيع أن يقاوم به ما يواجهه ومن يواجهه؛ فيعرقل نشاطه، ويحول بينه وبين أداء وظيفته.

ولعلك تستشعر معي ومع الشيخ أن اسم (الرب) يتضمن مباشرة وجود العبد.

ولعلك كذلك تستشعر معي ومع الشيخ أن لفظ (العبودية) والاتصاف بها يعلي من مكانة المخلوق، ويضفي عليه الكثير من كرامته.

[والعبد يتخذ موقفه تجاه هذه الصفات عن سبيلين: التعلق بالربوبية، والتحقيق في العبودية. وهذا يعني القصد إلى معرفة صفات الرب، وعدم الالتفات إلى شيء غيره، والاعتماد تمامًا عليه، واعتبار صفات العبودية جزءًا من ذات العبد لا ينفصل، بل هي ذاته الحقيقية.

وحين يقف الإنسان موقف العبودية قِبَل الرب فإنه بالتالي يتخذ موقف الانعتاق أمام الأغيار، وهو يتحرز من اعتبار الآخرين سادة مصيره أو موجهي حياته وقَدَره، بمجرد إدراكه أن الربوبية هي لله وحده فيتجه بكل روحه إليه. وهذا هو التحرر الحقيقي.

إن العبودية – في الواقع- هي درجة عليا من درجات الوجود، وعلى الإنسان

أن يرضى بها ويسعد، وحين خُير النبي (ﷺ) بين أن يكون ملكًا نبيًا أو بشرًا نبيًــا (أي عبدًا) قال: " يا رب أجوع يومًا وأشبع يومًا. فإذا جعت تــضرعت إليـك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك".

ويعلق زروق على هذا بقوله: إن النبي (ﷺ) لم يفضل حالة على أختها، ولكنه اختار العبودية في كلتيهما.

وكذلك حين قال النبي (ﷺ): " أنا سيد ولد آدم ولا فخر".

علق أبو العباس المرسي بأنه لا فخر له في السيادة لأن فخــره الحــق فــي العبودية.

أن تكون عبدًا صادقًا يعني أن تقوم بواجبك نحو الرب، وعلامــة صــدقك أن تثق بربك، أن تتوكل عليه وترضى بكل ما يأتيك منه، فهو وحده ذو الحق فــي أن يعطي ويمنع ويبسط ويقبض كما يشاء]. لازروق والزروقية ص٢٢٠، ٢٢١).

الأسماء الحسنى: .

ومن المباحث المتصلة بالألوهية هذا المبحث المعروف عنــد الـشيخ زروق "بأسماء الله الحسنى".

وأسماء الله الحسنى هي هذه الأسماء المأخوذة من صفاته، كالقادر من القدرة، والمريد من الإرادة.... إلخ.

وأسماء الله الحسنى قد اهتم العلماء بها قديمًا وحديثًا، وكتبوا حولهــا أبحاثًــا ومقالات، فمنهم من أخطأ في قصده، ومنهم من أصاب، والجميــع قاصــد القــصد الحسن، وهو إرادة وصف الله بكل كمال، وتنزيهه عن كل نقص، والله عز وجــل يجازي كل إنسان بما قصد إليه.

الأسماء الحسنى وإحصاؤها: .

والسلف من علمائنا قد عمدوا إلى الأسماء الحسنى لإحصائها، حين قرأوا عن رسول الله البشري، بأن لله عز وجل تسعةً وتسعين اسمًا، مائــة إلا واحــدًا مــن أحصاها دخل الجنة.

غير أن هؤلاء السلف الأفاضل اتخذوا لهذا الغرض أكثر من طريق، وكلهــا

تحت مظلة "من أحصاها".

فمنهم من رأى أن المراد "بالإحصاء" هو الحفظ والاعتناء بالعدّ، واستخراجها من الكتاب والسنة. وهؤلاء يبررون لموقفهم بأن النبي (ﷺ) لم يذكر لنا عدد هذه الأسماء الحسنى.

وفي هذا المجال وجدنا بعض المحدثين يلوم على المتقدمين فيما أحصوه من أسماء الله الحسنى التي اشتهرت بين الناس، وتقدموا هم بمنظومة أخرى لهذه الأسماء، وحين تأملناها وجدنا أنهم قد زادوا فيها على التسعة والتسعين، وهو الرقم الذي يمثل منطوق ما أثر عن رسول الله (ﷺ).

والشيخ زروق يضيق صدره بأية زيادة يذكرها الباحث في أسماء الله الحسنى، يتجاوز بها التسعة والتسعين اسمًا؛ فهو يؤكد هذا العدد المحدود ويتشبث به لأنها هي الأسماء المقبولة بحكم النص والإجماع، وهي أسماء توقيفية لا يجوز استعمال غيرها في الصلاة أو في الدعاء. إنه يرفض - في الوقت ذاته- أية أسماء أخرى مناسبة لله عز وجل، تطلق عليه إذا اتفقت مع الاشتقاق في اللغة العربية وحدها دون سائر اللغات، ذلك لأن الدين عربي والقرآن عربي، كما يقول، وهذا ما أتاح لبعض الصوفية كأبي العباس البوني أن يزيدوا في عدد الأسماء الحسنى حتى بلغت ثلاثة وخمسين ومائة اسم.

ومن السلف من حمل الإحصاء على ما ذكرناه من العد والجمع والحفظ، ولكنهم زادوا على ذلك أن يكون الذي أحصى الأسماء الحسنى يريد بإحصائها دخول الجنة، إنما يهتم بأن يذكر الله بكل اسم قاصدًا إلى جلب النفع ورفع الضر.

والشيخ زروق يوافق على أن يُذكر الله بأسمائه الحسنى؛ ولكن مع الحفاظ على هيبة كل اسم من أسماء الله عز وجل يذكره عبده به.

والحفاظ على الهيبة يخدشه أن يكون الذاكر لله بأسمائه الحسنى، لا يذكره بها إلا لمصالح دنيوية، أو مشارب نفعية.

حينئذٍ نجد الشيخ زروق يرفض هذه الطريقة، ويشدد النكير على متبعيها.

وهناك من السلف والخلف من رأى أن إحصاء أسماء الله الحسنى مسئولية

ثقيلة تحتاج إلى بذل الجهد الذهني والقلبي، لأنه ما من اسم من هذه الأسماء، إلا وقد أعلمنا الله به، ليتحمل العبد تبعاته.

وما ذكره السلف من هذا وذاك يتحمله اللفظ العربي (أحصى).

ففي القرآن الكريم جاء اللفظ (أحصى) بمعنى العد والجمع من مثل قوله تعالى: "وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا " [الجن/٢٨]، و"أحصاه الله ونسوه" [المجادلة /٦]، و"لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها " [الك هف/٤٩]، و"لقد أحصاهم وعدهم عدًا " [مريم / ٩٤]، و"وكل شيء أحصيناه في إمام مبين" [يس/١٢]، و"وكل شيء أحصيناه كتابًا " [النبأ /٢٩].

كما جاء في القرآن الكريم اللفظ (أحصى) بمعنى الطاقة والقدرة والتحمل "علم ألن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن" [المزمل/٢٠].

والأزهري يميل إلى هذا المعنى الأخير للإحصاء فيحمل الحديث عليه.

قال: [وأما قول النبي (ﷺ): "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة"، فمعناه عندي، والله أعلم، من أحصاها علمًا وإيمانًا بها ويقينًا بأنها صفات الله عز وجل، ولم يرد الإحصاء الذي هو العد].

وإن كان الأكثرون قد حملوا (الإحصاء) على العد والجمع (راجع ابن منظور مادة: حصى).

الأسماء الحسنى والتقسيم النوعي:.

ومع هذا فإن للشيخ زروق طريقة أخرى في إحصاء أسماء الله وهي الطريقة النوعية.

والتقسيم النوعي عند زروق يأخذ عدة مناحي بعضها غير دقيق:

(أ) **الطريقة الأولى:** وفيها يقسم زروق الأسماء الحسنى إلى أربعة أقسام:

١- أسماء الذات: وهي قاصرة على "الهوية" بعينها، ولا تتعلق بشيء سوى الله وحده سبحانه وتعالى لا يماثلها ولا يتشبه بها أحد من الخلق. فهي خاصة بالله تعالى خصوصية مطلقة. فاسم " الله " هو أجل الأسماء وأخصها، وهو يحوي جميع

معاني "الألوهية" و"الربوبية"، وليس ثمة شيء في الوجود كله يمكن أن يشارك في هذا الاسم بأي معنى من المعاني لا لشيء إلا لأنه علَم.

٢- أسماء الصفات: وهي "لا هي هو ولا هي غيره ولا هي فيما بينها أغيار".

٣- أسماء الأفعال: وهي تشير إلى نوع من الفعل الإلهي، مثل: "الخالق" و"الرازق" ونحوهما.

٤- أسماء التنزيه: وهي التي تدل على التنزيه المطلق للذات الإلهية، مثل: "القدوس".

والشيخ زروق في كناشه يورد هذا التقسيم بأسماء مختلفة على هذا النحو:

"أسماء الذات: ما أشعر بوجودها من غير معنى زائد.

أسماء الصفات: ما لم يلزم من إسقاطه نقص في الذات.

أسماء الأوصاف: ما أثبت حكما لمعنى في نفسه.

أسماء الأخلاق: ما صح إطلاقه وإطلاق مقابله المقتضى للكمال.

أسماء الأفعال: ما أشعر بصدور فعل من المنسوب إليه ".

وما ذكره أولاً أدق وأليق فتأمل.

(ب) **وهناك تقسيم آخر** أورده الشيخ زروق وهو تقسيم نوعي كذلك، جاءت فيه قسمة الأسماء الحسنى نوعيًا إلى قسمين:

١- الأسماء الجامعة: وهي ما يشمل اسمًا آخر أو أكثر أو يحوى معناه. فنحن حين نقول: "الملك" مثلا نفهم معنى "القوى" و"القادر". وعندما نقول: "الغافر" نربط الاسم بـ "الرحيم" و"اللطيف" و"الودود" وهلم جرا.

٢- الأسماء الاقتصادية أو "الكلية" الخاصة القاصرة على الذات الإلهية وحدها: وهي ما يعني التفرد، مثل "الواحد" و"الأحد" و"الصمد" وغيرها.

وهذا النوع من التقسيم يحتاج إلى كثير من الدقة وإلى قدر أكبر من الوعي بالنسبة للمتلقي.

(ج) **والتقسيم الثالث** يقوم على أساس أن الأسماء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- الأسماء الجمالية: مثل: "المؤمن" و"السلام" و"الودود".

٢- الأسماء الجلالية: مثل: "القهار" و"الجبار" و"المنتقم" و"المتكبر".

٣- الأسماء الكمالية: مثل: "الواحد" و"الأحد" و"القدوس" والصمد".

(د) **والتقسيم الرابع** ينبني على أن ثمة:

١- الأسماء المطلقة: وهي ما تدل على الذات الإلهية وحدها، مثل: "الله" و"الحق". أو ما كان مقصورًا عليها مثل: "الباري" و"الخالق".

٢- الأسماء المشتقة: وهي ما يشتق من أفعاله تعالى، مثل: "المصور" و"الموجد" و"الكريم".

(هـ) **والتقسيم الخامس** يجعل من الأسماء:

١- الأسماء المتكاملة: وفيها نجد اسمًا يكمل آخر من مثل: "الرحمن والرحيم" و"العظيم والكبير" و"العفو والغافر"... الخ.

٢- الأسماء المتقابلة: مثل: "المبدي والمعيد" و"المقدم والمرخر"، و"الرافع الخافض" و"الباسط والقابض" ونحوها.

هذه هي التقسيمات النوعية المأثورة عن الشيخ زروق.

ولولا في استيفاء النقل عنه ما أوردناها بتمامها بينما كنا نكتفي منها بالتقسيم الأول فهو الأجدى والأنفع.

الأسماء الحسنى من لفظ الشيخ:

وأنا أحب هنا أن أطلعك على هذه التفصيلات كلها من لفظ الشيخ زروق المباشر، بعد أن عرضتها عليك بشيء ما من التدخل أو التصرف.

قال الشيخ: [الحمد لله الذي تقدس في تنزيهه، وتنزه في تقديسه، وأثنى على نفسه بنفسه في أزليته والكل من تأسيسه، وسمى نفسه بنفسه قديمًا؛ فلا مشارك له علاه، وأودع أسراره في أسمائه تعالى، وعم على عباده نعماه، فجعل من أسمائه ما للجمال وما للجلال وما للكمال بالقدرة، وما للتجلي والتحلي والتملي، فنال ذوو الخبرة منها ما هو لطلب المناصب العالية، ومنها ما هو لتعمير القلوب الخالية، ومنها ما من أسراره فك الكروب، ومنها ما هو لجمع المحب مع المحبوب، ومنها ما هو لتكميل الناقص من الناس، ومنها ما هو للطهارة من سائر الأدناس، فسبحان

من أودع سره في كلماته، وجعل فضائل بره في بديع آياته].

ثم يقول: [... لابد من مقدمة قبل الكلام في الغرض المقصود لتكون توطئة وتكميلاً فيرجع إليها تفريعًا وتأصيلاً، ويحضرني من ذلك مسائل:

أولها: أن الكلام في الأسماء دار على خمسة أنحاء، وهي جملة ما يحتاج إليه في مبانيها اللفظية ومناحيها المعنوية، ومقتضياتها الوجودية، ووجوهها العرفانية، وخواصها الوجدانية، ولكل فريق طريق، ونذكر منه ما تيسر بحسب السعة والضيق، وبالله سبحانه وتعالى التوفيق.

الثانية: أن الأسماء توقيفية فلا تثبت إلا بنص أو إجماع على الصحيح، وأثبتها قوم بالاشتقاق من الأفعال والصفات وما جاء في الصيغ من الدعوات وغيرها وهو مرجوح عند العلماء ملحوظ عند المتصوفة، وعليه جرى الشيخ أبو العباس البُونِيّ في تقسيمها، وانتهى بها إلى مائة ونيّف وخمسين، والله أعلم.

الثالثة: أن الاسم عين المُسمَّى، وأباهُ قومٌ، وفصَّل آخرون، وتوقف آخرون؛ امتناعًا لكن السلف لم يتكلموا في الاسم والمسمى ولا في الصفة والموصوف، ولا في التلاوة والمتلوّ؛ طلبًا للسلامة، وحذرًا على الغير وهو الورع، والله أعلم.

الرابعة: الأسماء أقسام أربعة: أسماء الذات، وهي التي هي هُوَ، وأسماء الصفات؛ وهي التي لا يقال هي هُوَ ولا هي غيره ولا هي فيما بينهما اعتبار، وأسماء التنزيه وهي: ما دل على التقديس المطلق كالقدوس ونحوه، وأسماء الأفعال، قال إمام الحرمين: هي كل ما دلت التسمية به على فعل كالخلق والرزق، ونظر في ذلك بعض المشايخ بأن المغايرة فيما منه الاشتقاق، لا في الاسم وهو صحيح، والله تعالى أعلم.

الخامسة: قد صح أن " لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة " الحديث، فحصَرَ هذا الثواب للتسعة والتسعين ولم يحصر الأسماء في التسعة والتسعين، فجاز أن يكون ثم غيرها، ولا علم لنا به، أو علِمْناه وليس له هذا الثواب.

وقال بعضهم: هذه موضوعة للتعبد والسلوك بها، بخلاف غيرها، ونبَّه عليه

القاضي أبو بكر بن العربي – رحمه الله تعالى– في "الإمداد الأقصى" فانظره.

السادسة: قد وقع في الترمذي عد هذه التسعة والتسعين وكذا في غيره باختلاف وتقديم وتأخير، فرجع الحفاظ أن سردها إنما هو من الراوي، وسامح قوم في حملها على الرفع، وقالوا: يُقبل فيها خبر الواحد؛ لأنها عبادة وعمل، والله تعالى أعلم.

السابعة: الاشتقاق حيث ذكر في الأسماء فالمراد به أن المعنى المذكور ملحوظ في الاسم المذكور وإلا فشرط المشتق أن يكون مسبوقًا بالمشتق منه، وأسماء الله تعالى قديمة، لأنها من كلامه، وأنكر قوم إطلاق الاشتقاق للإيهام وقالوا: إنما يقال في مثل اسمه السلامُ: فيه معنى السلامة، وفي مثل اسمه الرحمن: فيه معنى الرحمة، قالوا: والأشياء مشتقة من الأسماء؛ لحديث وهي: الرحم وأنا الرحمن اشتققت لها اسمًا من اسمي؛ ولما أنشده حسان (رضى الله عنه) في النبي (ﷺ) حيث قال:

وَشَقَ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ .. فذُو العرْش مَحْمُودٌ وهذا محمَّدُ

الثامنة: الإحصاء على خمسة أوجه: الحفظ، والذكر، والعلم، والتعلق، والتخلق، والكل أقوال، ثم الذكر إما للتعبد أو للتوسل أو لطلب الخاصية، ولكل شرطٌ ووجهٌ ومادة، وأنواعه خمسة تقضي بمواده ووجوهه؛ لأنه إما نكتة تنصبغ بها الحقيقة فتخرق الظاهر والباطن بلا تعمد، وإما نقطة يثلجُ لها القلب فينبسط في عوالمه، فيقع التصرف على وفقه، وإما هيئة تشغل الظاهر بمبانيها، وتوجه الباطن لمعانيها فيقع التأثير على أثره، وإما رسم يعمر الوقت ويحصل التعبد، وإما عادة لا تفيد ولا تجدي، وهو الذي يجري على ألسنة العوام من غير قصد، أو بقصد غير جازم، أو جازم لا يستشعر معه الذكر ولا المعنى ولا المذكور؛ فالأول للعارفين، ثم للواجدين، ثم للمريدين، ثم للمبتدئين، ثم لعامة المتوجهين، ثم لا عبرة إذ ليس بِذِكرٍ حقيقة، والله تعالى أعلم.

الأسماء الحسنى نظرة مقاصدية: .

وما ذكره الشيخ يدخل بنا في متابعته إلى منطقة مهمة يمكن أن نطلق عليها

أنها منطقة دراسة أسماء الله الحسنى من منظور مقاصدي.

وأنا أخشى هنا عليك أن تصيبك الدهشة أو يأخذك العجب وأنا أنتحي بك هذا المنحى.

ومن أجل هذه الخشية عليك، أحب أن أقول لك شيئين:

أحدهما: أن الإمام الغزالي (٤٥٠- ٥٠٥) كان قد درس الأسماء الحسنى من هذا المنظر ووضع لذلك كتابًا كاملاً وسماه "المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" ضمنه بعض الدراسات الخاصة بالأسماء الحسنى ولكنه خصص الجزء الأكبر لدراسة الأسماء واحدًا بعد واحد إلى آخر التسعة والتسعين لهذه الدراسة المقاصدية.

والشيخ/ زروق قرأ هذا الكتاب قراءة جيدة واستفاد منه فائدة جليلة ظهرت في دراسته المُعَنْوَنَة بـ "المقصد الأسمى" ذكر فيه الأسماء واحدًا بعد واحد من هذه الوجهة المقاصدية كما فعل الغزالي، مع إيضاح وزيادات أوردها على وجه من العجلة والاختصار، وقد تخفف مِن المباحث الأخرى التي وردت في كتاب الغزالي، يرى أن معظمها ظلال لعلم الكلام، ولا شأن للصوفية بل ولا للسلف بها.

وثانيهما: أن مسألة الدراسات المقاصدية على العموم وإن كانت قد بدأت عند الجويني - إمام الحرمين- والغزالي - حجة الإسلام- والعز بن عبد السلام - سلطان العلماء وبائع الأمراء - ثم القرافي، فقد استقرت وتضمنت أبحاثًا مستقلة على يد الشاطبي المالكي والطاهر بن عاشور المالكي التونسي.

وآثار هؤلاء جميعًا قد عطرت الساحة الإسلامية على مستوى الفكر قولاً وتأليفًا، وعلى مستوى العمل والسلوك حركة ونشاطًا.

أذكر هذا الذي ذكرته لعله يخفف من غلواء دهشتك حين تَراني أكتب عن الشيخ زروق، أنه قد درس الأسماء الحسنى من منظور مقاصدي.

والشيخ زروق حين رأى أن يدرس هذه الأسماء دراسة مقاصدية، قد حصر المقاصد التي يمكن دراسة الأسماء الحسنى من خلالها في خمسة مقاصد: ذكرها صاحب كتاب "زروق والزروقية" وأنا أنقلها لك من لفظه.

قال: [ويقدم زروق – بالنسبة لأغراض الأسماء الحسنى واستعمالها- خمسة أهداف محددة عنده، هي:

١- **العلم**: إذ ينبغي أن نعرفها حتى نعرف الله من خلالها. فإن من لا يعرف من يعبد ليس مؤمنًا حقًا، لأنه جاهل والجهل يناقض الإيمان.

٢- **الحفظ**: فإن أسماء الله وسيلة للحماية من الأعداء والمصائب، إما في داخل الإنسان، كالنفس وشهواتها، أو خارجة مما يتعرض له في حياته اليومية.

٣- **التعلق**: وذلك بفهم معنى الاسم والتوجه إلى الله بحسب هذا المعنى. فعندما نعرف مثلاً أنه هو "المجيد" وجب علينا تمجيده، أو "الرحيم" وجب طلب رحمته، وحين نعلم أنه "المنتقم" يجب أن نحذر غضبه وسخطه، أو "الجبار" وجب أن نخافه ونخشاه.

٤- **التحقق والتخلق**: وهذا ينطبق على موقفنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين. فحين ندرك تمامًا أن الله هو "الرحيم" تجب علينا الرحمة بالآخرين واللطف بهم، وكذلك الحال في "الودود" و"العفو" و"الوهاب" و"الصبور". ويعني "الحسيب" مراجعة النفس ومحاسبتها، كما يعني "الرقيب" ملاحظة الأعمال والأقوال والسيطرة عليها وتوجيهها إلى الخير. ويجب أن نقتدى بـ "المعطي" في الإحسان إلى الفقراء والمساكين، وبـ "المانع" في إمساك أنفسنا من الوقوع في هوة الإثم ومنعها من ارتكاب الذنب.

وإذا كان "التعلق" في حقيقته هو موقف العبد أمام الله حيث لا شيء يعتبر حقًا ما عدا تمجيده تعالى، فإن "التخلق" هو تأثر العبد باسم الذات الإلهية حتى يفقد وعيه بغير كماله تعالى في كل اسم، وهو محاولته "تحقيق" صفاته عز وجل بالسلوك طبقًا لمعنى الاسم بطريقة مناسبة في الظرف المناسب.

ولا يمكن – بعد هذا – أن يحصل النفع من ذكر الأسماء إلا بالتمعن الكامل فيها والفهم التام لمعانيها. وسيظل ذكر الاسم، بدون فهم معناه الباطن والشعور بأثره في النفس، مجرد عادة لا جدوى منها يقوم بها العامة من الناس] (زروق والزروقية ص ٢٢٣ وما بعدها).

ومن كلام الشيخ زروق في هذا المجال هذه الجملة التي أُثْبِتها الآن بين يديك.

قال بين يدي شرحه لأسماء الله الحسنى، والمباحث المتعلقة بها: [أقوى ما تحرص عليه النفوس من علوم الأسماء خواصها، واستفادة ذلك من أخبار الشارع، وغالبه مذكور بصيغة الطلب أو التعرض أو الوصف، وهذا النوع مقدم، ومن إلهام أهل الحقائق، وهو قليل، وأكثره يكون بوجهٍ ما؛ فإذا وافق ذلك الوجه وقع من استنباط العلماء، وله أصول وقواعد وجدود، فمن قواعدهم: إن كل اسم خاصيته في معناه، وتصريفه في مقتضاه، وإفادته في وقته، وسره في عدوه، وتأثيره على قدر التأثر به، وذلك بقدر الفيض والقصد والهمة، وذلك يختلف باختلاف الطباع والأرواح والأحوال، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل].

هذا. ولئن كان هناك كثرة من العلماء الأوائل والمحدثين، قد فتحوا أبوابًا كانت موصدة على المباحث المقاصدية في مجال الشريعة، فإن كلاً من الإمام الغزالي، والعارف بالله أحمد زروق، وغيرهما من العلماء، قد فتحوا بابًا على الدراسة المقاصدية في مجال الأسماء الحسنى، وهو فتحٌ عظيم يُغري العلماء بفتح الأبواب التي لا تزال موصدة على بقية مباحث العقيدة، ليخففوا من هذا الجفاف الذي نراه ونحسه ونحن ندرس العقيدة في الإسلام، على نحو ما عالجها علماء الكلام.

وإن المرء ليدرك بإحساسه، الفرق بين مباحث العقيدة يتلقاها عن مثل الإمام الغزالي من خلال كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد"، أو "الرسالة المقدسية" أو جملة كتاب "قواعد العقائد" المشتملة على هذه الرسالة وغيرها، وبين ما يتلقاه بهذه المباحث عينها لمطولات كتب علم الكلام، والمختصر منها.

وإجمال القول: أن الدراسة المقاصدية في مباحث العقيدة تمنح هذه المباحث حياة وإحساسًا بها، على نحو ما نراه من الأثر الذي حظيت به مباحث الشريعة الإسلامية.

الصفات الخبرية:.

ومن المباحث المتصلة بالإلهيات هذا المبحث الذي يعنون له علماء العقائد باسم الصفات الخبرية.

والصفات الخبرية هي ما وردت بها الأخبار الصحيحة تنسب لله صفة من الصفات يكون اللفظ دالاً على شيء منها في المخلوقات، من نحو: اليد والصورة والعين والوجه والجنب والساق وغير ذلك كثير.

والمشكل فيما مثلناه له يمكن إدراكه من زاويتين.

الأولى: أن ما ذكرناه من الأمثلة ونظائره وأشباهه، يمكن أن يكون مدلوله من المعاني منصرفًا إلى شيء من الذات، لا إلى شيء من الصفات.

فتسميته بالصفات الخبرية من هذا الوجه تَجَوُّز.

والثانية: أننا لو تجوَّزنا في القول وقلنا: إن هذه الألفاظ وأشباهها ونظائرها تدل على صفات للباري عز وجل، فإننا نكون بهذا القول قد ألقينا بأنفسنا وتابعينا في مستنقع التشبيه، وهو مستنقع لا يخرج منه من وقع فيه مهما اصطنع فيه من التِّعلات، واتخذ له من الوسائل والأسباب.

وهناك مجموعة أخرى من الأخبار مدلولها وإن أدى بنا إلى الحيرة إلا أن الحيرة فيه تبدو أقل من سابقه، وذلك من نحو الصعود والنزول، والغضب والرضا، والوجود في جهة، والنطق والتكلم... الخ.

ونحن نقول إن هذه الأخبار وأمثالها تُلْمِحُ إلى الصفات لا إلى الذات ولكنها مع ذلك لا تخلو من ظلال التشبيه.

والعلماء أمام هذه النصوص جميعًا على ثلاثة أدْرُب:

أولها: هذا الدرب الذي يمثله السلف الصالح، وهم الذين كانوا في عصر المبعث، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

ومعتقدهم في هذه الأخبار واضح لا سترة به.

ودوران اعتقادهم هذا على أنهم يعتقدون أن الله له أن يصف نفسه بما شاء، على ما يريد، وعلينا أن نفهم من كلام الله ما أُتيحَ لنا أن نفهمه، فإذا ما استعصى علينا فهم شيء استقبلناه كما جاءنا اعتقادًا، ولا نحمله على شيء من فهومنا، بل نُمِرُّه كما جاء.

وأصحاب هذا الرأي أو الاعتقاد على الصحيح لهم مبررهم القوي، وهو أن

محتوى هذه النصوص، أمور لا يعدو التزامنا بها مجال اعتقادها والإيمان بها؛ إذ إنها لا توحي بشيء يمكن محاكاته.

هذا بالإضافة إلى أننا لو قد أضفنا إليها من فهومنا، فإننا سنقع في التشبيه مهما كنا مبالغين في الاحتياط، أو مسرفين في ا لحذر.

وينبغي أن نشدد هنا على أن السلف الصالح لم يحاولوا أن يُقحموا فُهُومَهم في تحديد المعاني التي تدل عليها هذه الأخبار، فضلاً عن أن يُقحموا أنفسهم في فكرة الكيفية إثباتًا أو نفيًا.

هذا موقف السلف الصالح.

غير أنا رأينا توجهًا آخر في الفهم لهذه الصفات الخبرية، اصطنعه علماء الخلف ولهم فيه مبرر قوي، يتمثل في الفتوحات الإسلامية، ودخول كثرة هائلة من أصحاب الثقافات المختلفة إلى الإسلام.

وأنت خبير ولا شك، أن أصحاب هذه الثقافات الذين دخلوا الإسلام، لم تتخلع رؤوسهم من فوق أكتافهم لمجرد أنهم دخلوا الإسلام، وإنما هم قد دخلوا في الإسلام وثقافتهم ما تزال في أدمغتهم وبين جوانحهم.

ولقد حملت هذه الثقافات أصحابها على أن يفكروا في نصوص الشريعة والعقيدة تفكيرًا جادًا.

ومن هنا رأيناهم حين اشتبه الأمر عليهم، وغمت عليهم الفهوم ووسائلها أمام بعض النصوص، توجهوا بها إلى علماء الإسلام، الذين لهم الأسبقية فيه، والقدم الراسخة في فهم نصوصه.

وكان لابد على خلف الأمة أن يُعْمِلُوا النظر في هذه النصوص.

وكان من الواجب الذي يلزم خَلَف الأمة أن يحتاطوا لأنفسهم وهم يحاولون فهم هذه النصوص.

ولتحقيق هذه الغاية، وضع علماء الأمة ضابطتين ألزموا أنفسهم بهما، حتى لا يضل بهم الفكر، وحتى لا يضيع من قدمهم الطريق.

وهاتان الضابطتان هما: مراعاة التقديس لله عز وجل؛ إذ هو "ليس كمثله

شيء"، ومراعاة اللفظ العربي بمدلوله على نحو ما ربط بينهما الواضع اللغوي، أو على نحو ما ربط بينهما المشرع.

واستنادًا إلى هاتين الضابطتين، وجدنا خلف الأمة يقدمون لهؤلاءِ الأعاجم فهومًا محكومة بهذه الضوابط التي ذكرت لك.

ومن الأمور النَّحِسَات أو قل من النكد الصارخ أنه قد ظهر في هذه الأمة توجه ثالث، لا يلتزم بمعتقد السلف الصالح كما لا يلتزم بفهوم الخلف المحترز.

وهذا **التوجه الثالث** قد صرح بأن له موقفًا جديدًا، يؤكد من خلاله إثبات مفهوم اللفظ أو الخبر، بما له من ظلال تجسيم غليظ لله عز وجل.

فلما رأوا قبح ما صرحوا به قالوا: إننا نملك لتصحيح الموقف خاتم سليمان، وهو المختزل في (البلكفة).

والبلكفة نوع من النحت اللغوي، أو من الاختزال اللفظي، لو رجعنا به إلى أصله صار هكذا (بلا كيف).

وظن أصحاب هذا التوجه الثالث أنهم قادرون على سبي العقول، واغتصاب الطريقة المثلى في التفكير.

وإمعانا في احتيالهم أخفوا المنديل الأحمر الذي هيجَّهَم وأثار غرائزهم وهذا المنديل الأحمر له لُحمة وسدى.

أما لُحمته، فهي هذه الفكرة التي قال اليهود لدعاة التضليل في العالم: حاولوا أن توقعوا الناس في الشرك بعيد المدى، بجعل فكرة الألوهية وهي عماد كل دين تنبت في الخيال؛ فإذا تخيل كل إنسان إلهه تعددت الأخيلة، وتعدد معها تصور الذات الإلهية وصفاتها.

أما سُدى هذا المنديل الأحمر، فهو ما أشاعه اليهود من أن تخيل فكرة الإله وقصور الذات الإلهية، إنما هي أمور من مطلوبات الشارع نفسه.

وإذا اكتمل للمنديل الأحمر لحمته وسُداه ولوح به أصحاب توجهٍ ما، في ديانةٍ ما للعامة، هاجت لرؤيته غرائز العامة، وانتفضت لذلك طباعهم، وزُيِن لهم سوء عملهم فرأوْهُ حسنًا.

لفتة نظر مهمة:

وبعد هذه التوطئة التي سجَّلنَاها لك في عجالة، ينبغي أن نقف معك متسائلين عن التصوف والصوفية، من هذه الأخبار التي تعد في مصطلح الدين من المتشابه.

وأنت لا يجوز لك أن تحتار؛ لأن الصوفية وهم من عقلاء القوم، قد علموا أن المتشابه من النصوص الشرعية يجب أن يرد إلى المُحْكَم؛ لأن الذين في قلوبهم زيغ هم فقط الذين يتبعون المتشابه، لإضلال الناس من جهة حتى يقعوا في الفتنة والعبث بالمنهج من جهة أخرى، فيصرفوه عن الوظيفة التي نيطت به "فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون: آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب" [آل عمران /٧].

ورجال التصوف لما كان هذا هو وعيهم، فقد شغلوا أنفسهم بمهمات الأمور، فرأوا أن هذه الأخبار التي هي من المتشابه، حملت إلينا محتوىً لا نعرفه، ومع ذلك فعلينا أن نؤمن به، حملاً على المحكم من القرآن الوارد في قوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

والشيخ زروق يمتعض غاية الامتعاض لو قد سُئل عن خبر عن هذه الأخبار ماذا يعني؟

وامتعاض الشيخ زروق هذا، يشبه امتعاض الإمام مالك وغيره، حين سئل عن بعض هذه الأخبار فقال: الاستواء معلوم والكيف غير مفهوم أو قل والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب.

والشيخ زروق قد اتخذ لهذه الأخبار موقعًا من العقيدة بأسلوب معبر جدًا عن المقصود منه، حيث جعل هذه الأخبار ضمن قسم السمعيات من العقيدة ولم يدرجها في قسم الإلهيات على نحو ما فعل الكل.

وهذه اللفتة من الشيخ زروق جعلتني أنظر إليه بشيء عظيم من الإكبار والإجلال.

وأنت لا يفيدك هنا شيء بأكثر مما يفيدك به ضيعه من لفظه أُبته بين يديك.

فهو قد ذكر مباحث العقيدة على ثلاثة أقسام: الإلهيات على نحو ما ذكرناها، والنبوات على نحو ما سنذكره إن شاء الله، والثالث ما سنذكره لك وهذا مثاله فتأمله. قال الشيخ: "ما يعتقد في جانب الدار الآخرة، وما يجري مجراها من الخبريّات؛ وليس إلا اعتقاد صدق ما جاء من ذلك على الوجه الذي جاء عليه من غير خوضٍ في تفاصيله إلا بما صحَّ واتضح.

والقول الفصل في كل مشكل، وذلك ما قاله الشافعي رحمه الله، إذ قال: "آمنا بما جاء عن الله، على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله". ﷺ

وقال مالك رحمه الله: "الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عن عنه بدعة " انتهى.

وهو جواب عن كل مشكل من نوعه في جانب الربوبية، كما أشار إليه السهروردي، وقال: إنه مذهب الصوفية كافة في كل صفة سمعية، والله سبحانه أعلم.".

لفتة لا تُخطئك:.

وأنا أحب الآن أن ألفت نظرك إلى أمر، أعلم علم اليقين أنه لن تفوتك ملاحظته.

وهذا الأمر الذي أريد أن ألفتك إليه يظهر من خلال هذا التساؤل.

وهو: أي الجماعات الآن على الساحة تحظى بمماثلة السلف الذين شغلوا العصور الأولى للإسلام؟ خاصة. ونحن نرى على الساحة الآن رجالاً يقولون: إنهم يمثلون فكر الأشاعرة في مجال اعتقاداتهم. ورجالاً آخرين يقولون: إنهم يمثلون فكر الماتريدية. ورجالاً يتعصبون إلى آراء المعتزلة. وأصفياء الصوفية أو الذين هم على الحق منه يغسلون أيديهم من هذه الأفكار جميعها بالماء والصابون.

من هم الذين يكونون على قرب قريب من السلف الصالح؟

وأنت لا يخفاك يا صاحبي أننا نرى فرقة أو جماعة من الناس هم في المجتمعات الإسلامية أعلى صوتًا، وأكثر تشنجًا، وأشد عصبية لما يدعون الناس

إليه، يسمون أنفسهم "بالسلفية"، أو إن شئت قلت: يسمعون أنفسهم "بالسلفية المحدثة"، وبداية ظهورهم كانت في القرن الثامن الهجري على يد ابن تيمية وأتباعه، ثم تحولت إلى حركة عنيفة على يد محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، الذين هيأت لهم الظروف قدرًا هائلاً من المناخ السياسي والاقتصادي الذي ساعدهم على الانتشار.

وهذه الطائفة حين أعلنت عن موقفها من الصفات الخبرية، وجدنا صوابًا ووجدنا خطأً.

أما صوابهم ففي دعواهم أنهم يريدون السنة ويتحاشون البدعة.

وأما خطؤهم ففي فهمهم لهذه النصوص الخبرية على الوجه الذي عرضوه على الناس. وفي ادعائهم أنهم يمثلون السلف الصالح.

وفي توسلهم إلى نشر مذهبهم بالعنف وتقطيب الجبين.

وفي الثمرة التي استهدفوها والمتمثلة في شرذمة المجتمع، وتقطيع أواصر القربى بين الناس.

وهذه الجماعة على ما خلفته من دمار وتشرذم لا تملك وجه شبه واحدٍ يربط بينها وبين السلف الصالح.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى. فإن جميع الطوائف الباقية - بصرف النظر عن صوابها وخطئها - قد حاولت أن تتعامل مع الصفات الخبرية على ميزان من الفهم والمنطق، فمنهم من أصاب وأحسن، ومنهم من أخطأ وأساء.

وخلاصة القول، وغاية الحكم الذي يؤيده الدليل، أن الطائفة الوحيدة التي تدَّعي أنها على مذهب السلف، وهي مصيبة فيما تدعيه، هي: الصوفية ورجالها المتصوفة.

وأنت إذا تأملت فيما ذكرته لك قريبًا من لفظ الشيخ زروق، وكنت على طبيعتك بغير غبار، وعلى منهجك بغير تحيز، لعلمت أن الصوفية بحق هي التي تسير على منهج السلف الصالح، فهم من بين العالمين الذين يقولون: أمروها كما جاءت، وهم من بين العالمين الذين يقولون: نؤمن بهذه النصوص على مراد الله

منها، وعلى مراد رسول الله، وهم من بين العالَمين الذين يقولون: إن الله لم يكلفنا بالبحث عن معاني هذه الأخبار.

وعليه: فما كشفه لنا منها استقبلناه بفهومنا، وما زواه عنا آمنا به على وجهه، على نحو ما قاله الله وبلغه رسوله، وعلى نحو ما قال رسول الله وحمله إلينا الثقات من الرواة.

هذا أمر فصل لا يجوز لنا أن نتجاوز القول فيه إلى ما هو أبعد من ذلك.

ورجال التصوف ليسوا دعاة مذهب، ينتصرون إليه بالعصبية، ويؤيدونه بتحميل النصوص ما لا تحتمل، ويشدون عضده بتضعيف القوى من الروايات، وتقوية الواهن منها.

إنهم برآء من كل ذلك، ومما عسى أن يكون له من نظائر وأشباه.

لأنهم يخشون ربهم ويخافون عذابه.

ولأنهم يحبون ربهم ويطلبون رضاه.

ورجال التصوف في المجتمع عز نظيرهم، ومع هذه الندرة لتواجدهم بين الناس ضيّعهم أقوامهم، وعدى كثير من الأدعياء على منهجهم، فتسلقوه بغير حق، وادعوه على غير صدق.

والله لن يرضى للمعوج أن يسود، ولا للظلم أن يسيطر، فهو قد حرم الظلم على نفسه، وجعله بين الناس محرمًا، فلا يجوز لهم أن يظّالموا.

إجمال القول في الإلهيات:.

ولم يشأن الشيخ زروق أن يترك الحديث في مجال الإلوهية قبل أن يقول للمكلّف كلمة مجملة تجاه اعتقاده في ربه، كي يجمع خيوط بعض الاعتقادات في يده؛ حتى لا يضل به الطريق، أو يتسع عليه المجال فلا يكاد يتبين موقفه فيه.

والكلمات التي أراد زروق أن يحقق بها غايته، ويصل بها إلى هدفه، هي هذه الكلمات التي قل لفظها، وعظمت فائدتها على نحو ما نثبته الآن بين يديك.

قال في شرحه "لقواعد العقائد" للإمام الغزالي ما هذا مثاله: [فالذي يجب للمرسِل وهو الله سبحانه وتعالى ثلاثة أشياء: الوجود المطلق، والكمال المطلق،

والبقاء المطلق؛ والذي يستحيل عليه ثلاثة هي: العدم أو تقييد الوجود، والنقص أو تقييد الكمال، والفناء أو تقييد البقاء؛ والذي يجوز في حقه تعالى إيجاد المعدوم الجائز، وإعدام الموجود الجائز، وإيقاع الخارق للمعتاد إذ لا يعجزه شيء من ذلك] (ص١٣١ – ط/ دائرة الكرز بالقاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٧م /١٤٢٨هـ).

النبوة:.

هذا هو الأصل الثاني من أصول العقيدة كما يوضحها لنا الشيخ زروق تعبيرًا عن نفسه، ونقلاً لفهوم رجال التصوف الصادق ينشرها في الأمة.

والشيخ زروق يقطع من أول الأمر بأن إدراج مسائل النبوات في العقيدة، إنما يعني أول ما يعني الحديث عن النبي والرسالة من حيث هذه الوساطة وتلك السفارة بين الله وبين عباده.

والحديث عن النبوة من هذه الحيثية يندرج تحتها بعض المسائل الهامة.

شخصية النبي:.

ومن أول الأمور التي نتحدث من خلالها عن النبي (شخصيته)، و(الصفات المقومة لهذه الشخصية).

وكل نبي من الأنبياء يمكن الحديث عن صفاته بتقسيمها تقسيمًا نوعيًا.

ونحن إذا أردنا أن نقف على تقسيم صفات النبي من حيث هو نبي إلى أنواعها الحاصرة لها، وجب علينا أن نسترشد بكلام صاحب هذه السيرة وتلك المسيرة، فهو أحق بالحديث هنا.

قال الشيخ زروق يحدد صفات النبي من حيث هو نبي: [والذي يجب للمرسَلِ ثلاث:

الصدق.

والأمانة.

.. وتبليغ الرسالة.

وعلماء العقائد يضيفون إلى هذه الثلاثة التي ذكرها الشيخ زروق من الصفات الواجبة للنبي والرسول صفة رابعة تعدُّ مكونًا مهمًا من مكونات شخصية النبي

والرسول، وهي الفطانة والوعي، وسرعة البديهة، وقوة الإدراك.

ثم يقول زروق: [والذي يستحيل عليه:

الكذب والخيانة وعدم تبليغ الرسالة.

والذي يجوز في حقه ثلاث:

الأغراض إلا الفاسدة، والأعراض إلا القادحة، والأمراض إلا المنقصة].

هذه هي صفات النبي والرسول من حيث إن كلاً منهما نبي ورسول.

ويؤكد زروق أن هذا ليس هو منتهى الحديث عن النبي والرسول لتوضيح وإثبات هذه العلاقة بين الخالق والمخلوق، أو بين المكلِّف والمكلَّف، إنما يبقى أن الرسول سيكون صاحب دعوى، وهي تحتاج إلى إقرار وإثبات، فكيف يتم إثباتها للمكلَّف بحيث يصبح الرسول أمامه هو صاحب البلاغ عن ربه على وجهٍ لا يقبل الريب أو الشك؟.

والشيخ زروق يعالج هذه المسألة بإجمال القول مرة، وتفصيل الحديث مرات.

فمن حيث إجماله للقول: نراه في قواعد التصوف يقول: [.. وما يعتقد في جانب النبوة، وليس إلا إثباتها وتنزيهها عن كل علم وعمل وحال لا يليق بكمالها].

وفي تفصيله للحديث نراه يقول – مثلاً – في شرحه "لقواعد العقائد" للغزالي بعد أن ذكر ما يجب، وما يجوز، وما يستحيل على الأنبياء والرسل.

[قال (رضي الله عنه): (لكنه)، يعني الله سبحانه، (بعث الرسل) لخلقه لإقامة الحجة وإيضاح المحجة، وقال تعالى: "رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل" [النساء/١٦٥]. وقال تعالى: "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً " [الإسراء/ ١٥]، (وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة) التي لا تخفى على أحد من العقلاء.

والمعجزات: جمع معجزة، وهو أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، موافق للدعوى مع عدم المُعارِض والتحدي للدعوى.

وذكر عياض ما يدل (لأنه قول النبي لا يأتي به غيره) كما قال تعالى في شأن القرآن: "**فأتوا بسورة من مثله** " [البقرة / ٢٣].

قال بعض العلماء: وكل ما جرى على يد النبي من الخوارق قبل ظهور النبوة فكرامة وإرهاص، وما كان بعد النبوة ولم يُتَحَدَّ به فآية ودليل، وما كان مقرونًا بالتحدي فمعجزة، وما لم يُتحدَّ به صح أن يكون كرامة للمتبع، واستدراجًا للمبتدع، فيفرق بينهما التوفيق في سلوك الطريق. لكن مجموع الآيات والكرامات في حق الأنبياء معجزة لانضمامه للمعجزة وكثرته، ولذلك أشار عليه السلام "ما من نبي إلا وأعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وكان الذي أوتيته وحيًا يوحى إليّ" الحديث.

وقد أنكر قوم من الفلاسفة بعثه الرسل وأوجبها المعتزلة، وكلٌ باطل للجواز العقلي والتحقق بالإعجاز، وقد رد الله على الفريقين بقوله الكريم: "لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم" [آل عمران/١٦٤]. فرد الفلاسفة بذكر البعثة، ورد المعتزلة بذكر المنة، إذ لا تكون ممن وجبت عليه بما وجب عليه، إنما تكون بما له تركه، ثم فعلَه تفضلاً.

...... (فبلَّغوا أمره) وجوبًا كان أو ندبًا، (ونهيه) تحريمًا كان أو تنزيهًا، (ووعده) وهو الإخبار عما أعدَّ لمن كفر به وخالف أمره، وكذلك بلَّغوا ما أخبر به من أمر الدنيا والآخرة وغير ذلك، لكن مدار ذلك كله على الأمر والنهي؛ والوعد والوعيد باعثان على العمل والكف، والأخبار باعثة ومحققه فما لها لهما (فوجب على الخلق تصديقُهم فيما جاءوا به) من أمر الدنيا والآخرة لتحقق صدقهم بالمعجزة وبالله التوفيق]. [ص١٢٩ وما بعدها].

وما جاء به الأنبياء المُوحَى به ليس من الأشياء المعتادة، إذ هو وحي من الله، له من صفات الكمال ما يجب أن يتصف به منها، ويستحيل عليه أضدادها، كما يجوز لهذا المُوحَى به أن يتصف بصفات لا يترتب على الإتصاف بأضدادها انتقاص من القداسة.

والشيخ زروق يعالج هذه المسألة بعبارته الموجزة، فيقول:

[والذي يجب للمرسَل به ثلاث: صدقه وكماله، وتحقق حكمه في أصله من من قدم أو حدوث.

والذي يستحيل عليه: نقصه وكذبه، وحدوث قديمه أو قدم حادثه، فالقرآن قديمٌ وغيره حادث.

والذي يجوز في حقه: احتواؤه على أقسام الكلام الثلاثة: الأمر، والنهي، والخبر. وعوارض الكلام من النسخ والتخصيص، وغير ذلك مما هو مسطر في كتب الأصول وغيرها، وبالله التوفيق].

نموذج تطبيقي: .

وعلماء العقائد حين يتحدثون عن النبوات، لا يفوتهم الحديث عن نبوة سيدنا محمد، وعن رسالته التي كُلف بإبلاغها للناس.

والشيخ زروق آخذٌ بهذه السنة حتى لا تخطئه طرائق الأولين، ولا يخطئها.

فكتب عن سيدنا محمد وعن رسالته، وعما يتصل بذلك كلِّه من أحكام واعتقادات.

فهو القائل: [قال (رضى الله عنه) – يعني الغزالي– (وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمدًا (ﷺ) برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس) يعني فجعله آخر المرسلين بشيرًا لأهل الصلاح بالفلاح، ونذيرًا لأهل العار بالنار، فمن قال: إنه لم يُبعث فكافر، ومن ليس بأمي فكافر لأنه ثابت قرآنا، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب فكأنه منسوب للحالة التي كان عليها عند أمه، والأمية كمال في حقه (ﷺ)، بل هي من معجزاته.

ويرحم الله البوصيري حيث قال في بردته:

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

ومن قال: ليس بقرشي فكافر أيضًا، كمن قال أسود أو ليس الذي كان بمكة، أو قال لم يكن في المدينة ولا توفى بها، لأن هذا كله جَحدٌ له، وقد نص القاضي في الشفاء على التفكير به.

وأما كونه مبعوثًا للكافة من العرب والعجم والإنس والجن، فلقوله تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا " [سبأ /٢٨]، وقال تعالى: "قل أوحى إلى" [الجن/١]. الآية، "وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن" [الأحقاف/٢٩]. [السابق ص١٢٤].

السمعيات: .

هذا هو الأصل الثالث أو المحور الثالث من الأصول أو المحاور التي يعتمد عليها الحديث في العقيدة، أو يدور حولها.

ولا جديد عند الشيخ زروق في هذا المجال إلا أن نقول: إنه قد ضم إلى هذه السمعيات التي يجب الإيمان بها الصفات الخبرية.

وأنت قد علمت قريبًا أن هذا الصنيع من الشيخ زروق ساعد على أن يكون الاعتقاد فيما يسمونه بالصفات الخبرية، قد اتضحت معالمه وبانت وجهته؛ فهو القائل بعبارة مختصرة، وكلمات موجزة في "قواعد التصوف".

[... والثالث: ما يعتقد في جانب الدار الآخرة، وما يجري مجراها من الخبريّات؛ وليس إلا اعتقاد صدق ما جاء من ذلك على الوجه الذي جاء عليه من غير خوضٍ في تفاصيله إلا بما صَحَّ واتضح.

والقول الفصل في كل مشكل، وذلك ما قاله الشافعي رحمه الله، إذ قال: "آمنا بما جاء عن الله، على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله ".

وقال مالك رحمه الله: "الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة " انتهى.

وهو جواب عن كل مشكل من نوعه في جانب الربوبية، كما أشار إليه السّهروردي، وقال: إنه مذهب الصوفية كافة في كل صفة سمعية، والله سبحانه أعلم].

وبهذا الحديث الموجز يكون الشيخ زروق قد أعرب عن موقفه وموقف الصوفية جميعًا من السمعيات. بعد أن ضم إلى السمعيات كما يعرفها علماء العقائد الصفات الخبرية التي يعالجونها وهم يتحدثون في محور الإلهيات.

والتفصيل في كل هذا له مكانه من كتب العقائد لمن طلب المزيد.

وبهذا الحديث عن المحور الثالث نكون قد انتهينا من الكلام على العقيدة عند زروق خاصة، والصوفية عامة بمحاورها جميعًا.

وحين انتهينا من الكلام على العقيدة نكون قد انتهينا من الجانب النظري من

تصوف الشيخ زروق، باستثناء بعض التفريعات التي اعتبرناها تفريعات مثيرة للجدل أكثر من كونها مانحة للمعارف.

فلننصرف عن الجانب النظري قانعين بما ذكرناه، لنتحدث عن الجانب العملي فيما نستقبله معك من حديث؟

* * *

الجانب العملي في التصوف
كما يفهمه الشيخ زروق

إن الطرق الجادة في مجالي النظم والاجتماعيات، والنحل والديانات لا تستقيم منطقيًا بين يدينا إلا إذا التأمت من فكر وعمل، ومن نظريات وتطبيقات، ومن علم وسلوك.

والشيخ أحمد زروق شديد الوعي بهذه المسلمة، ولذلك فإنا قد وجدناه يؤكد غاية التأكيد على ضرورة ارتباط العلم بالعمل في التصوف ارتباطًا لا يقبل الاستثناء، ولا يحتمل غض الطرف عنه.

وهذه عباراته، قال: [الاشتراك في الأصل يقضي بالاشتراك في الحكم.

والفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام ا لله تعالى وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله.

وقد صح أن العمل شرط كمال العليم فيهما وفي غيرهما، لا شرط صحة فيه، إذ لا ينتفي بانتفائه، بل قد يكون دونه لأن العلم إمام العمل، فهو سابق في وجوده، حُكما وحِكمة، بل لو شُرط الاتصال لبطل أخذه، كما أنه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهما بفساد الزمان، وذلك غير سائغ شرعًا، ولا محمود في الجملة، بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه وما نفاه عمن لم يخشه، واستعاذ عليه الصلاة والسلام من علم لا ينفع، وقال: " أشد الناس عذابًا يوم القيامة، عالم لم ينفعه الله بعلمه، فسماه عالمًا مع عدم انتفاعه بعلمه، فلزم استفادة العلم من كل محق فيه محقق له، ليس ضرر علمه في وجه إلقائه كعدم اتصافه، فافهم].

ثم قال: [الأغلب في الظهور لازم في الاستظهار ربما يلازمه، وقد عرف أن التصوف لا يُعرف إلا مع العمل به، فالاستظهار به دون عمل تدليس، وإن كان العمل شرط كماله.

وقد قيل: العلم بالعمل، فإن وجده، وإلا ارتحل، أعاذنا الله من علم بلا عمل، آمين].

إلى أن قال: [لا يصلح العمل بالشيء إلا بعد معرفة حكمه ووجهه.

فقول القائل: " لا أتعلم حتى أعمل" كقوله: " لا أتداوي حتى تذهب علتي"، فهو لا يتداوي ولا تذهب علته.

ولكن العلم، ثم العمل، ثم النشر والإفادة، وبالله التوفيق]. (راجع قواعد التصوف).

هكذا يبدو الشيخ زروق مُصرًّا على ضرورة ارتباط العلم بالعمل، إذ لا يصلح عمل بلا علم، كما لا يفيد العلم إذا انفصل عن العمل به.

الصحبة: .

والعلم والعمل حين يرتبطان إنما تظهر فائدة ارتباطهما من خلال منظومة يراها الشيخ زروق ملائمة لفطرة الإنسان، ومناسبة لطبيعتي العلم والعمل.

ولهذه المنظومة مغالم تُعرف ولا تنكر، يجب أن يحيط بها كل سالك لطريق التصوف، ويجب أن يكون على وعي بها كلُّ طالبٍ للكمالِ.

وأول هذه المعالم التي يجب الوعي بها، هذا المَعْلَم الذي نسميه بـ "الصحبة".

والصحبة ضرورة يقتضيها التشريع كما تقتضيها فطرة الإنسان.

ولقد وردت الإشارة إلى ضرورة الصحبة الانتقائية في أحاديث رسول الله (ﷺ).

كما نجد الإحساس بلزوم الصحبة في طباعنا ومشاعرنا باعتبار أن بني الإنسان ينطلقون من قاعدة مهمة، وهي أن الإنسان مدني بطبعه، اجتماعي بفطرته.

وهذا إجمال نفصله بين يديك:

[يقول النبي (ﷺ): " الجليس الصالح خير من الوحدة. والوحدة خير من جليس السوء. والجليس الصالح كالعطار إن لم يمنحك من طيبه أصبت ريحه. والجليس السوء كالحداد إذا لم يصبك من شرره أصابك من نتنه".

من هذا الحديث، وغيره، ينطلق شيخنا ليقرر ضرورة الصحبة للمبتدئ حتى يكون له مثل من الذين سبقوه في الطريق ويجد العون في عبوره فيمضي فيه، وهو يشعر أن ثمة من يرافقه ويشاركه همومه واهتماماته. فإن غيبة الرفيق قد

تؤدي إلى إحساس السالك بالضيق والوحشة وقد يضل الطريق] (زروق والزروقية ص ٢٥٧).

والصحبة الانتقائية: .

والشيخ زروق وإن كان يرى أن الصحبة ضرورة يقضيها التشريع كما تقتضيها الفطرة، فإن الصحبة عنده ليست على إطلاقها، وإنما الصحبة تؤتي أُكلها إذا رأينا كل صاحب ينتقي على طريق السير صاحبه، الذي يحمله إلى بلوغ الأهداف المراد بلوغها، ويقطع معه الطريق يعينه على العلم كما يعينه على العمل.

ولا يتأتى للإنسان إن ينقي صاحبه، إلا إذا فقه حقيقة الصحبة وعلم أنواع الأصحاب.

والشيخ زروق يزودنا بأنواع الأصحاب على نحو ما يزودنا بحقيقة الصحبة.

ولكننا قبل أن نلتقي بالشيخ زروق لننقضي معه الجليس الصالح، والرفيق الناجح، ننقل هنا رأى سهل التستري وهو من كبار المتصوفة فيمن يجب إزاحتهم من طريق السالكين.

وسهل التستري يحدد لنا أصنافًا يشدد علينا في ألا نتعامل معهم، وهؤلاء الذين يجب إزاحتهم من طريقنا إذا أردنا بلوغ أهدافنا، على الوجه الذي يُرضي الله ويرضينا، هم في الحقيقة ثلاثة أصناف من الناس.

[الجبابرة الغافلين.

والقراء المداهنين.

والمتصوفة الجاهلين.

فالصنف الأول بلغ به الكِبْرُ حدًا يحتقر فيه كل من عداه.

والثاني: منافق مُظهر لعيوب غيره غير ملتفت لعيوبه.

والثالث: يدعي ما لم يبلغه رغبة في رفع قدره في أعين الناس دون حق ولا حقيقة، وحبًا في الشهرة والظهور].

إن من اللازم اللازب إذًا أن ينتقي صاحب الطريق أصحابه بعد أن يتخفف من هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم التستري، ونقلناهم الآن بين يديك.

والصاحب الذي سيختاره سالك الطريق على نحو ما يراه الشيخ أحمد زروق هو واحدٌ من ثلاثة في الحد الأدنى، أو الثلاثة جميعًا في حسن الرأي.

صاحب للآخرة: وهو التقي ذو الدين، العالم بمسائل العقيدة.

وصاحب للدنيا: وهو ذو الأخلاق الحميدة.

وصاحب يُتخَذَ صديق: بحيث يُكفَى سوء أعماله.

والخير كل الخير في وجود الصاحب الطيب ومعرفة غاية الطريق معه، أو كما قال أبو الحسن الشاذلي.

"أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا إلى حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس غالبًا إلا حيث تأمن معصية الله، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله. ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد به يقينا ".

ولا يقتصر التحذير في الصحبة على هذه الأصناف من الناس، بل هو يركز على التحذير من صحبة أخطر على سمعة السالك وأخلاقه، هي صحبة الأحداث، وإذا كان المفهوم العام للأحداث أنهم صغار السن، فإن معنى "الحدث" لدى زروق يتسع حتى ليشمل حدث العقل والنفس معًا، حتى وإن كان عمره سبعين عامًا – كما يقول– وهو يعرّف الحدث: بأنه كل من لا يوافقك على طريقك – أو كما قال الله تعالى لموسى (عليه السلام): " يا ابن عمران! كن يقظًا وارتض لنفسك إخوانًا. وكل أخر لا يوافقك على مسرتي فهو لك عدو يُقسِّي قلبك ويباعدك مني". فالصاحب – في الواقع– جزء من الإنسان، كجزئية الرقعة في الثواب، تظهر وتلفت النظر إن لم تكن من قماش الثوب ولونه. وكذلك الصاحب إن لم يكن قريبًا من صاحبه في الطبع والفكر والسلوك. (انظر زروق في: شرح المباحث الأصلية، الجامع لجمل من الفوائد والمنافع، عدة المريد الصادق. وراجع زروق والزروقية ص٢٥٨ وما بعدها).

الشيخ:.

ليس شيخك من سمعت منه وإنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك من سرت فيك إشارته.

ليس شيخك من دعاك إلى الباب إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله إنما شيخك من نصر بك حاله.

شيخك الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى.

شيخك الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى تجلّت فيها أنوار ربك.

نهض بك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ولا زال لك محاديًا حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك. (ابن عطاء الله السكندري).

الشيخ وحاجة السالكين إليه:.

تبين لنا أن من خواص الإنسان أنه اجتماعي بطبعه مدني بفطرته.

وهذه الخاصية – خاصية الاجتماع والمدنية- تحتاج أن ترتبط كل جماعة بمنظومة خاصة بهذا الاجتماع وتلك المدنية. وأهم ما في هذه المنظومة أن يكون للجماعة نظام، وأن يكون للنظام مرشد يهدي معتنقيه إلى الطريق.

هذه مسائل يعد إدراكها من قبيل البديهيات، ويعد التمسك بها من قبيل الضروريات.

والتصوف ليس بدعًا بين النظم، ولا شاذًا في مجال الطرق التي تنظم الجماعات، وتعمل من أجل أن تصل الأفراد في الجماعات إلى أهدافها، لا يخطئه واحد منها إلا ما يقتضيه الاستثناء على سبيل الشذوذ.

والقائد في مجال التصوف نسميه مرشدًا، ونسميه هاديًا، ونسميه شيخًا، يتبعه مريدوه، يستفيدون من نصائحه، ويسترشدون برشده، ويهتدون بهداه.

وسالكو الطريق يتبعون الشيخ، لا لشيء إلا لأن السبيل أمامهم مجهول المعالم، لم يسبق لهم أن ارتادوه، وبالتالي فهم لا عهد لهم بمخاطره وبمفاجآته.

من هنا. ومن هنا فقط، كان الشيخ ضرورة في التصوف على نحو ما يكون

الخليفة أو الأمير ضرورة تتعلق به توازنات السياسة الشرعية، وعلى نحو ما يكون الأمير في السفر ضرورة تقتضيها مصلحة الجماعة الذين يتأمَّر عليهم.

والأمر هنا ظاهر غاية الظهور لا يحتاج المرء في التأكيد على أهمية الشيخ إلا إلى مجرد لفت النظر.

وهو ما فعله الشيخ زروق، وكفى نفسه مؤونه العهدة حين أخبر الناس به.

البحث عن الشيخ الصالح مهمة المريد:.

وإذا كان الشيخ ضرورة في منظومة التصوف كما علمت، فإنه ليس كل شيخ اتفق وإنما لابد للمريد أن يتحقق من الشيخ الذي يلقى إليه قياده، ويتوجه إليه بكليته.

فأنت إذا نظرت في واقع الناس اليوم وقبل اليوم، علمت أن الشيخ الذي ينبغي عليه أن يقود مريديه، لابد أن تتحقق فيه ثقة المريد؛ إذ الساحة ملآى بأدعياء المشيخة ومن يدّعون الريادة.

والشيخ الذي يجب أن يبحث المريد عنه هو هذا الشيخ الذي تحققت فيه هذه السمات:

أولها : أن يعرف الطريق كما يعرف نفسه.

وثانيها: أن يعرف أنواع السالكين الذين يقودهم حتى يعين كلاً منهم بأنسب وسائل السلوك له، ويدرك قدرته على تكملة الرحلة وبلوغ الغاية.

وثالثها: أن يعتمد على العلم والخبرة كليهما، إذ لا يكفي أن يعرف "خارطة" الطريق بل يلزمه خبرتها وعبورها بنفسه والتأكد من معالمها قبل قيادة غيره فيها.

المشيخة والريادة بين الصالح والطالح:.

والأمر أمام سالك الطريق في اختيار شيخه ليس أمرًا هينًا، وإنما هو بالغ الصعوبة يحتاج إلى كثير من التأني، كما يحتاج إلى كثير من بذل المجهود.

والذي جعل الأمر صعبًا إلى هذا الحد امام سالك الطريق يفسره الشيخ زروق بكثرة الأدعياء، واختلاط الحابل من المشايخ بالنابل كما يقولون.

والشيخ زروق يضع مشايخ الساحة أمام السالكين في ثلاث قوائم، على السالك أن يتأملها، وأن يفقه كل واحدة منها، وأن يجعلها بين يديه مقياس الشعرة

الدقيق وهو يختار شيخه على الطريق.

وأصناف المشايخ ثلاثة في كلام زروق:

١-**شيخ الصورة:** وهو من همه المظهر في الوجه واللباس، ولا نفع فيه ولا خير يأتي منه.

٢- **شيخ الطريقة:** ولابد له من العلم لمعاملة النفس، والعقل لمعاملة الخَلْق، والعمل لمعاملة الحق.

٣-**شيخ الحقيقة:** وهو لا يحتاج لشيء لأن صدقه يشمل كل شيء. وهو الشيخ بمعناه الحقيقي، وهو يعامل المحب بالقبول، والمنتسب بالرعاية، والمريد بالاهتمام، مؤديًا حقه بعد أداء حقوق الله ورسوله، (انظر عُدّة المريد الصادق – ص٤٥، ٤٦).

وأنت إذا تأملت كلام زروق في تصنيفه للمشايخ، علمت أنه قد منحك منهجًا للنظر فيمن تجدهم على الساحة ممن يقولون: إنهم قادرون على قيادة من يرغب في سلوك الطريق.

وهذا المنهج هو قياس من تراه يغم عليك حاله على قياس الظاهر أمامك من الناس، والذين لهم علاقة بالمهن الحسية.

فأنت تجد في طب الأبدان أطباء مهرة يقصدهم الناس ويثقون في علمهم وأدائهم.

وأنت تجد من بين من يطبون للأبدان أناسًا يدعون مهارة في هذه المهنة وهم لا يجيدون منها علمًا ولا عملاً.

وأنت تجد من بين من يطبون للأبدان أناسًا بين هؤلاء وهؤلاء.

والكيس من الناس هو الذي ينصرف عن أطباء الصورة، وهو الذي لا يذهب إلى أطباء الوسط إلا إذا رأى فيهم شروطًا قد تحققت فيهم، وأهلتهم إلى القيام بهذا العمل، فإن وجدها فيهم وإلا انصرف عنهم.

أما هذه الدرجة العليا التي تتوفر للمختصين في طب الأبدان علمًا وعملاً، فهي التي تحملنا على أن نقصدهم بغير سؤال، ونأخذ عنهم بغير تردد.

ولئن كان هذا أمرًا ظاهرًا فيمن يطببون للأبدان، فإن هذا الظهور يجعلنا نقيس عليه هؤلاء الذين يطببون للأرواح، والذين يعالجون النفوس والسلوك.

وهذا ما فعله الشيخ زروق حين لفت نظر سالكي الطريق إلى وجوب الاهتمام به.

وماذا لو لم يجد سالكو الطريق شيخًا: .

هذا وإنه لنيبغي أن نعلم أن شيخ التصوف والمرشد إلى الطريقة، لا يظهر في الناس إلا على ندرة، ولا يجدهم الناس إلا الواحد بعد الواحد، لأن الصادق منهم لا يجود الزمان بمثله إلا قليلاً، وأما الأدعياء فهم كثيرون، لكنهم غثاء كغثاء السيل، يضل من يتبعهم ويتنكب طريق الصدق من يُلقى بقياده إليهم.

وهنا يجد الراغب في سلوك الطريق نفسه أمام لونٍ من الإعضال، وهو أنه يبحث عن شيخ يهديه الطريق على مقياس الشيخ زروق فلا يجد، فتراه يسأل نفسه: ماذا عساي أن أفعل؟

في هذه الحال يجيب أهل التصوف ومنهم زروق أن مثل هذا الباحث عن الشيخ، والذي لم يجد له شيخًا، عليه أن يرجع إلى الأصلين يعتصم بهما، ويسترشد بفهوم الصادقين فيهما.

وهذان الأصلان هما الكتاب والسنة.

وأصحاب الفهوم الصادقة هم علماء الشريعة الربانيون، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا.

وكم من الناس، بل وجماهير الأمة حين اعتصموا بهذين الأصلين، منحهم الله نور الإيمان، وشرح صدورهم، ونحن نجد نماذج منهم على اتساع المكان وطول الزمان.

وعلى الأمة في كل عصر أن تستعصم بما في أيديها من هذين النورين: الذكر والسنة.

علاقة المريد بشيخه: .

والمريد إذا منحه الله عز وجل شيخًا يهديه الطريق، فعليه أن يكون مطيعًا لهذا

الشيخ، مستجيبًا لتعليماته.

ولكنه لا يطيعه طاعة عمياء، وإنما عليه أن يكون واعيًا، بل شديد الوعي بالكتاب والسنة وأصول الشريعة على العموم.

فإذا وجد الشيخ قد خالف الشريعة في أمر من الأمور لا يفقد الثقة فيه، ولا يتطرق إليه الشك لحادثة أو حادثتين، فلعله متأول، أو لعله يتابع مذهبًا من المذاهب ليس للمريد به عهد.

لكنه على أية حال لا يطيعه فيما وجده قد خالف الشريعة فيه.

أما **أولاً**: فلأن الشيخ مهما بلغ فإنه لم يرق إلى مرتبة النبوة بحيث يُمنح العصمة.

وأما **ثانيًا**: فلأن هناك أعمالاً خاصة تُلزم الخواص من الناس ولا يطيقها المبتدئون.

والشيخ زروق قد فصّل القول تفصيلاً في كثير من كتبه، وأجمله إجمالاً في قواعد التصوف الذي كتبه في أواخر حياته.

فتأمل هذا وذاك تستقيم الفكرة بين يديك، ويثبت الطريق بين قدميك.

العهد:

"بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه) (حديث نبوي شريف – أو كما قال رسول الله (ﷺ) – راجع أحمد زروق في عدة المريد الصادق ص ٤٦ وقارن نحو: الدارامي إمارة).

إن "العهد" في التصوف كلمة تساوي "العقد"؛ لأن "العهد" اتفاق بين المريد والشيخ على ما يجب على كل منهما تجاه الآخر.

وأصل "العهد" في الشريعة الإسلامية ظاهر في مواطن كثيرة.

ومنه ما عاهد النبي عليه أهل يثرب ليلة العقبة.

ومنه ما عاهد النبي عليه النساء.

ومنه ما أشار إليه القرآن على سبيل التمدُّح حين قال: "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة " [الفتح/١٨]. أو على سبيل التوجيه، على نحو ما قال الله عز وجل: "يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم" [الممتحنة/١٢].

إن البيعة والمبايعة هي نفسها "العهد" أو "المعاهدة"، وهي نفسها "العقد" أو "التعاقد"، على نحو ما قال الله عز وجل: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم" [التوبة].

"العهد" إذًا له أصله في الكتاب والسنة والتاريخ، وله أصله في جميع النظم الاجتماعية، والمعاملات الاقتصادية.

و"العهد" في مجال التصوف بين الشيخ والمريد له ضرورته وله حساسياته؛ فهو يأتي في المرحلة التالية لاختيار الشيخ، وهو الرابطة الأساسية التي تقوم عليها العلاقة بين الشيخ ومريده؛ وما ذلك إلا لأن الشيخ لا تتوفر له العصمة المانعة من خدش الارتباط في علاقة أنشئت بين الشيخ والمريد، فكان "العهد" ضرورة هو البديل، والمريد مع شيخه لابد له من أن يلتزم بأشياء شاقة يرتضيها سلوك الطريق، وربما لا تمنع الإرادة العادية صاحبها من الوقوع في المخالفات، فكان لابد من العهد توثيقًا للأواصر، وحملاً على الجادة، والتزامًا بما توجبه المسئولية.

و"للعهد" في مجال التصوف صوره وأنواعه .

فمنها: المصافحة – وأخذ السبحة – وليس الخرقة– وتلقين الذكر، وغيرها.

وزروق يختار من هذه الصيغ أسهلها وأبسطها متأسيًا في ذلك بتوجيهات القرآن وفعل النبي على نحو ما رأيت.

وبعد أن أورد زروق نموذجًا من بيعة رسول الله (ﷺ)، وهو ما أثبتناه لك قريبًا، علق على هذا النموذج: [إن هذه بيعة كانت بين النبي (ﷺ) وأصحابه بعد أن ثبّت الإيمان فيهم لتأكيد العهد في لزوم خصائل الإيمان، ويستخلص منه الإشارة إلى أن العصمة متعذرة، وأن التوبة معروضة، وأن الطاعة لا تكون إلا في المعروف.

وعلى كل حال، فإن العهد – كما يستفاد من وصف زروق لطريقة أخذه، مؤسس على ثلاثة، هي: التوبة ومتطلباتها، والاستغفار، والتقوى، وبعدها يصير المريد سالكًا، وينسب للطريقة بتلقينه الذكر، وهو ما يعني خطوة أخرى في الطريق]. (راجع زروق والزروقية ص ٢٦٢).

الذكر:

وحين يل الحديث معك إلى تناول الذكر عند الصوفية نكون قد وصلنا بك إلى منطقة شائكة ومهمة معًا.

أما أنها شائكة فلكثرة ما أحاط بها وسقط عليها من الغبارر وهو غبار أثاره الشانئون على التصوف بقصد أو بغير قصد.

والشانئون على التصوف حينما أثاروا التراب وأرادوا أن يرسوا به في وجه التصوف كان شنآنهم مدفوعًا بكثير من الغِل وعظيم من الجهل، فمن أدرك معنى الذكر وأهميته وجد أنه من اللوازم التي تلزمه ان يطأطأ المرء رأسه خجلاً من جهله وهيبة من أثر تقصيره مع ربه.

وأما أن يكون الذكر مهمًا فإن هذه دعوى يؤكدها الدليل ويعصف بالشك فيها شدة اليقين.

وأنت لا تستطيع أن تفهم أهمية الذكر في الإسلام عمومًا وفي التصوف على الخصوص إلا إذا تحققت من طبيعة الإنسان في داخله وإلا إذا فقهت جزءًا مهمًا من جوانب نفسه.

وهذا الجزء الذي يلزمك أن تفقهه وهذا الجانب الذي لابد أن تكون شديد الوعي به من جوانب النفس هو ما يسميه العلماء المحدثون باسم "الشعور".

والشعور عند المحدثين يتكون من محيط ومركز أو قل إن شئت إنه يتكون من هامش وبؤرة.

والمركز والبؤرة هما الجزء المهم في الشعور لأن ما يكون فيه من المعلومات يكون متصفًا بشدة اللمعان بقدر ما يتوفر له شدة السطوة وقوة السلطان بحيث يفرض على صاحب هذا الشعور قدرًا عظيمًا من الوعي بما في البؤرة أو المركز يختلف من إنسان لآخر بحسب درجة الاستعداد عند كل إنسان.

وفي هامش الشعور أو محيطه تكون مجموعة المعلومات المتراكمة التي تعرف عليها صاحبها وقضى منها أُرَبَةُ ثم أزاحها عن بؤرة الشعور إلى هامشه.

فإذا ما رغب في استدعائها أو استدعاء شيء منها نقله من الهامش إلى البؤرة فيسيطر على وعيه ويأخذ بتلابيب اهتمامه.

هذه هي طبيعة هذا الجانب من النفس كما يفهمها علماء النفس المحدثون.

والأمر لا يختلف عند القدماء إلا ما عسى أن يُطلقه هؤلاء وهؤلاء من الأسماء.

فقدماء العلماء يتحدثون عن هامش الشعور تحت اسم الذاكرة.

والذاكرة هي خزانة المعلومات يستدعيها صاحبها إلى مقدمة التفكير في لحظة إرادته لتعقلها أو الإخبار عنها.

وكبار علماء الصوفية يدركون هذا الجانب من النفس إدراكًا تامًا، وهم يدركون مع هذا قواعد منظومة التربية التي تقوم أولاً: على الإدراك وفهم الشيء الذي يقصد المربي أن يدربنا عليه ثم ثانيًا: محاولة المربي أن يضع الطالب في حالة من الانفعال بهذا المعنى يحمله على الرغبة في أن يطبع سلوكه به. وثالثًا: فإن المدبر يحاول مع الطالب أن ينقله من الفكرة إلى العمل ومن النظرية إلى التطبيق، ومن الرغبات والأشواق إلى تحقيق الآمال بالسلوك الرشيد.

هذا هو أساس الذكر عند الصوفية وهو أساس يجعل الذاكر غير منقطع عن أهدافه وينحى عنه الشعور بالغربة بين أقرانه وذويه ثم يلقي به في النهاية في حضرة ربه راضيًا عنه مطمئنًا لقلبه وفؤاده.

أنواع الذكر:

وإذا كنا قد تحدثنا معك عن أهمية الذكر فإنه من اللازم أن نوقفك على أنواع الذكر – أعني ميادينهُ التي ينبغي أن نعيها وأن نعمل من خلالها–.

ومن أهم ميادين الذكر: أن يتعرف الإنسان على أصله ونهايته ويستدعي هذه المعلومات من هامش الشعور إلي بؤرته وهو إن فعل ذلك علم أن أصله من عناصر الأرض أو قل: من تراب وماءٍ. ولو أنه قد تفكر في مصيره لعلم أنه عائد بالضرورة إلى تلك العناصر التي بدأ منها وهو فيما بين النشأة والنهاية – وإن كان الله قد ميزه بالعقل وكرمه بالمكانة التي منحها له إلا أنه ليس متميزًا فيما هو أقل من ذلك بين الكائنات فالأرض إذا زلزلت زلزالها أو صارت براكينها وجد نفسه يكاد يكون لا شيء أمام عنفوانها في الزلازل والبراكين.

وقل مثل ذلك في البحار بأمواجها ومياهها، وقد يلفتك رعود السماء وبروقها، ثم أنت بين ما يحيط بك من كائنات حية تجد أنها لولا أن الله قد سخرها لك لفعلت بك الأعاجيب.

ورجال التصوف في هذا المجال يطلبون من المريد الذكر من هذا النوع ليقف الإنسان على حقيقة أمره فينحي عنه الشعور بالكبرياء وما يتملكه من الإحساس بالغرور.

وهناك نوع آخر من الذكر وهو استدعاء كما علمت للأشياء من هامش الشعور إلى بؤرته ومن محيطه إلى مركزه وهذا النوع من الذكر الذي نحن بصدده الآن هو هذه العبادات التي احتوتها الشريعة الإسلامية كالصلاة والحج والصيام وغير ذلك؛ إذ إنك ترى الغافل من الناس ينصرف من هذه العبادات لا يذكرها وهي عنده في هامش الشعور قد أهال عليها التراب.

وأول ما يفكر فيه رجال التصوف مع المريدين أن يفرضوا عليه هذا النوع من الذكر – أعني– تعهد العبادات التي فرضها الله عليه والتي تضمنتها جوانب الشريعة.

ومن أنواع الذكر كذلك أن يعلم الإنسان علم اليقين أن له ربًّا هو صاحب

الإيجاد، والإمداد، الاستعداد؛ فهو الخالق من العدم وهو المهيئ للأرزاق وهو الذي يمنحنا القدرة والاستعداد على الاستفادة من هذه الأرزاق.

وهذا الشعور بهذا الإله والاعتقاد به وبصفاته إنما هو شعور فطري لكن الذي يحدث أننا نذهب بهذا النوع من الإدراك إلى هامش الشعور فنقارف المعاصي ونجانف الآثام على غير رادع لأنه قد غاب عن الوعي.

والسادة الصوفية يكون من مبلغ همهم مع المريدين أن يحملوهم على أن يرفعوا من وعيهم بالتوحيد واستحضار عظمة الله بنقلها من هامش الشعور إلى بؤرته. وذلك لا يكون إلا بذكر الله بأسمائه الحسنى أو بقراءة القرآن الذي هو كلامه أو بالتدبر والتأمل في كونه.

ويظل كبار السادة الصوفية مع مريديهم يدربونهم على نقل معتقدهم في الله من هامش الشعور إلى بؤرته حتى يصل الواحد منهم مع مريده إلى أن يجعل حضور اعتقاده في ربه ومراعاة هيبته له مستقرًا في بؤرة الشعور لا ينتقل منها إلى هامشه حينئذ يجوز للشيخ أن يقول لمريده ها أنت الآن مع ربك، وقد انتهت مهمتي.

كيفية الذكر:.

وللذكر عند الصوفية كيفيات ووسائل:

الذكر بالقرآن – وبالأسماء – وبالشهادتين – وبالصلاة على النبي (ﷺ) – وبالورد.

الذكر بالقرآن.

يقول الله تعالى: "**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون" [الأنفال / ٢].**

ويقول: "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب" [الرعد]

وينتهي زروق في تفسيره للآية الأولى إلى أنه من الجلي أن قراءة القرآن – في حد ذاتها– تزيد من إيمان المؤمنين، وهذه ثمرة طيبة في نفسها وواضح من الآية الثانية أن الطمأنينة أي السكينة والسلام، تنبثق من الإيمان نتيجة قراءة القرآن.

والله يقول: "ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون".

وهذا – كما يفسره الشيخ – يدل على أن قراءة القرآن مطلوبة لذاتها بالإضافة إلى أنها تؤدي إلى خوف الله، وهو ما يعادل "القبض" في المصطلح الصوفي، ثم إلى الطمأنينة والرجاء، وهو ما يساوي "البسط" وما حال الصوفي إلا التأرجح بين هذين الحالين في كل آن

٢- الذكر بالأسماء: .

أول شرط للذكر بالأسماء معرفة معنى الاسم وإدراك مغزاه والتمعن فيه. ثم يأتي من بعد ذلك اختيار الاسم المناسب ليذكر بالطريقة الصحيحة المناسبة.

"ثم إذا أردت السلوك باسم " – يقول زروق – " فحقق طبعك وحالك، ثم انظر من الأسماء ما يناسبه معنى. فإذا كان الغالب عليك الجلال والقبض فخذ من الأسماء الجلالية واذكرها بالتحزين على حالة زهدية بخلوة وانجماع. وإن كان الغالب عليك الجمال فخذ من الأسماء الجمالية: واذكرها بالتطريب في موضع زهو على حالة زهوة بخلوة مناسبة، وإن كان الغالب عليك الكمال فخذ من الأسماء الكمالية ما يناسب حالك واذكره باعتدال في الصوت وعلى حالة اعتدال دون تقشف ولا ترفه ولا تطريب ولا تحزين.

والانجماع لازم في هذا النوع من الذكر وكذلك ذكر الأسماء بتأن واعتدال دون عجلة ولا إبطاء مخل مفرغاً القلب من جميع الشواغل والهدف هو السماح لمعنى الاسم أن ينفذ إلى القلب بالكلية وينبث فيه ثم ينطبع فيه انطباعًا، وهذا هو طريق الطبع (الطبيعة) لأن من يسير إلى الله بطبعه أقرب أن يصله ممن يتطلع إليه بمخالفة طبعه.

٣- الذكر بالشهادتين: .

يميل كثير من الناس إلى الذكر بالشهادتين، وهو أفضل طرق الذكر لكن

بعضهم يجنح إلى ذكر الشهادة الأولى "لا إله إلا الله" ويهمل الثانية "محمد رسول الله". وهذا خطأ فاحش؛ لأنه ما دامت الشهادة الأولى تمحق كل شك في الربوبية فإن الثانية تلغي كل شك فيما يتعلق بـ "الرسولية". والإسلام لا يقبل الفصل بين الشهادتين. فأولى أن لا يقبل في ما انبثق عن الإسلام، أي التصوف والذكر. وكما أن العقيدة لا تصح إلا بالشهادتين معًا فإن الفتح لا يأتي دونهما معًا، ذلك لأن النبي ليس مبشرًا ونذيرًا فحسب، بل هو شاهد علينا كذلك. وذكر الشهادتين كلتيهما هو أقصى العبودية، وهو ما يعادل السجود لآدم (عليه السلام)... أعني أن من يسجد (يذكر الشهادة الثانية هو كالملائكة في طاعته، ومن يمتنع يكون كإبليس في عصيانه.

٤- الذكر بالصلاة على النبي (ﷺ):.

هذا النوع من الذكر مرغوب للغاية لأن الله سبحانه أمرنا به حين قال: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا ". فإذا كان الله ذاته يصلي على نبيه، فكيف نجرؤ نحن على مخالفة أمره؟ والرسول الكريم نفسه يوصي بالصلاة عليه طريقًا إلى الجزاء الأوفى فهو يقول: "من صلى على صلاة صلى الله وملائكته عليه عشرًا " وهل ثمة جزاء أوفى من نيل صلاة الله علينا إذا ما صلينا على نبيه؟.

٥- الذكر بالورد:

كل صور الذكر السابقة يمكن جمعهما وتوحيدها في صورة واحدة على السالك أن يحفظها عن ظهر قلب ويرددها في صلواته وخلواته وهي "الحزب" أو "الورد" وينبغي على كل سالك أن يكون له ورد مؤلف من أدعية وصلوات وابتهالات غرضها كما يقول زروق: تعوذًا من الشر وطلبًا للخير واستفتاحًا للمعارف وحصولاً للعلم مع جمع القلب على الله سبحانه... إشغالاً للباطلين وإعانة للمريدين وتقوية للمحبين وحرمة للمنتسبين وترقية لهمم المتوجهين من العباد والزهاد وأهل الطاعة والسداد وفتحًا للباب حتى يدخله عوام المؤمنين.

ويفضل أن يكون للورد وقت محدد يتلى فيه حتى يصبح عادة للسالك تعلمه

النظام وضبط أمور حياته، وأي وقت مناسب للذكر لأنه ليس ثمة بالنسبة لله ليل ولا نهار، كما ينبغي أن يكون الورد على أبسط الصنيع وأسهلها بعيدًا عن المغمضات والعبارات الموحية المزدوجة المعنى، معتمدًا في – أساسه– على الكتاب العزيز ودعاء ال نبي الموثوق بصحة نسبته إليه.

* * *

من طبائع الاجتماع:.

إن للشيخ زروق نظراته الثاقبة في المجتمع وطبيعة الاجتماع البشري والنظم المرتبطة بهذا الاجتماع، وما ذلك إلا لأن الشيخ قد تعددت زوايا ثقافته حين أخذ من كل علم بطرف، وهو في ذلك يقلد كبار المتصوفة يشرب من مشاربهم، وينتهج مناهجهم، من نحو: الإمام الغزالي وغيره.

ومما التفت إليه الشيخ زروق استيعابه لطبائع الاجتماع.

ومن أول طبائع الاجتماع أن الناس في كل زمان لا يكونون على قلب رجل واحد، ولا ينتهجون منهجًا يرضونه جميعًا ويتبعونه بغير خلاف.

وهى نظرة تؤكدها نصوص الشريعة، فالله عز وجل لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه قد تركهم على طبيعة الاجتماع منذ بدء خلق الإنسان إلى أن تقوم الساعة؛ فهم لذلك لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم.

وزروق فيما التفت إليه ليس بدعًا من الرجال، وليست أفكاره متوحدة في النظم.

فنحن نراه يقول في حزم حازم في مطلع كتابه "عُدّة المريد الصادق" بعد افتتاحية الكتاب مباشرة: [أما قبل ومع وبعد: فإن في كل واد بنى سعد، من اطمأن إليهم أتلفوه، ومن تعلق بهم كشفوه، ومن استغاث بهم أوقفوه، أعني الذين اتخذوا الجهل مهادًا، والبدعة وسادًا، والهوى عمادًا، وادعوا أن ذلك هو الدين القويم والصراط المستقيم، فرفضوا السنة والجماعة، ووصفوا المعصية بوصف الطاعة، وتركوا السنة وأسبابها، وآثروا البدعة وفتحوا أبوابها، فكانوا دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها].

ونحن عندما نتأمل في هذا النص يظهر لنا بادي الرؤية أن الشيخ يقول: بأن في كل مجتمع منذ بدء الخليقة طريقتان: تعبر إحداهما عن الباطل وترسيٍّ قواعده، وتضم من البشر جماعة انحرف بها هواها وتعشقت أن تضم إليها أشباهها

ونظائرها، فتنتهي بها مشاعرها ومسالكها إلى غاية من الضلال والإضلال، ليس لها من جزاء إلا عذابُ جهنم. أما الطريقة الثانية، فهى هذه الطريقة التي تضم من المناهج أصفاها، ومن التوجهات أنقاها، ومن البشر أناسًا قد صفت قلوبهم، وارتفعت مقاصدهم، ورغبوا في أن يضموا إليهم من الناس أمثالهم ونظائرهم، لتنتهي بهم جميعًا الأُخوة الصادقة إلى جنات ونعيم يكونون فيها على سرر متقابلين.

والشيخ يرمز إلى الطريقة الأولى وأتباعها ببني سعد، وهو رمز مهما كان فيه من الغموض؛ فإن ما ذكره من أوصاف بعده قد أزاح عنه هذا الغموض.

واللقب الذي اختاره الشيخ زروق للفرقة الأولى، هو أنه قد أطلق عليهم اسم: المبتدعة، وهو لقبٌ قد عُرفوا به قبل وبعد الشيخ زروق، كما عُرفت طريقتهم بالابتداع في النظم والديانات عامة، وفي الدين الإسلامي على وجه الخصوص.

أما الطريقة الثانية: فهى هذه الطريقة التي لم يرمز لها الشيخ برمز، وإنما ذكرها بلقبها وأوصافها المحببة إلى كل فؤاد، والتي تنزل بردًا وسلامًا على كل قلب؛ فهى طريقة أهل السنة والجماعة، ولقبها المحبب إلى القلوب هو: السنة المقابلة للبدعة.

والناس لا يفهمون من السنة إلا أنها طريقة رسول الله ﷺ، ونظام حياته الذي أخضعه للشرع يدور معه حيث يدور.

وفيما أوردناه من كلام قاله الشيخ زروق يتبين لنا مباشرة: أن أهل الزيغ والابتداع إنما يعدون شُذُوذًا في المجتمع، وأقلية في النظم مهما كثر عددهم، كما يتبين لنا أن أهل السنة والجماعة هم الأكثر عددًا، وطريقتهم هى الأكثر تابعًا؛ فهم أهل السنة والجماعة حتى ولوا انحصرت طريقتهم في شخصٍ واحد يكون على رأس جبل.

أصل هذا التقسيم في نصوص الشريعة:

والشيخ زروق يرى أنه لم يبتدع شيئًا مما ذكره، لا في الألقاب التي خلعها عى الفرقتين كل بما يناسبه، ولا في الصفات التي ذكرها ملحقة بكل جماعة، ففي نصوص الشريعة من خلال مصادرها دلالة على كل ما ذكره، وهو ما أورد بعضه

الشيخ زروق في وضوح واضح حيث قال: [أخبر رسول الله ﷺ، فيما خرجه البخاري عن حذيفة بن اليمان ﵁. قال: " كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاء الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام، قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك "].

والحديث قد ورد في أكثر من كتاب من كتب السنة، وفيه بسط واختصار؛ فهو عند البخاري في كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذ لم تكن جماعة ٩٣/٩، وهو في مسلم ١٤٧٥/٣ ح رقم ١٨٤٧، وأبي داود بنحوه ٢٥١/٣، وابن ماجه باختصار رقم ٣٩٧٩، ٣٩٨١، والحاكم في المستدرك ١١٣/١.

والدخن في الحديث، قيل هو: الحقد، وقيل: الدغل، وقيل: فساد في القلب، ومعنى الثلاثة متقارب، فتح الباري.

ومن الأحاديث التي أوردها في هذا المقام الشيخ زروق، قوله ﷺ على نحو ما ورد في النسائي من طريق جابر، وأصله في مسلم.

وهو في البخاري في كتاب الاعتصام باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وأورده أبو داود وغيرهم. حيث جاء في خطبته: [.. " **إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وصاحبها في النار**"].

ثم ينقل زروق من النصوص النبوية ذات الصلة فيقول: [وقال (عليه الصلاة والسلام): " **ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهى الجماعة** " أى السنة لقوله في الرواية الأخرى: " **ما أنا عليه وأصحابي**"].

ومن الأحاديث الواردة في هذا المقام ورصدها الشيخ زروق قوله ﷺ: ["**يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**"] – ولا يكون ذلك إلا بالتبصر في الدين.

ولهذه الأحاديث أصلها في نصوص القرآن الكريم كما يرى الشيخ زروق، وكما هو واقع الحال.

ففيه قوله تعالى: [يوسف/١٠٨] " **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**" (**وسبيله: سنته**).

وفيه: [النحل/١٢٥] " **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**". (**وسبيل الله: شريعته وطريقته التي ارتضاها لعباده**).

وفيه: [الأنعام: ١٥٣] " **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** " (**وصراط الله: طريق هدايته لخلقه**).

أقوال الأئمة والصالحين في بيان طريقة أهل السنة والجماعة:

ولم يشأ الشيخ زروق أن يترك هذا المجال قبل أن يضم لشهادته وشهادة نصوص الشريعة شهادة أخرى، انتدب لها عددًا من صالحي هذه الأمة مركزًا على هذه الطائفة التي تنتهج إلى هدايتها منهج البصيرة.

ومن هؤلاء: الإمام الجنيد شيخ الطائفة، وقد أثر عنه أنه قال: [والصراط المستقيم" هو طريق محمد ﷺ، وقال أيضًا: "الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، وقال أيضًا: "علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه "].

ومنهم سهل بن عبد الله التستري ؤ حيث قال: [" بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله، وسنة رسوله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق"] (وأنت لو فصلت فيما ذكر عن التستري لوجدتها سبع، بالفصل بين: اجتناب الآثام، والتوبة، فتأمل).

ومنهم أبو عثمان الحيري ؤ حيث قال: [" من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ".

قال زروق: وهو أن يأتي بأمر لا وجه له ولا دليل عليه من أصل الشريعة كان خيرًا أو غيره؛ ثم قال الله تعالى: " وإن تطيعوه تهتدوا "].

ومنهم أبو العباس بن عطاء ۏ حيث قال: ["من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من متابعة الرسول ﷺ في أوامره وأفعاله وأحواله "].

ومنهم أبو حمزة البغدادي ۏ القائل: [" من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله "].

ومنهم أبو القاسم النصربادي ۏ قال: [" أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع، وتعظيم حرمات المشايخ، ورؤية أعذار الخلائق، والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات"].

جماع القول فيما ذكر:

وجماع القول فيما ذكر يساعد على الفهم واستيعاب الموقف.

والشيخ زروق يجمع ذلك في النظر في الزمان وأهله، وأن الزمان صعب، وما يحتويه من السلوك ملتبس، وأهل الزمان أكثرهم على غير الاستقامة، وأقلهم يسلكون طريق الخير يقصدون الوصول إلى الله لنوال رضوانه، وبين الفريقين أناس هم أرباب البدع يلبسون الحق بالباطل أحيانًا، ويخفون الحق ويظهرون الباطل أحيانًا أخرى، والناس في أمر هذه الطائفة يتحيرون وأغلب النفوس نفوسٌ تتعلق بالهوى، وتجنح إلى الباطل، مع أن الحق أبلج، ومع أن الباطل لجلج.

وعبارة الشيخ واضحة في الدلالة على كل ذلك.

فهو القائل: [قلت: هذه هي الأصول التي من ضيعها حُرِم الوصول، وأكثر أهل الزمان على ذلك إلا من عصم الله سبحانه، وقليل ما هم. وقد قال رسول الله ﷺ: " إن مما في صحف إبراهيم عليه السلام، وعلى العاقل أن يكون عارفًا بزمانه مقبلاً على شأنه، ممسكًا للسانه " الحديث.

فمعرفة الزمان وأهله صعب، والكلام فيه متسع رحب، وفيه من الآفات

الدنيوية ما نسأل الله السلامة منه، ومن تحريك الآثار النفسانية ما نرغب إلـى الله الخلو عنه، لا سيما ما يشتبه فيه الحق بالباطل ويظهر المتجلي به كالعاطـل، فـإن النفوس تسرع لإنكاره، ولا يصح من المشفق على نفسه وجود إظهاره، لما يحـرك من عقارب التعصب والإذاية، وما يوجب من اشتداد ظلمة الغواية، لكن الحق أبلج، والباطل لجلج، والدين النصيحة والسكوت في الحق فضيحة].

مقاومة الفساد بصالح الاستعداد: .

ثم ينتقل الشيخ بعد هذا الإجمال إلى ما ينبغي عمله لمقاومة الفـساد والبـدع، سواء كان هذا في مجال التصوف خاصة، أو كان في مجال عمل الـشريعة علـى العموم.

قال: [فوجب أن نأتي من ذلك بما هو الأهم لشيوعه في الوقت، حمايـة لمـن وقف عليه من أسباب البعد والمقت، فنذكر أمورًا يدعي أهلها أنهم علـى طريـق السادة الصوفية، ويرون أنهم في ذلك على حالة سَنية وسُنية، من غير دليل واضح قاطع، ولا نور ظاهر ساطع، ويدعون إلى ذلك بحسب إمكانهم، ويمنعون عما سواه كافة إخوانهم، ويقولون أن قبولهم لذلك من قوة إيمانهم، وتحقق إحسانهم، وأن ذلـك هو عين الحقيقة ومنهاج سلوك السبيل والطريقة، وإنما هى طريقة معوجة وأمـور ملتبسة مروجة، يغتر بها الجاهل فيتبع، ويحتج بها المتعصب فيضل ويبتدع.

أعاذنا الله مما ابتلاهم به وسلك بنا طريق الحق بفضله، وإنما يظهر الحق في ذلك بالتبصر، ويزول اللبس فيه ويذهب التستر].

* * *

البدعة آفة السلوك والعلوم

بين يدي المسألة:.

إننا وإن غيرنا من أصحاب العقول والفهوم فضلاً عن غيرنا ممن لا يهتمون بالعلوم العقلية والسلوكية، والعلوم المتصلة بالديانات.

إننا وغايرنا من أصحاب الفهوم تقرع أذاننا كلمة – البدع- وتلامس شغاف قلوبنا فتأخذ منا بالأبصار والألباب إلى مجالات مترامية الأطراف، أقلها قيمة هذا المجال الذي يحكمه (خطأ) أن البدعة باعتبار أنها تعبر عن كل جديد مستحدث على غير مثالٍ سابق تعدُّ في الدين جريمة يعاقب عليها الشارع من ابتدعوها، ومن استعملوها على السواء.

إن – البدعة- كلمة لو اتصلت بمعناها ودلت عليه تحيرت معها الألباب حين نريد أن نحكم على مبتدعيها في مجال السلوك، وفي مجال الاعتقادات، وفي مجال الشرائع.

فمن الناس من يرون أن – البدعة – حرام وإثمٌ يُفرق من يتلبس به في دياجير الظلام، خاصة إن معناها اللغوي شامل لكل مستحدث، وإن أصلها الشرعي في حديث رسول الله ﷺ: "إن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار".

ونحن حين نتأمل في هذا الكلام قليلاً أو كثيرًا نجد المسلمين جميعًا على خطرٍ عظيم؛ فما من مسلم في الكون المعمور إلا وهو واجدٌ نفسَه وقد أحيطت بها البدع، واستُغرقتها هذه المحدثات. فطراز بناء بيته الذي يسكن فيه بدعة، وأثاث هذا البيت الذي يحتويه بدعة، وفراشه الذي ينام عليه بدعة، ومناهج سلوكه في كل عمل يسلكه إلى بلوغ ما يشتهي من غايات كلها غارقة في بحار الظلمات لا تبشر بنجاة، ولا تمهد إلى الخلاص منها.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، علمنا أن المسلمين دون غيرهم من العالمين في الدنيا دعاة على أبواب جهنم، وفي الآخرة يكون مستقرهم هو أصل الجحيم.

وهذا الحكم وذلك المصير ليسا بقاصرين على مسلمي هذا الزمان فحسب،

وإنما هو حكم في مصير يشملان المسلمين في الحاضر وفي المستقبل وفي غابر الأزمان، لا لشيء إلا لأنه التغيير إنما هو سنة الاجتماع، وطريقة كل جماعة لا يُستَثنى منها واحدة في زمانها، ولا في مكانها مهما كانت قداسة الزمان، ومهما كانت قداسة المكان.

ويصدق هذا الحكم على جماعة المسلمين في عصر المبعث، حين كان النبي بين ظهرانيهم وما بعده من خيار القرون.

ومن العجب العاجب أنك ترى النبي ﷺ – وهو المسئول عن بلاغ التشريع وتطبيعه – كان يرى طوارئ الأحداث تطرأ على جماعته فيقر منها ويرفض، فلا يقرها على إطلاقها، ولا يرفضها بغير استثناء، بل إني أقول في غير تردد أن النبي ﷺ كان قد نظر في بعض محدثات الأمور في الجاهلية الأولى فوجدها تُنْزَع من خير الطباع وتهدف إلى ترسيخ أفضل السجايا، وكان يقرها على أساسٍ إيماني، وعلى فقه شرعي، كانا غائبين عنها في الجاهلية.

فعل النبي ذلك كله واتخذ منه طريقة له سجلتها كتب السيرة كما سجلتها كتب السنة.

وفعله هذا الذي فعله وتعامله مع المحدثات على هذا النحو، قد حمل علماء الأمة على أن يتخذوا لهم عدة مواقف فكرية.

أولها: أن الكلية في أحاديث النبي ذات الصلة من نحو: " كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار" كلية نسبية لا يجوز التعامل معها على إطلاقها.

وثانيها: أن ما فعله النبي يصلح لكي تُنْتَزَع منه هذه القاعدة وتؤسس عليه، وهي: أن الأصل في الأشياء الإباحة-.

وثالثها: ما التفت إليه الإمام أبو حنيفة ومن تبعه في ذلك من القول: بأن العرف مصدر من مصادر التشريع بشروط وضوابط تُذكر في أماكنها.

ورابعها: أن النظر في لفظة – البدعة – إذا أُريد تأسيس الأحكام عليها حين ترتبط بمدلولها لابد أن يكون هذا النظر مقيدًا بالمعنى الشرعي أو الاصطلاحي

الذي ضاق مجاله بحيث صلح لاستقبال الحكم، وصرفنا عن النظر معنى – البدعة – وارتباطها بمدلولها على نحو ما وضعها الواضع اللغوي؛ إذ النظر بهذا الاعتبار الأخير يجعل لهذه الدلالة فجاجًا ووهادًا تتسع على الحكم المُعَبِر عن إرادة الشارع وهو يكلف عباده بما يريد.

وهذه النظرات العلمية، والفهوم الموضوعية قد فرضت على المصلحين في مجال الدين، والذين حملوا على عاتقهم مسئولية محاربة البدعة الشرعية، أن يصدِّروا أبحاثَهم المتصلة بهذا الموضوع بما يحدد لهم المناط، ويحرر بين يديهم الموضوع.

ومنهم: الشيخ أحمد زروق على ما سوف نسطره بين يديك.

البدعة: الحقيقة والدلالة: .

وأول ما ينبغي أن نباشره من الحديث هو أن نتحدث عن لفظ – البدعة – ونحدد دلالتها على المقصود منها حين يستعملها الباحث، أو حين يلفظ بها المتكلم.

البدعة والدلالة الوضعية: .

هذا وإن المنطق يفرض علينا أن نبدأ بالدلالة الوضعية لكلمة – البدعة – لا لشيء إلا لأن هذه الدلالة الوضعية تعد أقدم تاريخًا وأوسع دائرة.

ونحن سنحاول أن نعفي أنفسنا من تحمل عناء النقل من المعاجم؛ لأن نقل الشيء من المعاجم على ما هو عليه يتعارض مع طبيعة الألفاظ اللغوية، بوصفها كائنًا اجتماعيًا حيًّا ينمو بين يدي الجماعة، ويتقلب بين أفرادها وأحداثها من طور إلى طور، في نفس الوقت الذي وقفت فيه المعاجم اللغوية عند أول طور من أُطوار اللغة العربية، لم تتزحزح عنه إلا في حالات استثنائية لا تغني في جميع الأحوال حين يُطلب إليها أن تلبي مطالب ورغبات الباحثين.

هذا بالإضافة إلى عيوب أخرى كان من الواجب على أبناء العربية أن يتلافوها وهم يتعاملون مع المعاجم.

لهذه الأسباب ما ذكرناه منها وما لم نذكره، أراني ضرورًا عن هذا الأسلوب الذي اتبعه الكثير، والذي يعتمد على نقل عبارات المعاجم على وجهها لا يغيرون

منها شيئًا مهما كان في التغيير من مساعدة للفهوم، ومن معونة للإدراك.

غير أننا لن نزهد في عبارات المعاجم غاية الزهد، لأنها من أهم مصادرنا لمعرفة المعاني الوضعية التي ارتبطت بها الألفاظ، حين تطلق للدلالة عليها على نحو ما ربط بينها الواضع اللغوي.

والبديل الأفضل والمتاح هو أن نتعامل مع كل لفظ يرتبط بمعناه على أساسٍ من كشف هذه الأصول التي انطلق منها اللفظ والمعنى حين ارتبط اللفظ بمعناه أول مرة.

وإذا انضح المسار على هذا النحو فإنا نقول: إن المعنى الذي ارتبطت به لفظة – البدعة – قد ارتبط بأصلين لا ثالث لهما.

وأول هذين الأصلين: هذا المعنى الذي دلت عليه كلمة – البدعة – وهو متصف بأوصاف لا يتحدد ارتباطه بالبدعة إلا إذا توفرت له.

وأول هذه الأوصاف: الحداثة – التي تجافي القِدَم، وتقابل انتفاء الأولية.

فأنت تقول: هذا الشيء حادث أو محدث، وتقصد به أنه – ما له أول وبداية يسبقها عدم – وعلى ذلك نفهم قوله تعالى يصف نفسه: "بديع السموات والأرض" بمعنى أنه قد أنشأهما من العدم.

وثاني هذه الأوصاف: أن هذا المعنى الذي ترتبط به لفظة – البدعة – أن هذه اللفظة لا تطلق على هذا المعنى إلا إذا برئ من الشبيه والنظير، يكون كلاهما أو واحد منهما قد تقدم عليه ثم صيغ هو على مثاله.

وجماع الوصفين معًا أن نقول: إن – البدعة – لا تُطلق إلا على كل محدثٍ أحدثه فاعله على غير مثال سبق.

وهذا الأصل على نحو ما شرحته لك قد ظهر كثيرًا في استعمالات القرآن، وفي حديث النبي ﷺ، وفي أقوال العرب شعرًا ونثرًا مما لا نطيل بذكره.

وبعض كُتاب المعاجم يلتفتون إلى هذا الأصل بما يخدم الكُتاب والباحثين.

نقل د/ سيف بن علي العصري عن بعض المعاجم بتصرفٍ قال في كتابه (البدعة الإضافية): [البدعة على وزن "فعلة" وهى اسم هيئة، مصدر يدل على هيئة

الفعل حين وقوعه.

والباء والدال والعين في اللغة – كما يقول الإمام ابن فارس – أصلان: **أحدهما:** ابتداء الشيء وضعه لا عن مثال، والآخر الانقطاع والكلال.

(**فالأول:** قولهم أبدعت الشيء قولاً أو فعلاً، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال، والله بديع السموات والأرض، والعرب تقول: ابتدع فلان الركي، إذا استنبطه، وفلانٌ بدعٌ في هذا الأمر، قال الله تعالى: " **ما كنت بدعًا من الرسل**" [الأحقاف /٩]، أى: ما كنت أول].

وثاني هذين الأصلين: الذي دلت عليهما كلمة – البدعة – في وضعها الأول واستند إليه مدلول اللفظ، هو هذا الكلل والتعب والملل؛ فالدابة قد أُبدِعَت إذا كلت وعطبت، والرجل أُبدع ركابه انقطع به فكل وتحير.

وهذا **الأصل الثاني** وإن كان الاعتماد عليه في الاستعمال غير مشهور، إلا أن عدم شهرته لا تعني انعدامه، ونحن لا نعدم الإشارة إليه على ألسنة العلماء؛ ففي هذا المصدر الذي أشرنا إليه قريبًا جاءت هذه العبارات التي تفرد الأصل الثاني بحديث، ثم تثنى بالإشارة إلى الأصل الأول من باب رد آخر الكلام على أوله.

قال: [" والأصل الآخر: قولهم أُبدِعَت الراحلة إذا كلت وعطبت، وأُبدِعَ بالرجل إذا كلت ركابه أو عطبت وبقي منقطعًا به).

وقال الرازي: (أبدع الشيء اخترعه لا على مثال، والله بديع السماوت والأرض أى مبدعهما).

وقال الإمام الزركشي: (البدعة: قال ابن درستويه: هى في اللغة إحداث سنة لم تكن، وتكون في الخير والشر).

وقد اتفقت كتب اللغة على تعريف البدعة بأنها: إحداث الشيء على غير مثال سابق].

البدعة والدلالة الاصطلاحية وموقف زروق منها:.

هذا هو المعنى اللغوي على نحو ما سطرناه بين يديك.

ونحن لا نجد عالمًا من العلماء يوثق بعلمه ويتحمل مسئولية كلمته يحرم

البدعة بدلالتها الوضعية على إطلاق الدلالة، كما أننا لا نجد عاقلاً من العقلاء لديه مِسْكَةٌ من عقل أيًا كانت درجة الفهم لديه يعمم القول بالمنع والتحريم ليشمل ممارسة الإنسان لكل حادث.

نحن ندرك هذا ونعلمه كما أدركه الشيخ زروق ومن مشاكله، وكان نظيرًا له في رأيه.

هذا أمرٌ قد فُرِغ منه لا يحتاج ولا حتى إلى لفت النظر، لكنّ البدعة بما تدل عليه من دلالة شرعية أو اصطلاحية تأخذ بتلابيبنا أو بتلابيب كل باحث إلى فهم الدلالة الشرعية والاصطلاحية على وجهها، وفهم ما يرتبط بها من أحكام.

فـ [البدعة بمعناها الاصطلاحي الشرعي، ضلالة يجب الابتعاد عنها، وينبغي التحذير من الوقوع فيها، ما في ذلك ريب ولا خلاف.

وأصل ذلك قول رسول الله ﷺ فيما اتفق عليه الشيخان:

"من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد". وقوله فيما رواه مسلم: "إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة"].

فما هو هذا المعنى الشرعي للبدعة، أو قل: ما هو هذا المعنى الاصطلاحي الذي تدل عليه كلمة – بدعة أو ابتداع – والذي ارتبطت به أحكام الشريعة؟

بين يدينا [تعريفات كثيرة للبدعة، كلها يدور في فلك معنى اصطلاحي واحد، وإن تخالفت من حيث الصيغة والأسلوب، ولكني أختار منها تعريفين عرف بهما الإمام الشاطبي في كتابه "الاعتصام" وذلك لسببين: **أحدهما:** أن الشاطبي يعد في مقدمة من خدم هذا البحث وتناوله بالشرح والتحليل من جوانبه، **وثانيهما:** أنه يعد من أكثر العلماء المتقدمين محاربة للبدعة وتشددًا في الابتعاد عنها.

التعريف الأول: أنها " طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله عز وجل".

والتعريف الثاني: أنها "طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة، يُقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية "].

وأنت تتأمل في هذين التعريفين أول الأمر وآخره فيظهر لك فرق مهم، وترجع أهميته إلى أنه قد وجد كثرة من العلماء اهتمت به، وجعلته موضع نظرها.

وهذا الفرق بين التعريفين، هو أن **الأول** منهما قد ضاق صدره بالعادات فلم يتسع لها، ولم يفتح لها بابًا تدخل منه وتستقر تحت مظلته لتكون ضمن ما صدقاته.

والثاني من هذين التعريفين قد اتسع صدره وانشرح لقبول العادات الدنيوية المستحدثة، طالما ينطبق عليها- أنها طريقة مخترعة يمكن سلوكها والسير عليها-.

والفرق بين التعريفين يحدده قصد المبتدع أو المخترع لتلك الطريقة الجديدة؛ فإن كان المبتدع أو المخترع لهذه الطريقة الجديدة التي اخترعها على غير مثال سبق، قد قصد من هذه الطريقة ومن السلوك عليها الكمال في العبادة، والزيادة في القربى إلى الله تعالى، ونشدان مرضاته، كانت هذه الطريقة طاردة للعادات، مقتصرة على العبادات فقط، ويبقى لسلوك الطرق التي لا يُقصد بها الزيادة في العبادة والقربى أحكام أخرى من غير أن تُسمى بدعة؛ فهي إن كان لها ما يؤيدها من أدلة الشرع أو مقاصد الشريعة، فهي سنة حسنة، وإن لم يكن لها ذلك بل كانت معارضة لدليل شرعي أو مقصد من مقاصد الشريعة، كانت سنة سيئة. وكان الفعل عليها معصية، يأخذ محكمه اللائق به من درجة البعد أو القرب من تكليفات الشارع.

وأما التعريف الثاني من تعريفي الشاطبي، فهو تعريف منبسط الجناح، واسع الصدر، منشرح الفؤاد، وترجع هذه الخواص في هذا التعريف الثاني لقصد السالك على الطريقة المبتدعة، أو السنة المخترعة، فالسالك هذه المرة للطريقة التي ابتدعها لا يقصد زيادة في طاعة، ولا يطمع في رقيٍّ أو قربى، وإنما هو فقط ملتزم بالسير على هذه الطريقة، كما يلتزم بالسير على الطريقة الدينية، والسنة النبوية.

ونحن إذا نظرنا في هذا الالتزام وفي موضوعه من السلوك نرى السالك يصلح معه أن تُفسر نيته القابعة خلف سلوكه بتفسيرين، يصلحان للفهم على التوالي أو على البدل، فهو يصلح له أن يكون ممارسًا لسلوك هو من جنس العبادات، كما

يصلح له أن يكون ممارسًا لسلوك هو من جنس العادات.

هذان تعريفان للبدعة على كل حال، ذكرهما الإمام الشاطبي بعد أن مهد لهما ثم فرع عليهما.

ومما لا يجوز إغفاله هنا، هو ما ذكره الإمام الشاطبي من قيد وجدناه في التعريفين جميعًا، وهو أن: هذه الطريقة المخترعة تضاهي الطريقة الدينية.

وهذا القيد تنحل معه مشكلة تتصل بهذه العلوم التي تُعد خادمة للدين وليست من أركانه، مساعدة لفهم الشريعة وليست جزءًا من ماهيتها، من نحو: العربية وعلومها، وعلم الفقه وأصوله، وعلم العقيدة بضوابطه.

وهذه وغيرها علوم لا يعد واحد منها من قبيل البدعة، والذي أخرجه من ذلك الحكم: هو أن أدلة كل واحدٍ من هذه العلوم سابقة على نشأته، تتضمنها أصول الشريعة، كما تتضمنها مقاصدها التي هى المصالح المرسلة، حيث إن جمهور العلماء يعدونها مصدرًا من مصادر التشريع.

الشيخ زروق وتعريف البدعة:.

ونحن فيما سبق كنا مضطرين غاية الاضطرار أن نبسط الأمر بين يديك على هذا النحو، ونحن على وعى كامل بأن الحديث هنا خاص بالشيخ زروق، مما يحتم علينا أن نلتزم بإفساح المجال له، والذي حملنا على أن نطيل الكلام هنا بين يدي حديث الشيخ زروق اعتبارات كثيرة.

منها: أن الشيخ أبا إسحاق الشاطبي باعتباره أول من تحدث عن البدعة وعرفها، ووقف في وجه الابتداع في الدين، كان يقطن نفس الوطن الذي عاش فيه قبل الشيخ زروق، والبيئة جامعة، ومؤلفة بين الأفئدة.

ومنها: أن الشيخ زروق من المتأثرين بتوجهات الشاطبي على العموم، خاصة فيما يتعلق بمنهجه الجديد في أصول الفقه، وأنه يجب أن يكون علمًا مقاصديًا.

ومنها: أن الرجلين قد اتفقا في المزاج العلمي، فكلاهما رجل موسوعي يهتم بعلوم الدين على كثرتها وتنوعها، وأنها مع هذه الكثرة وذلك التنوع مرتبطة ارتباطًا تكامليًا لا يجحده إلا مكابر.

مبررات كثيرة بعضها ما ذكرناه، وبعضها يتصل بمنهج بحث البدعة وضرورة رسم خلفية مناسبة خلف الصورة التي نرسمها للبدعة والابتداع.

ومع ذلك فإن العود أحمد، وهو عَوْدٌ يحتم علينا أن نعود إلى الشيخ زروق نقتبس من عباراته ما يرسم لنا حقيقة البدعة وماهيتها، وما يترتب على ذلك من حديث.

قال الشيخ زروق في كتابه: " عدة المريد الصادق": [أما حقيقة البدعة، فشرعًا إحداث أمر في الدين، يشبه أن يكون منه وليس منه سواء كان بالصورة أو بالحقيقة، لقول رسول الله ﷺ: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"، وقوله ﷺ: " كل محدثة بدعة "، وقد بين العلماء ﵃ أن المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بقربة قربة، لا مطلق الإحداث، إذ قد تتناوله الشريعة بأصولها فيكون راجعًا إليها، أو بفروعها فيكون مقيسًا عليها. قالوا: وبحسب هذا فلا تكون البدعة إلا محرمة أو شبهتها جدًا كانت محرفة لا سيما إن كانت في مقابلة منصوص عن الشارع، أو مخالفة لأصل الملة أو خارجة عن قواعد الأحكام الشرعية].

ونحن نتأمل في هذا النص معك أو منفردين، فلا نجد إلا أن يكون الشيخ زروق قد تأثر بالشاطبي في اختياراته وإن كان لا يتابعه على منهجه في صياغاته.

فأنت على وعى – والحمد لله – بما ذكرناه لك قريبًا من أن الشاطبي قد ذكر تعريفين للبدعة من حيث الشرع والاصطلاح، وهو يقصد إليهما قصدًا، بحيث كان الأول منهما قد قصر دلالة البدعة الشرعية والاصطلاحية على كل مستحدث في باب العبادات، وأن الثاني منهما قد منحه الشاطبي من الرحابة قدرًا يجعل لفظة البدعة معه شاملة لما هو عبادة وما هو من باب العادات.

والشاطبي في الحالتين جميعًا قد عبر عن أنه يملك قدرًا من الاحتراف غير قليل، فجعل الفرق بين التعريفين في عبارة مختصرة في نوايا المبتدع، وفيما يطويه في حنايا نفسه من إرادات ومقاصد على ما علمت.

وأنت على وعى كذلك من أن الشاطبي بعد أن ذكر التعريفين وفرق بين دلالة

البدعة على مقتضى كل منهما، وجدناه يختار أن تكون دلالة البدعة الشرعية والاصطلاحية في حدود ما اشتمل عليه التعريف الأول، حيث لم يجد نفسه تطاوعه على قبول دلالة البدعة على المستحدث الحسن، إلا أن يكون ذلك على سبيل المجاز.

ولا يعني ذلك أن الشاطبي يرى أن كل حادث في مجال الاجتماع أو الكونيات ضلالة يجب أن يذهب محدثه إلى الجحيم، فذلك لا يقول به عاقل فضلاً عن الشاطبي. لكن الشاطبي قد هدته قريحته أن يصف المستحدث الحسن، وأن يحكم عليه بأوصاف وأحكام غير البدعة والابتداع، وغير الزيغ والضلال، فالمستحدث الحسن هو السنة الحسنة، والدليل عليه هو عموم الأدلة في أصل الشريعة، أو القياس على المشابه من أحكام أحداثها الماضية، أو المصالح المرسلة على شروط اعتمادها أصلاً من أصول الشريعة، كعدم المعارض لأصل من أصولها.

رأى الشيخ زروق ذلك كله قد صدر عن الشاطبي، وتوارثه الناس عنه وقرأوه له، وتأثر به كثير من المغاربة والمشرقيين، وظهر أثر ذلك على صاحبنا كما رأيت، إلا فيما ذكره من تعريف.

وأنت وأنا – مجتمعين أو منفردين – ننظر في تعريف الرجل، فنجد أن جزءًا من غاياته وقد سقط، حيث لم يبح التعريف عن مقصد الشيخ زروق في مجال تعريفه للبدعة شرعًا واصطلاحًا أهي شاملة للعبادات والعادات، أم أن دلالتها في التعريف قاصرة على العبادات فقط؟

واحتياج التعريف على هذا النحو قد ألجأ الشيخ زروق إلى نوع من الاستدراك أو الاستكمال، فكانت عبارته التالية – وهي ضمن ما ذكرناه قبل – مفيدة لرغبته في الاستكمال والاستدراك.

قال في تعليقه على ما ذكره من أقوال النبي سالفة الذكر: [وقد بين العلماء ﷺ أن المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بقربة قربة، لا مطلق الإحداث، إذ قد تتناوله الشريعة بأصولها فيكون راجعًا إليها، أو بفروعها فيكون مقيسًا عليها. قالوا: وبحسب هذا فلا تكون البدعة إلا محرمة أو

مكروهة، لأنها إن قويت شبهتها لا يصح أن يبلغ بها التحريم، وإن ضعفت شبهتها جدًا كانت محرمة لاسيما إن كانت في مقابلة منصوص عن الشارع، أو مخالفة لأصل الملة أو خارجة عن قواعد الأحكام الشرعية].

البدعة والحكم الشرعي: .

ويترتب على ما ذكرناه ضرورة أن نتحدث عن آراء العلماء في حكم الأمر المستحدث ومحاولة الجمع بين الآراء إن أمكن ذلك.

ولا بأس أن نجمل القول إجمالاً في أن نقول: إن من ضَيَّق الأمر في تعريفه للبدعة الاصطلاحية، رأى أنه لا حكم للأمر المستحدث، إلا أن يكون من استحدثه قد عرَّض نفسه لعدم رضى الشريعة عنه في درجات متعددة، مقياسها مخالفة هذا الأمر المستحدث لمصادر الشريعة وأدلتها، فإن اشتدت المخالفة جدًا كان الأمر المخالف بدعة ممقوتة، وكان صاحبها ضال وكان مآله النار، وكان حكم الأمر المستحدث في الدنيا الرد وعدم القبول، فإن قويت الشبهة، وضعف احتمال مخالفة الأمر المستحدث لمصادر الشريعة وأدلتها، تناقص بمقدار سيطرة الشبهة على الموقف مَقْتُ الشارع للأمر المستحدث حتى يصل إلى الكراهة.

لكنه على هذا النوع من التعريفات، فإن الأمر لا يخرج عن كون البدعة مرذولة وغير مقبولة، وصاحبها آثم لا يستأهل البراءة من مسئولية استحداث أمر في الشريعة على غير مثال سابق، على أنه طريقة في الدين مخترعة تشبه طرائقه وليست منها، يُقصد بها الزيادة في العبادة، ونوال رضوان الله، والحصول على أجره وثوابه.

أما **التعريف الثاني** وهو على ذات المقياس، فحين تضعف الشبهة فيه، وتقوى المخالفة لمصادر الشريعة، يكون الأمر المستحدث حرامًا، وصاحبه ضال مضل، وكلما ضعفت الشبهة تغير الحكم إلى حد المكروه والمباح، فإن غابت الشبهة جدًا أمكن اندراج الأمر المستحدث تحت دليل من أدلة الشريعة، كان هذا الأمر المستحدث واجب الأداء أو مندوبًا.

قال الشيخ زروق نقلاً عن المحققين: [قال المحققون: وإنما قسمها بعضهم

لأحكام الشريعة اعتبارًا بمطلق الأحداث، ومن حيث اللغة، ومنه قول عمر ؤ في شأن التراويح: "نعمت البدعة هذه" فسماها بدعة من حيث صورة إثباتها، وإلا فهي سنة بفعل النبي ﷺ، في ثلاث ليالٍ من رمضان، في حياته ثابتة إقامتها بقوله ﷺ: " إلا أني خشيت أن تُفرض عليكم" فنبه على العلة ليُشعر بثبوت الحكم عند ارتفاعها، كما أثبته عمر ؤ بإجماع من الصحابة في قبوله.

فإن قلت: كيف تكون البدعة المكروهة ضلالة، مع أن المكروه من قبيل الجائز، والنبي ﷺ قد حكم على كل بدعة بأنها ضلالة؟ قلت: الكراهة مصروفة للعمل بها، وإحداثها حرام لأنه افتيات على الشارع، وتقدم بين يديه وتغيير لأحكامه مع وجود شبهة منه].

خواص البدعة: .

هذا وإن كل موجود حادث من عدم قد فرض وجوده على ساحة المعارف أو الحسيات، لابد له من خصائص تميزه من الأغيار، وهي خصائص معتبرة في نظر كل عاقل ينظر فيما حوله ومن حوله، ليتميز أمامه كل موجود من غيره، ولولا ذلك لأصبح الكل في واحد لا يمتاز شيءٌ من شيء حيث غابت المميزات.

وهذه الخصائص تفرض وجودها على كل ناظر في الأشياء، كما تفرض ترتيبها وتحديد مكانها من كل بحث.

ونحن نذكر خصائص البدعة بين يدي نظرنا للميزان الذي يعيننا على تحديدها لاعتماده على هذه الخصائص اعتمادًا كليًا أو جزئيًا.

والشيخ زروق قد أشار إلى هذه الخصائص ووجودها في هذه البدعة، مبينًا أن كل خاصية منها إنما يبدو وجودها ويظهر في كل حادث بطريقة أغلبية.

والخصائص عنده قد انحصرت في ثلاث:

الأول منها: أن الفعل الحادث إنما يظهر مرتبطًا بمحرم تقتضي الشريعة تحريمه على وجه الاقتران به، أو على وجهٍ ينتهي الحادث إليه، أو يكون تابعًا له غالبًا.

ونحن حين ننظر في كل أمرٍ مُختَرع يمثل الطريقة التي تضاهي الطريقة

الدينية وليست منها، فإننا نجد هذه الخاصية ظاهرة فيه.

والثاني من هذه الخواص: أنك حين تنظر في كل طريقة مُختَرعة تضاهي الطريقة الدينية وليست منها، ستجد أن المجال الذي أُختُرِعَت فيه لا يخلو من غرابة مدهشة، تأخذ بالألباب، وتلفت إليها الأنظار غالبًا.

والثالث من هذه الخواص: أن من يعمد إلى طريقة ينشئها من العدم على غير مثالٍ سابق في الدين، إنما يحاول أن يربطها بالشريعة برابطٍ يوهم الغريِّين بأنها شرعية، لما في هذا الرابط من الالتباس أو الإيهام.

وهذه الخواص الثلاث قد أشار إليها المصنف بواضح من القول حيث قال:

[خواص البدعة ثلاثة:

أحدها: أنها لا توجد غالبًا إلا مقرونة بمحرم صريح أو آيلة إليه أو يكون تابعًا لها، ومن تأمل ذلك وجده في كل ما قيل، فإنه بدعة لا ينخرم بحال.

الثاني: أنها لا توجد غالبًا إلا في الأمور المستغربة غير المألوفة في الدين، وفي الكيفيات من المندوبات وتوابع الأعمال وما تميل إليه النفوس وتستحسنه: كالذكر والتلاوة والصلاة والصوم بما يدخلون عليها من الكيفيات ونحوها، والسلوك والتربية ونحو ذلك فتأمله.

الثالث: أنها لا توجد غالبًا إلا مستندة لوجه من الشريعة أو معنى من الحقيقة، يلتبس على قليل العلم فيتحير أو يسلم، ويتروج على الجاهل فيظنه دينًا قيمًا من حيث لا يعلم، وما غره في ذلك إلا شبهة الأصل، وتسليم من يعتقد فيه العلم والفضل، ولكن لكل شيء ميزان يظهر به الحق من الباطل، يعرفه العالم وينفيه الجاهل، فيكون ضالاً بفعله مضلاً بدعوى الخلق إليه، غير معذور في أمره لعدم تبصره، إذ الدين مبني على التبصر. وبالله التوفيق].

ميزان البدعة: .

ومع أن البدعة يمكن أن تمتاز من غيرها بهذه المميزات الثلاث التي ذكرناها، إلا أن الشيخ زروق وغيره قد ذهبوا إلى أنه من المفيد أن نذكر للبدعة ميزانًا أو موازين، نقيسها إليها لنرفع عنها كل غموض ونزيل عنها كل التباس.

وما توصل إليه العلماء من هذه الموازين التي توزن البدعة إليها ثلاثة.

ومحور الأول من هذه الموازين الثلاثة هو النظر في أدلة الشريعة ومصادرها الكلية، وقياس هذا الحادث إلى تلك الأدلة وهذه المصادر، فإذا رأينا الحادث يستند إلى واحدٍ أو أكثر من هذه المصادر، حكمنا عليه طبقًا لهذا الميزان بأنه سنة وليس ببدعة، فإن جافى هذه الأدلة وتلك المصادر أو واحدٍ منها مجافاة صريحة، كان من أجل هذه المجافاة بدعة وكان ضلالة، وكان مبتدعه ضالاً مضلاً، داعيًا هو ومن معه على أبواب جهنم. ولو أن هذا الميزان قد كشف عن شبهة أو اشتباه في وجه الأدلة الشرعية ومصادر الشريعة ومقاصدها، فإننا ننظر في هذه الشبهة من حيث ظهورها في وجه الشريعة قوة وضعفًا. فيختلف حكمنا عليها حسب قوة هذه الشبهة وضعفها على نحو ما ذكرناه.

وفي تقرير هذا الميزان الأول يقول الشيخ زروق:

[**الميزان الأول** أن ينظر في الأمر المحدث، فما له مستند شرعي بوجه شامل محيط هو جملة الشريعة ومعظمها، فإن كان هذا الأمر مما شهد له معظم الشريعة وأصلها فليس ببدعة، وإن كان مما يأباه ذلك بكل وجه فهو باطل ضلال مبتدَع، إلحاد في جانب الاعتقاد ونحوه، وإن كان ما تراجعت فيه الأدلة وتناولته الشبهة واستوت فيه الوجوه، اعتبرت وجوهًا فيه، فما ترجح فيه من ذلك رجع إليه].

أما **الميزان الثاني** فمحوره النظر في طريقة جماعة المسلمين وما لهم من قواعد اختطوها لأنفسهم، ووضعوها لتحكم اجتهاداتهم، وتضبط أحكامهم.

واستنادًا إلى هذا الميزان الثاني فإن الطريقة المستحدثة يجب أن تقاس إلى مأثورات جماعة المسلمين والتي نص الحديث على أنهم معصومون من الخطأ.

فإذا ظهر من خلال هذا الميزان أن هذه الطريقة المستحدثة قد وافقت سلوك وقواعد جماعة المسلمين، فهي سنة وليست ببدعة.

وإن جاءت على خلاف ذلك فهي بدعة ولا شك.

ومع أن علماء المسلمين قد أجمعوا على ما ذكرناه، فإن الخلاف قد وقع بينهم في أمور.

منها: أن تكون هذه الطريقة المستحدثة قد وافقت أصلاً أو أكثر في الشرع، أو وافقت مقاصد الشريعة، ولم يثبت أن جماعة المسلمين قد أثر عنهم العمل على مقتضى هذه الطريقة المستحدثة.

فهل نأخذ بموافقة هذه الطريقة لبعض أصول الشريعة؟

أجاب الشافعي: بأن نعم؛ إذ إن العمل في الأصل هو على موافق الشريعة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه لا يُعقل أن تكون جماعة المسلمين قد تنكرت لأمرٍ وافق أصلاً من أصول الشريعة، وإنما المعقول أن يكون هؤلاء قد تركوا ما تركوه لمبررٍ عندهم قد اعتبروه حيثية الترك.

وأجاب مالك: بأنه بدعة؛ إذ ما تركه جماعة المسلمين فإنهم لا يتركون العمل بمقتضاه لهوىً عارض، وإنما قد تركوه لمبررٍ ظهر لهم وإن لم نعرفه عنهم.

ومنها: أن تكون هذه الطريقة المستحدثة ليس لها في أصول الشريعة معارض ولا موافق، فهل تعد هذه الطريقة المستحدثة بدعة، حيث لم نجد لها في الشريعة ما يوافقها؟ به قال مالك ڤ، أم أنه ليس ببدعة حيث لم نجد لها في الشريعة ما يعارضها؟ وبه قال الشافعي ڤ.

وفي هذا كله مع إيراد الأمثلة الموضحة له يقول الشيخ زروق: [الميزان الثاني: اعتبار قواعد الأئمة وسلف الأمة العاملين بطريق السنة فما خالفها بكل وجه فلا عبرة به، وما وافق أصولهم فهو حق، وإن اختلفوا فيه فرعًا وأصلاً، فكل يتبع أصله ودليله، وقد عرف من قواعدهم أن ما عمل به السلف وتبعهم الخلف لا يصح أن يكونوا قد أحدثوه من عند أنفسهم لعصمة الإجماع، كما في الحديث، فلا يصح أن يكون بدعة ولا مذمومًا، وما تركوه بكل وجه واضح، لا يصح أن يكون سنة ولا محمودًا.

وما أثبتوا أصله ولم يرد عنهم فعله، فقال مالك: هو بدعة، لأنهم لم يتركوه إلا لأمر عندهم فيه، فإنهم كانوا أحرص على الخير وأعلم بالسنة، وهو مقتضى قول ابن مسعود ڤ، إذ قال لقوم رآهم يذكرون جماعة: " تالله لقد جئتم ببدعة ظلمًا أو لقد فقتم أصحاب محمد علمًا ". ذكره ابن الحاج في المدخل فانظره، وقال الشافعي ڤ:

كل ما له مستند من الشرع فليس ببدعة، وإن لم يعمل به السلف، لأن تركهم العمل به قد يكون لعذر قام بهم في الوقت، أو لما هو أفضل منه، أو لعله لو بلغ جميعهم عمل به، والأحكام مأخوذة من الشارع وقد أثبته لهم.

واختلفوا أيضًا فيما لم يرد له في السنة معارض ولا شبهة، هل هو بدعة؟ قال به مالك رحمه الله، أو ليس ببدعة؟ قال به الشافعي رحمه الله مستندًا لحديث: "وما سكت عنه فهو عفو" ذكره ابن الحاج في باب الذكر.

وعلى هذا اختلافهم في حزب الإدارة والذكر بالجهر والدعاء كذلك، إذ ورد في الحديث الترغيب فيه، ولم يرد عن السلف فعله، ولا ورد في كيفيته شيء.

فقال الشافعي سنة، وقال مالك: مكروه لقيام الشبهة، ثم كل قائل لا يكون مبتدعًا عند القائل بمقابله لحكمه بما أداه إليه اجتهاده الذي لا يجوز له تعديه، ولا يصح له القول ببطلان مقابله لقيام شبهته، ولو قبل بذلك لأدى لتبديع الأمة كلها، لأن على كل قائل قائلاً.

وقد علم بأن حكم الله في مجتهد الفروع ما أداه إليه اجتهاده، سواء قلنا المصيب واحد أو متعدد. وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدركهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: إنما أمرنا بالعجلة وصلوا في الطريق، وقال آخرون: إنما أمرنا بالصلاة هناك فأخروا، فلم يعب ﷺ على واحدٍ منهم" فدل ذلك على صحة العمل، بما فُهم عن الشارع إذا لم يكن هوى وبالله التوفيق].

ويبقى **الميزان الثالث** من تلك الموازين التي اعتمدها زروق يقيس إليها كل مستحدثٍ من الطرق التي تضاهي الشرعية وليست منها، فاعتباره بالأحكام يُقاس إليها، فما وافق حكمًا من الأحكام وشارك المحكوم عليه السابق في علة الحكم كان سنة، وما لم يشارك غيره في حكمه ولم يخضع لميزانٍ سبق من الموازين التي ذكرناها قبلُ فهو بدعةٌ لاشك في ذلك.

وهذا الميزان الثالث يأخذ في اعتباره أحكام الشريعة الخمسة أو الستة على خلافٍ بين العلماء، والتي هي: الوجوب والتحريم والندب والكراهة، وترك الأولى والإباحة.

وأنت ترى هذه الأحكام في ترتيبها التصاعدي أو التنازلي على ما تشاء أنت أن ترتبها.

والذين يعتبرون الدلالة اللغوية لمعنى البدعة بإمكانهم أن يقسموا البدعة هنا وطبقًا لهذا الميزان الثالث إلى أقسام ستة على ما رأيت.

ومع أن الشيخ زروق قد اعتبر هذا الميزان، إلا أنه قد اعتبره لقياس البدعة اللغوية وأقسامها، وإن كان هو كأستاذه الشاطبي لم يفعّل هذا الميزان فيما يرتضيه من تعريفات البدعة.

يقول الشيخ زروق وهو يتحدث عن هذا الميزان الثالث ما هذا مثاله:

[**الميزان الثالث**: ميزان التمييز بشواهد الأحكام، وهو تفصيلي ينقسم إلى أقسام الشريعة الستة، أعني: الوجوب والتحريم والندب والكراهة وترك الأولى والإباحة. فكلما انحاز لأصل بوجه صحيح واضح لا بُعد فيه أُلحق به وما لا فهو بدعة، وعلى هذا الميزان جرى كثير من المحققين في تقسيم البدع واعتبرها من حيث اللغة للتقريب، والله أعلم].

أقسام البدعة :.

واستنادًا إلى ما ذكرناه من خواص البدعة وموازينها، يمكن لنا بغاية الوضوح أن نقسم البدعة ومجاريها إلى أقسامها الحاصرة لها، كما يمكننا استنادًا إلى ذلك أن نلحق كل قسم من هذه الأقسام بما يناسبه من التبعات والأحكام.

١- البدعة الصريحة :.

والقسم الأول من هذه الأقسام الثلاثة هو هذا القسم الذي يطلق عليه لقب – البدعة الصريحة–.

والبدعة الصريحة إنما تطلق على كل طريقة مخترعة في الدين وليست منه، وهى بذلك التقابل تناهض سنة صحيحة من غير قيام شبهة مقابلة، ولا حجة منقولة عاملة.

ومن أمثلة ذلك الإسراف في ماء الوَضوء عند مباشرة الغُسل أو الوُضوء، مع اعتقاد أن هذا الإسراف عبادة.

وأنت لا يخفاك أن هذه طريقة مخترعة في الدين وليست منه، بل هى مضادة لمراد الشارع.

وأن ترى بعض الناس يدلك أعضاء الوُضوء ويبالغ في التدليك، كما يفعل الشيء نفسه في الغسل الشرعي، مع اعتقاد أن هذه المبالغة في التدليك من العبادات التي تستوجب رضى الله.

وهى ليست كذلك بالقطع.

بل إن التدليك نفسه موضع أخذ ورد بين العلماء، على نحو ما هو وارد في كتب الفقه عند المالكية والشافعية.

والأمثلة كثيرة لمن أراد أن يتتبع مواطنها في كتب الفقه، ليوضح بها هذا النوع من البدعة.

أما الشيخ زروق فهو يتحدث عن هذا القسم وأحكامه بعبارة بالغة القسوة والشدة.

قال في "إعدة المريد الصادق": [**وأقسام البدعة ثلاثة:**

أولها: البدع الصريحة، وهى ما ثبت عن غير أصل شرعي في مقابلة ما ثبت شرعًا من واجب أو سنة أو مندوب أو غيره، فأماتت سنة أو أبطلت حقًا ثابتًا، وهذه شر البدع وإن كان لها ألف مستند من الأصول والفروع فلا عبرة به].

٢- البدعة الإضافية: .

وهى – كما يظهر من اسمها – عبارة عن هذه الطريقة المستحدثة التي تضاهي الدينية وليست منها إذا ما أضيفت إلى غيرها استكملت بدعيتها، فإذا ما رُفعت الإضافة عنها عادات سنة.

فأنت تراها تخولها الأحوال والنية.

كالتبرك بالآثار، والاجتماع للدعوات والآثار.

يقول الشيخ زروق معبرًا عن هذا القسم الثاني: [البدع الإضافية وهى التي تضاف لأمر لو سلِمَ منها لم تصح المنازعة في كونه سنة وغير بدعة بلا خلاف أو على خلاف وهذه أكثرية، بل غالبة في الزمان لولا الإطالة لسردنا منها جملة].

٣- **البدعة الخلافية: .**

ويتضح من اسم هذا النوع من البدع أنها أمر مستحدث تتجاذب الحكم عليه وجهات نظر مختلفة.

وما ذلك إلا لأن الشارع قد أباح لنا الاجتهاد في الدين، ولا يكون الاجتهاد في مساره الصحيح إلا إذا اتخذ المجتهد له أصولاً يبني عليها، ويستند إليها فيما ينتهي إليه من أحكام.

واستنادًا إلى هذا نقول: إن البدعة الخلافية تكون مستندة إلى أصل، فمن اعتبره من المجتهدين حكم بسنية هذا الأمر المستحدث، ونفى عنه وصمة البدعة، ومن لم يعتبر منهم، اعتبرها بدعة واعتبر صاحبها مبتدعًا.

ويمثل هذا النوع ويجسده أمثلة كثيرة.

منها: ما استحدثه بعضهم من الاعتماد على قراءة سورة أو سور من القرآن في وقت معين وهم مجتمعون فيما يُعرف بينهم – بحزب الإدارة–.

ومنها: ما استحدثه البعض من الذكر الجماعي مقيدًا بانتهاء الصلاة أو مطلقًا في أى وقت من الأوقات.

والشيخ زروق يشرح هذا النوع من أنواع البدع ويعقب عليه باقتدار في كتاب "إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين" فيقول: [الثابت: البدعة الخلافية وهى باعتبار الملاحظات الأصلية، فكل إمام فَهِمَ من الشريعة أصلاً بنى عليه ونسب الحكم الذي يقتفيه إليه، فلذلك تجد أحدهم ربما قال بسنية ما قال صاحبه بابتداعه، وليس أحدهما بمبتدع لتمسكه بالحق واتباعه، ولو قيل بذلك للزم تبديع كافة الأمة وهو ضلال وخبال وظلمة، لكن التقوى في هذا الوجه تجري بحسب الأشخاص على قدر ما هى به من كمال علم أو انتقاص].

مجاري البدع: .

يبقى أن نحدثك عن ميادين البدع ومجاريها.

وهو أمر يتضح مما ذكرناه قبل من تعريفات البدع، كما يتضح موقف كل إمام، ومفكر وفقيه من هذه المسألة على أساسٍ من اختياره للتعريف الذي يرتضيه للبدع.

فأما مجاري البدع – على ما ذكرناه – فالعبادات – أعني صورها اتفاقًا – فكلما أُحدث فيها زيادة أو نقصًا فهو بدعة إن ثبت له حكم مخالف، أو لم يكن.

واختلف في جريها في العادات وفيما لم يرد له حكم خاص: كالأكل والشرب واللباس ونحوه، فقيل: تجري فيه لقول أنس ؤ: " أول ما أحدث الناس المناخل والأشنان والشبع" أو كما قال، وقيل لا تجري في ذلك، وإطلاق أنس ؤ باعتبار الصورة الواقعة فقط وعلى الأول يجري ما نُقل عن المذهب المالكي في العمائم ونحوها، كما ذكره في المدخل وغيره والله أعلم.

قال الشيخ زروق: [ولا ينبغي أن يختلف فيما أُحدث من ذلك مع ادعاء أنه من الدين لأنه زيادة حكّم فيه، والله أعلم].

والشيخ زروق يلتفت إلى البدعة من حيث مجاريها وآثارها، وعلاج ما يترتب عليها من آثار في قواعده التي خصص الحديث فيها للتصوف بالقصد الأول.

ونحن قد تتبعنا هذه القواعد، وشرحناها، وسنذكر لك الآن من قواعده ما سقناه في الجزء الثاني من شرحها.

قال الشيخ زروق في القاعدة السادسة والثمانين ما هذا مثاله: [كمال العبادة بحفظها والمحافظة عليها، وذلك بإقامة حدودها الظاهرة والباطنة من غير غلو ولا تفريط.

فالمفرط مضيع، والغالي مبتدع، سيما إن اعتقد القربة في زيادته، فمن ثم قيل: الوسوسة بدعة، وأصلها جهل بالسنة، أو خبال في العقل يدفعها دوام ذكر: "سبحان الملك الخلاق" " إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز" [إبراهيم/ ١٩– ٢٠]. مع كل ورد، والتزام التلهي، والأخذ بالرخص من أقوال العلماء النافية لها، لا تتبع الرخص فإنها ضلال بإجماع. فافهم].

من شابه سلفه فما ضل:.

ونحن حين نعيد النظر فيما قاله الإمام زروق، نرى وجه شبه لا يخطئ الناظرين بين ما ذكره زروق وما ذكره الإمام الغزالي مثلاً، خاصة فيما يتعلق

بالمنهج وما ساقه الإمام الغزالي في إطار المنهج من قضايا تتصل بالسنة والبدعة.

فالسنة عند الإمام الغزالي هى: ما أُثر عن النبي ﷺ من طريقته، وما أُثر عن الصحابة رضوان الله عليهم من طريقتهم وسنتهم لصلتها بسنة النبي وطريقته.

والمعيار عند الإمام الغزالي للسنة هو موافقة المأثور من طريقة النبي والصحابة رضوان الله عليهم.

وما كان من سلوكٍ غير موافق، فالإمام الغزالي ينظمه في سلك الابتداع المؤدي إلى الجحيم، ما كان من ذلك متصلاً بالعبادة، وما كان من ذلك متصلاً بالعلوم، خاصة علم الآخرة، وما كان من ذلك متصلاً بأمور الدنيا خاصة إذا اعتقد السالكون عليه أن ما يفعلونه هو من أمور العبادة.

وسوف أحاول أن أطلعك على بعض ما قاله الإمام الغزالي، لتقارن بينه وبين مواقف الشيخ زروق، فتدرك من هذا كله وجه الشبه بين العلماء إذا أخلصوا التوجه لله.

قال الإمام الغزالي في كتاب العلم من الإحياء، وفي الباب السادس من هذا الكتاب الذي هو كتاب العلم، يحذر العلماء من آفات العلم حتى لا ندركهم، وحتى لا تُفسد عليهم الطريق، ما هذا نصه: [... ومنها: أن يكون (العالم) شديد التوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور: فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما أُحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم ، وليكن حريصًا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم، وما كان فيه أكثر همهم سواء أكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولي الأوقاف والوصايا ومال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العشرة، أم كان في الخوف والحزن والتفكُّر والمجاهدة ومراقبة الباطن والظاهر واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفس ومكايد الشيطان، إلى غير ذلك من علوم الباطن؟.

واعلم تحقيقًا: أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين، ولذلك قال عليٌّ ؤ: (خيرنا أتبعنا لهذا الدين) لمّا أن قيل له: خالفت فلانًا.

فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر في موافقة أهل عصر رسول الله ﷺ؛ فإن الناس رأوا رأيا فيما هم فيه لميل طباعهم إليه، ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة، فادَّعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه.

ولذلك قال الحسن: (محدثانِ أُحدثا في الإسلام: رجل ذو رأى سوءٍ زعمَ أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومُتْرَف يعبد الدنيا، لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب، فارفضوها إلى النار، إن رجلاً أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه، وصاحب هوى يدعوه إلى هواه، قد عصمه الله تعالى منهما، يحنُّ إلى السلف الصالح، يسألُ عن أفعالهم ويقتفي آثارهم... فتعرض لأجر عظيم، فكذلك كونوا)].

رأى الإمام الغزالي إذًا أنه ونظائره من العلماء قد نظروا إلى البدعة نظرة شاملة، وازوروا عنها بالكلية مخافة تحمل المسئولية.

فلقد كان في زمانهم تعد [فُرش البواري في المسجد بدعة، وقيل إنه من محدثات الحجَّاج، فقد كان الأولون قلما يجعلون بينهم وبين التراب حاجزًا.

وكذلك الاشتغال بدقائق الجدل والمناظرة من أجلِّ علوم أهل الزمان، ويزعمون أنه من أعظم القربات، وقد كان ذلك من المنكرات.

ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان.

ومن ذلك التعسف في النظافة، والوسوسة في الطهارة، وتقدير ا لأسباب البعيدة في نجاسة الثياب، مع التساهل في حِلِّ الأطعمة وتحريمها، إلى نظائر ذلك.

ولقد صدق ابن مسعود ؓ حيث قال: (أنتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم، وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعًا للهوى)].

* * *

البدعة في مجال التصوف
ومحاولة الإصلاح

انتهينا معك يا صاحبي مما يسر الله لنا إيراده من عرض كلام الشيخ زروق في البدعة التي ينفر الشرع منها ويبغضها للناس.

لكن الشيخ زروق كانت له سنة، وكانت له عادة، وكانت له طريقة في التفكير، وسنته وعادته وطريقته كلها أمور تحمله على أن يطرح قضاياه من الناحية النظرية حتى تستقيم فكريًا بين يديه، فإذا ما استقامت تحول بنتائجها إلى مجال حسّي أو مجالات يطبقها فيها لتظهر وتتضح، كما لم تظهر وتتضح في جانبها النظري، ثم هو لم يكتفِ بذلك التطبيق، وإنما هو يحرص غاية الحرص على إبراز الأحكام الشرعية، أو الاجتماعية، أو الطبيعية، يلحق كل حكم بما يناسبه كلما توفرت لكل حكمٍ حيثياته أو مقدماته.

هذه طريقة الشيخ زروق قد بدت لنا من خلال كتاباته في مطولات وفي مختصرات.

وبعد هذه الإشارة نقول: إن الشيخ زروق حين انتهى من عرضه للبدعة الشرعية على نحو ما بيناه عنه، كان لابد أن ينتقل بنتائج ما عرضه إلى مجال أو مجالات التطبيق.

ومجالات التطبيق لدى الشيخ زروق يتصدرها غالبًا ساحة التصوف وما تحتويه من أفكار وسلوك وأحكام.

وهذا ما نحدثك الآن عنه.

بيئة الفساد في مجال التصوف: .

ولما كان الشيخ قد انتقل بالبدعة إلى مجال التصوف، فإن إرادته مطلقة ورغبته شديدة في أن يحدثنا عن البدعة في مجال التصوف من جانبين.

أحدهما: هذه البيئة التي احتوت على عوامل الفساد والإفساد التي مهدت لانتشار البدعة لدى الصوفية وفي مجال التصوف.

والعوامل التي أدت إلى فساد بيئة التصوف كثيرة ومتعددة، نتحدث عنها في

إجمال مجمل لكنه غير مخل.

عوامل انتشار البدعة في التصوف:

والشيخ زروق يحاول اختصار عوامل إفساد بيئة التصوف، والتمهيد لنشر البدع فيها في ثلاثة عوامل:

١- نقص الوعي بالتوحيد وخلو القلب من كمال الإيمان:

هذا وإن المعلوم من طباع الإنسان أنه تتطرأ عليه المختلفات، وتتعاوره المتقابلات، وتتتابه الأغيار، فهو متقلب بين هذه الأشياء وأضدادها، لا يستقر على قرار ولا يدوم على حال إلا من رحم ربي.

ومن أخطر ما يعتري الإنسان في علاقته بربه أن ينقص وعيه بالتوحيد، وأن تتراجع درجة الإيمان في صدره.

وعلامة ذلك فيه أنه يُقبل على المخالفات لشرع ربه من غير أن يكون هناك من حاجز من الهيبة يستشعره المخالف فيتراجع عن مخالفته.

وعلامة ذلك فيه أنه يُقبل على المخالفة بعد أن ينطفئ في صدره هذا النور، الذي يهديه إلى سلوك الطريق المستقيم الذي رسمه له ربه عن طريق النبي ﷺ الذي أمر أن يهدي الناس بالقرآن إلى سلوك الصراط المستقيم لا يجاوزونه.

وعلامة ذلك فيه أن يُقبل على المخالفة وقد غابت عن شعوره وأحاسيسه ملامح التقوى والخوف، مما أعده الله عز وجل للمخالفين من عذاب مادي مقيم، ومن غضب الجبار لا يتحول إلى رضى.

هذا هو العامل الأول الذي يُفسد بيئة التصوف خاصة، وبيئة العبادة التي ترسم علاقة العبد بربه على وجه العموم.

وفي رسم هذا العامل يقول الشيخ زروق: [فصل في أصل ظهور مدعي التصوف في هذا الزمان بالبدع وإتباع الناس لهم عليها.

فأما ظهورهم بالبدع فله أصول ثلاثة:

أولها: نقص الإيمان لعدم العلم بحرمة الشارع وفقد نور الإيمان الهادي إلى إتباع الرسول ﷺ وقال الله تعالى: "وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا

السبل فتفرق بكم عن سبيله" [الأنعام/ ١٥٣] وقال أحمد بن خضرويه ۏ: " الدليل لائح والطريق واضح والداعي قد أسمع، فما التحير بعد هذا إلا من العمى" وقال ابن عطاء الله ۏ في حِكمِه: "لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك" وقال أيضًا: " تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال" وقال بعضهم: "نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن".

قال الله تعالى: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم... فمن يهديه من بعد الله " [الجاثية /٢٣] يعني أن الحيل والأسباب لا تفيد في هدايته لتمكن الباطل من نفسه، وفقدان نور الإيمان من قلبه، " ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور" [النور/ ٤٠].

٢- نقص الوعي بأصول الطريقة: .

ومن الأشياء التي أفسدت بيئة التصوف، وسمحت للبدعة أن تنتشر فيها، عدم معرفة أصول الطريقة والجهل بالأسس التي يقوم التصوف عليها.

وأنا لا أستريب في وعيك الشديد بأن التصوف لا يستقيم إلا إذا اتخذ له من الشريعة قاعدة صُلبة يبني عليها، وركنًا شديدًا يأوى إليه.

والذي حدث أنه حين غابت هذه الحقيقة واختفت من بيئة التصوف، ظهرت أمور، وطفح على السطح مفاسد قعدت بهمم القوم، وزعزعت ثقة الناس في بعضهم.

ومن هذه الأمور هذا الاعتقاد الفاسد الذي شغل عقول المتصوفة إلا قليلاً منهم، أنهم ظنوا كما ظن كل واهم أن الشريعة والحقيقة من الأمور المتقابلة أو المتناقضة، فهما لا يجتمعان؛ فإن وجدت الحقيقة ارتفعت الشريعة، وإن سيطرت الشريعة أغلقت الطريق أمام الحقيقة

وهذا النوع من التصور أو الاعتقاد يُعد من أشر البدع التي احتلت جزءًا كبيرًا من ساحة التصوف، وترتب عليه هذا العداء المستحكم بين المتصوفة والفقهاء، أو قل بين الداعين إلى الشريعة وبين الداعين إلى التصوف، فتشدد بعضهم في وجه بعض، وحقَّر كل منهم سلوك الآخر وطريقته، فوجدنا متعصبي الشريعة يبذلون كل

جهد في الوقوف بأفكارهم عند ما يشاءون، والنيل من سلوك كل ممن هم ليسوا على طريقتهم.

وفي نفس الوقت قد وجدنا... الجهلة من المتصوفة يعتبرون رجال الفقه أو رجال الفروع، أناسًا قد قعدت بهم هممهم، ونزلت بهم المعايير إلى أقل درجات التقدير.

ومن هذه الأمور هذا الخلط الشديد بين التصوف والطرق المارقة من الإسلام والتي تُسمى بالباطنية-، وهي طرق لا تشبه التصوف في شيء، ولا تقترب من مناهج المتصوفة ولا شروَ نقير؛ فالتصوف ينطلق في سلوكه ومعارفه من أصول وقواعد تحكم المتصوفة في فهم النصوص، وفي الاحتكام إليها في تصحيح معارفهم وضبط سلوكهم، أما الباطنية فهم جماعة أو جماعات تحكمهم الفوضى إذا ما صح أن تكون الفوضى حاكمة.

وحين ساحت الجدود بسبب جهل الناس بأصول الطريقة التبست الفهوم، وضاع الناس في بيداء لا ينقذهم منها إلا العودة إلى الأصول، والشيخ زروق يرسم هذا السبب ويبين خطورته، وكيفية التخلص منه بهذه العبادات واضحة الدلالة على المقصود.

قال: [الثاني: الجهل بأصول الطريقة واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة، وهذا هو الأصل الكبير في ذلك وهو من مبادئ الزندقة، ومنه خرجت الطوائف كلها، وصار الفروعي الجامد لا يتوقف عن سَبِّ الصوفي، والمتصوف الجاهل لا يتوقف عن النفور من العلم وأهله، ويخالف ظاهر الشريعة في أمره، ويرى ذلك كمالاً في محله، حتى لقد سمعت من بعض من تفقر من طلبة الوقت أنه سمع حكاية من حكايات الخارجين أوجبت أثرًا في الوجود، فنطق ناطق، بزندقته وجهله بأن قال: ظاهر الشريعة حرمان، وهذا والعياذ بالله كفر وضلال انجر له من جهله بالطريقة واعتقاده الفرق بين الحقيقة والشريعة وهذا هو الأصل الذي بنى عليه المارقون أصولهم، واستظهرت الطوائف بأعمال خارجة عن الدين وأحوال موافقة للمارقين، فحمل الصادق على الكاذب، والمصيب على الخائب، ووقع الكل في

جهالات لا يمكن تفصيلها، ولا ينضبط تأصيلها، ودفع ذلك لا يكون إلا بتقرير أصول القوم].

٣- حب الرياسة وتعشُّق الزعامة والقيادة من غير مُؤَهَل:

ومن هذه الأسباب التي تُفسد البيئة ما هو مركوز في طباع البعض، من حب الرياسة والزعامة، وتعشُّق القيادة والتميز، من غير أن يكون من هذه صفته مُؤهلاً لهذا الذي يتطلع إليه.

وأنت إذا أردت أن تفهم ذلك؛ فإنه يجب عليك أن تعلم أن من يحتلون مواقع القيادة والرياسة أنواع ثلاثة من البشر:

أولهم: قائد تصنعه الأحداث وهو غير مؤهل للقيادة.

وثانيهم: قائد ورئيس تصنعه الناس وهو غير مؤهل للقيادة.

وثالثهم: قائد يصنع الأحداث ويصنع الناس.

وأنت إذا تأملت في هذه الأصناف الثلاثة، وجدت أن الصنفين الأول والثاني يؤديان بمرءوسيهم ونظمهم إلى الجحيم.

وهذان الصنفان هو ما نرغب إليك أن تتابعنا في الحديث عنهما.

ولك أن تتصور معي راغبًا في الرياسة، غير مُؤهَلٍ لها، يلح عليه طبعه، ويزيد في الإلحاح إلى حد تنعدم معه المقاومة، وتشرئب الأعناق معه تتطلع إلى إدراك الغايات مهما كانت رداءة الوسائل وسوء الأدوات.

وفي مجال التصوف يعمد صاحب هذا الطبع السيئ، والتطلع إلى شغل مكانة موهومة إلى خياله وأوهامه فينسج منهما طريقة مبتكرة يوازي بها الطريقة الشرعية وليست منها، وهو في ذلك يعتمد على الإلباس فيما ينشره بين الناس مستغلاً هذا الجهل بالدين، ويتنكب سلوك طرق الصالحين.

وهو حين يُخفي الحق أو يُلبسه الباطل، إنما يُضل غيره بعد أن ضل هو؛ بحيث يصل بهم الضلال والإضلال إلى شفا جرفٍ هارٍ قد لا تقتصر مخاطره على الضلال، بل تتجاوزه إلى الكفر الصراح، والمروق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

وهذا خطر لا منجى منه إلا بأن يرد الله المتلبسين به إلى الدين مردًا جميلاً.

وفي التفاتة زروقية إلى مثل هذا الخطر، وتصويره ورسم الخطط إلى الخروج منه، أضع أمامك ما قاله زروق بألفاظه وتعبيراته.

قال: [**الثالث:** حب الرئاسة والظهور مع الضعف عن أسبابها والقصور، فيضطرهم ذلك الإحداث أمر يستحيل القلوب لكونها مجبولة على استحسان الغريب مع جهلها بما يشين ويريب، وحرصها على الخير، وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منته مع ما يجري على يده من خوارق شيطانية، أو يبدو لتابعه من لذة نفسانية، أو يدركه من أذواق طبيعية يظنها فتوحًا وأسباب وصول، فينبذ بها الفروع والأصول مع ما يعينه على ذلك من احتقار الأمور المألوفة، واعتقاده أن المقام العجيب لا يدرك إلا بالأمر الغريب، وأن العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود إلا بإضافة أمر إليها فينقاد لذلك عند ظهوره، ويعمل به فيجتهد له بذلك ويتقوى عليه بما يظهر له من ذلك، وما هو إلا الجهد والانقياد للوهم وعدم التثبت للفهم].

* * *

أمور ثلاثة ذكرناها ولفتنا النظر إليها ائتلفت جميعها فخلفت جوّا ساعد على انتشار البدع بين المتصوفة حتى غزت الفكرة الصوفية نفسها، منها: نقص الوعي بالتوحيد، وتراجع الشعور بالإيمان في القلوب، يضاف إلى ذلك أمران: حب الرياسة من جهة، وعدم الوقوف على أصول الشريعة من جهة أخرى.

فإذا ما أراد المرء بعد هذا أن يلتفت إلى ما قد انتشر بين المتصوفة من بدع، أثرت على شخصيتهم بعد أن نالت من الفكرة الصوفية وغزت ساحة المتصوفة، فإنه يجب عليه أن يتتبع هذه الأسباب التي مكنت للبدعة أن تغزو الفكرة الصوفية، وأن تؤثر على شخصية التصوف.

ونحن سنشير إلى ذلك إشارة عابرة تلفت النظر ولا تستهلك الجهد.

١- رفع الوعي بالتوحيد، وإيقاظ الشعور بالإيمان في القلوب:

وهذا هو أول ما ينبغي إصلاحه في نفس من يريد أن يسلك الطريق إلى الله. إنه ينبغي أن يفحص في صدره اعتقاده، وإيمانه بالله، لينظر أول ما ينظر من ذلك إلى درجة شعوره بهيبة الجلال والكمال بالنسبة لله عز وجل في ذاته، وفي صفاته، وفيما أمر به، وفيما نهى عنه.

ثم ينظر بعد ذلك في قلبه ووعيه فيتأمل علاقته بالنبي ﷺ وما جاء به من ربه، فلا يقبل من هذه العلاقة إلا ما رسمه الدين له من ذلك، ثم يتبصر فيما جاء به النبي ليستقبله بالتصديق به لا يرد منه شيئًا؛ فرده يحدث له من المشاكل الدينية ما يؤدي إلى إحباط عمله، ثم ينظر فيما جاء به النبي من هذه الأشياء التي لا تُعرف إلا بالسمع، وجُلُّها متصل بالدار الآخرة ومشاهد القيامة..

والمريد في أول عهد الطلب لا يكفيه أن ينظر في نفسه فقط، وإنما لابد أن ينظر في نفسه، وأن ينظر مع ذلك في شيخه الذي يأخذ عنه، وهو عليم في جميع الأحوال بأن الناس ثلاثة رجال:

أ – عالم يدرك وجوه الترجيح فيتعين أخذه بالأرجح أبدا ويُؤْثِر منه

الأحوط؛ لأنه بساط السلامة دون وقوف مع محل الجواز والإجزاء فقط، ولهذا كان كثير من الأئمة يأخذ بخلاف ما يُفتي به، فيحمل نفسه على الأقوى وغيره على وجوه الرفق إلا من عَلِمَ منه مثل ما علم من نفسه، والله أعلم.

ب - رجل مقتد يتبع إمامه في رواياته وأصوله فحقه الأخذ بالأحوط من مذهبه، وإن أمكنه الاحتياط بإدخال مذهب الغير على الاحتياط فله ذلك ما لم يكن مما ينكره إمامه، ولو بالكراهة فلا حاجة له إليه، إذ وجود أرجحية إمامه في نفسه مانع له من الانتقال إلى غيره، لأنه لا يجوز له أن يعمل إلا بما انتهى إليه علمه أو علم أصله بوجه واضح.

ج - العامي وهو كالمقتدي فيما يلقيه إليه أئمة مذهبه من وجه يستشعر ثقته ولا يقصد ترخيصه بل احتياطه إن أراد أن يكون من المتقين وإلا فعبرة به، ويتعين عليه أن يسأل عن وجه المذهب فيما هو به، ولا يأخذ الأمور مجازفة ولا ممن لا يعلم ديانته والا تحقيقه. قيل: ولذلك عين الناس المفتي. ويتعين على الأمراء إقامة منصبه للعامة إذ لا يعرفون وجوه الترجيح ولاا يتوجهون لها، فافهم.

الآن وقد عرفت ما يرفع الوعي بالتوحيد ويركز الإيمان في القلوب، وهو العامل الأول الذي يعيننا على رد البدعة في التصوف، ويقيم السنة مقامها.

وفيه يقول الشيخ زروق: [فصل في الأمور التي يُتقى بها إحداث البدع عمن غلط فيها واتباع أهلها لمن تروط معهم، وهي ثلاثة:

أولها: تصحيح الإيمان بوجه يؤدي إلى إقامة حرمة الشارع فيما أمر به أو نهى عنه، والتبصر في الدين، فقد قال تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " [الحشر/٧] وقال عز من قائل: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" [النور/ ٦٣]، وقال عز من قائل: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني" [يوسف/ ١٠٨].

فبين أن التبصر في الدين أصل من أصوله، وأن من أخذ الأمور رواية من عماية فليس بمتبع للشارع لكن الناس ثلاثة:

- عالم متمكن، وتبصره في آحاد المسائل بطلب الدليل وإن لم يكن مجتهدًا.

- ومتوسط في الأمر بين العامة والعلماء، فلا يصح إتباعه إلا لمن تبصر في شأنه فأوجب له ما علم من الشريعة، إن هذا ممن يُقتدى به ثم لا يأخذ منه ما يأباه مما علمه من قواعد الشريعة، إذ لا يجوز لأحد أن يتعدى علمه: " ولا تقف ما ليس لك به علم " [الإسراء / ٣٦].

- وعامي، وحقه أن يقف مع ما لاشك في حقيقة من تقوى الله وذكره والعمل على الجادة التي لا شك فيها، وإلا فهو مستهزئ بدينه ومتلاعب به، فاعلم ذلك، وإذا لم يكن الفتح فيما جاء عن الله ورسوله، ففي أى شيء يكون.

نسأل الله السلامة].

٢- ومما يعنينا على نبذ البدع والإلقاء بها خلف ظهورنا ، الوقوف على أصول حقيقة الطريقة:

وأنت قد أصبحت على علم تام بأن الجهل بأصول الطريقة التي يتبعها السالك منزلق خطير يؤدي بالتصوف والمتصوف إلى المهالك، فمن أراد أن يتجنب هذه المخاطر يجب عليه أن يعوذ إلى نفسه فيصحح فيها أصول الطريقة التي يتبعها، ولا يكون ذلك إلا من خلال معرفة الشريعة التي هى أصل الأصول في كل طريقة، فإن استطاع أن يفعل ذلك سلم.

وعليه من جهة أخرى أن ينظر في الشيخ الذي يأخذ عنه، ليعلم مدى التزامه بمبادئ الشريعة، وما تشتمل عليه من أوامر ونواهي.

وكبار الرجال من المتصوفة أدركوا ذلك وقالوه، وتوارثه عنهم الأحفاد جيل عن جيل.

والشيخ زروق قد نبه قراءه على ذلك وأوقفهم على ما يريد منه، حيث قال في المرجع الذي نبهناك إليه قريبًا: ومما يجب على سالك الطريق [العلم بأصول الطريقة التي هو بها أو يريد سلوكها، فإنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول، وأصول القوم مبنية على الكتاب والسنة.

هذا إمام الطريقة وعمدتها والمرجوع إليه عند الكافة في شأنها الشيخ أبو القاسم الجنيد ۏ يقول: " علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث

ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه وبيعته حرام".

وقال أبو سليمان الداراني ؤ: " إنها لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي أيامًا فأقول لها: لا أقبلك إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة ".

وسئل الشبلي ؤ عن التصوف فقال: " هو الإقتداء برسول الله ﷺ. انتهى.

والنقل عنهم في هذا الباب كثير، ومن أراد الزيادة فلينظره في مظانه، وبالله التوفيق].

٣- البحث عن أحكام الله من خلال شريعته:

قال الشيخ في هذا الصدد: [البحث عن أحكام الله فيما هو به من حركة وسكون، وما يعرض له من إقبال وإدبار، وذلك لا يصح إلا بمراقبة أحواله، فلا يعمل بشيء إلا عن علم أو اقتداء بمن يصح الاقتداء به من عالم ورع أو فقيه متصدر فيما لا هوى له فيه].

* * *

بعد هذا الحديث المستفيض عن البدع في جوانبها النظرية، نجد الشيخ زروق ينتقل بنا نقلة نوعية إلى الحديث عن البدعة في المجالات العملية، وهو ما يُعدُّ ثمرة مهمة من أهم تناول ثمرات البدعة والاهتمام بها.

البدعة . ضررها وحكم إزالة هذا الضرر: .

وأول ما يبدؤنا الشيخ به في هذا المجال العملي هذا الشيء المستحدث وضرره المترتب على تفعيله في المجتمع على الناس في حياتهم العمليــة وفــي معتقــداتهم الدينية.

والشيخ زروق يرى أن هذا الشيء المستحدث يختلف في آثاره شدة وضــعفًا، وهو اختلافٌ يترتب عليه اختلاف في حكم إزالته، فمنه ما كان مستوجبًا لإزالتــه، ومنه ما كان دون ذلك فهي في كل شيء (بحسبه تجري في كل مرتبة وحالة وعمل إلا أنها تقل وتكثر، فمنها ما يجب التعرض لإزالته، ومنها ما يندب، ومنها ما يباح، ومنها ما يحرم].

معيار التغيير: .

وبعد هذا التقرير ينتقل الشيخ إلى معيار مهم لا يجوز إغفاله ونحن نتــصدى لتغيير البدع، خاصة إذا كان الذي سيتصدق لتغيير البدع ليس من صناع القرار في المجتمع، ولا من أرباب المسئولية في الناس، والمعيار عنــد الــشيخ يقــوم علــى الموازنة بين إزالة الضرر المترتب على اصطناع هذا الأمر الحــادث (البدعــة)، والضرر الذي يلحقنا بسبب تصدينا لإزالة الأمر الحادث وآثاره فإن وُجد ضررٌ حاد ينشأ من تغيير الأمر الحادث يزيد على الضرر الناشئ من تطبيق الأمــر الحــادث نفسه أمسكنا عن تغييره لنتحمل أخف الضررين، وإلا غيرناه.

وسوف أخلي بينك وبين عبارة الشيخ الشارحة لهذه الفكرة، لــتعلم أن الــشيخ كان متميزًا بحالة من الاستبقاق الفكري والثقافي جعلته سابقًا لعصره محتلاً لأشرف الدرجات.

قال: [... فكلما علم إلحاق الضرر منه فأنت في فسحة في إنكاره، وإن كان يؤدي إلى منكر أعظم منه فيمتنع لا من حيث ذاته، بل من حيث ما يؤدي إليه، وقد أُمرنا بطاعة الأمراء، واحترام العلماء ما لم يكن الذي نصيب أعظم من الذي يصيبنا.

وهذا زمان الفتن والمحن فلا سبيل إلى التعرض للأمور الجمهورية في حق كل ضعيف أو مجهول الحال، أو من يرى أن كلامه فيها من الدعوة والاستظهار بالكلمة، فإن ذلك يؤدي إلى التلف والهلاك، وقد عانينا منه كثيرًا، والتواريخ مملوءَة به، فدع الأمراء المتصدرين بسبيلهم، إن أصابوا فلهم، وإن أخطأوا فعليهم، فقد قال ﷺ: " إذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك" ومن تعلم العلم ليحكم به على الناس فلا يستريح ولا يُستراح منه، ومن تعلمه لنفسه فمستريح، ومستراح منه، وعلى الإنسان أن يقوم بنفسه ثم بأهله وولده وصديق ملاطف إن أمن غوائله، وقليل ما يوجد في هذه الأزمنة، وللمحاولات وجه، فدع عنك أمر العامة، ثم سايس الأمور في حظوظ الناس تظفر بسلامة الدنيا وتحصل الديانة].

في متشابه الأمور بين البدعة وغيرها:.

ومن الموضوعات الهامة التي لا يحسن السكوت عن بيانها، هو هذا الموضوع المتعلق بالكشف عن الالتباس حين تختلط البدعة بالسنة في مجال التطبيق، ويغمُّ على الباحث تمييز بعضها من بعض.

وهذا الالتباس بين السنة والبدعة يقع في مجالات كثيرة، منها ما يتعلق بالعلوم والاعتقادات، ومنها: ما يتعلق بالسلوك والممارسات.

أ – [فمن ذلك في باب العلم الاشتغال بعلم المنطق والجدل وعلم الكلام والفلسفة ونحوها، فقد ذهب جماعة من الأئمة إلى منع الاشتغال به ورأوه ضلالاً، وذهب جماعة إلى تقديمه والاهتمام به ورأوه كمالاً، وقوم فصَّلوا فيه، وقوم توقفوا، وقوم جعلوه من حيز المهملات.

ومذهب السلف وجمهور أصحاب المذاهب على تجنبه وذمه، فقد اتفق مالك

والشافعي وأحمد وأبو يوسف وسفيان والثوري في جماعة من العلماء على تحريم الكلام في علم الكلام، ولم يتكلم السلف ﷺ في الاسم والمسمى، ولا في التلاوة، ولا في الصفة والموصوف، ولا في مشكلات الآيات والأحاديث إلا من حيث إخراجها عن ظاهرها المحال فقط، بل ضرب عمر ؤ صُبيغًا لما كان يتتبع مشكل الحديث والقرآن ويسأل عنه.===

وقال جماعة من السلف بل جملتهم بكراهة رواية الأحاديث المشكلة، وممن رَوى عنه ذلك مالك ؤ، وعاب الشيوخ على الشيخ أبي بكر بن فورك كلامه في الأحاديث المشكلة، التي لم تصح والاشتغال بتأويلها، وقالوا: كان يكفيه تضعيف أصلها ولا ينبغي أن يتكلم منها إلا على ما صح لوجود الاضطرار إليه، وله نية صالحة فيه فجزاه الله وجزاهم خيرًا.

وقال الشافعي رحمه الله: " إذا سمعت الرجل يقول: " الاسم هو المسمى أو غيره فاشهد أنه من أهل الكلام ولا دين له" وقال الإمام أحمد بن حنبل ؤ: " لا يُفلح صاحب علم الكلام أبدًا ولا يُرى أحد ينظر في علم الكلام إلا وفي قلبه مرض" وقال أيضًا: " علماء الكلام زنادقة " وقال أبو يوسف: " من طلب العلم بالكلام تزندق" وقال الشافعي رحمه الله: " قد اطلعت من علم الكلام على شيء ما ظننته قط ولأن يُبتلى العبد بكل شيء نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام".

قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله: حدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاشي رحمه الله كان يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم في ذاته تعالى وفي ذكر صفاته إجلالاً لاسمه سبحانه، ويقولون هؤلاء يتمندلون بالله عز وجل، وقال الخطابي رحمه الله: " وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قلما يذكر الله إلا فيما يتصل بطاعة، وكان يقول للإنسان: جزيت خيرًا وقلما يقول جزاك الله خيرًا إعظامًا لاسمه تعالى أن يُمتهن في غير قُربة.

قال بعض المشايخ: ومن تكلم في علم الكلام من الأئمة فإنما قصد لدفع ما أحدثه أهل الأهواء من الشبه والتخيلات التي لا يمكن ردها إلا بالكلام فيه لابتنائها

عليه.

قال: واختلف العلماء هل يُرد الباطل إلا بالحق أو يُرد بكل ما أمكن رده به؟ فمن مَنع من علم الكلام قال بالأول، ومن أجاز قال بالثاني والله أعلم].

والإمام الغزالي عرض لهذه المسألة المتصلة بدراسة علم الكلام خاصة، وعلم الجدل على العموم بما هو أوضح من ذلك خاصة، فيما يتصل بالمنهج، فبين أن العلماء قد وقفوا من هذه الدراسة موقفين رئيسيين بينهما من التقابل ما قد بلغ إلى حد التناقض، ثم ترك كل واحد من الفريقين على رأس أمره.

أما هو فقد نحى منحًا آخر أقامه على أساسٍ متين، وهو أن الجدل وما يشتمل عليه من علم الكلام فيه خير وفيه شر، فخيره خير، وشره شر.

وكلام الرجل مبسوط في "قواعد العقائد" وهو الكتاب الثاني من الربع الأول من كتاب "الإحياء"، وفيه كلام نفيس لا غنى للباحث عنه.

وأيا ما كان فإن هذا هو الجانب الأول مما عسى أن تختلط البدعة بالسنة فيه وهو الجانب النظري.

ب – أما الجانب العملي الذي يمكن أن تختلط البدعة بالسنة فيه، فمجاله العبادات، والتي سيجتزئ منها الشيخ زروق بعض المجالات ليلفت النظر إليها.

وأوّلها: مجال الطهارة، وما شاع فيها من بدعٍ مستحدثة إلتبست بالسنة المأثورة عن رسول الله ﷺ.

فمن [جهالات العوام فيها:

وَصْلُ الاستنجاء بالوضوء من حيث الحكم، وقد نبه عليه في رسالته ابن أبي زيد رحمه الله.

والتكبير عند غسل الوجه وقد ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في "مراقي الزلفى".

والتشهد عند ذلك.

ونص النووي في حلية الأبرار على أنه لم يقل به أحد من العلماء غير بعض أصحابه، ثم رد القول.

والأذكار المرتبة على أعضاء الوضوء، وقد ذكرها الإمام أبو حامد وغيره وردها النووي قائلاً: لا أصل لها، وكذا ابن العربي، وقال: " الوضوء عبادة ليس فيها ذكر إلا البسملة أوله والتشهد آخره.

قلت: وما روى من قوله ﷺ: " اللهم اغفر لي ذنبي ووسع لبي داري وبارك لي في زرقي".. الحديث، فقد ترجم له النسائي – ما يقول بعد الوضوء – وابن السني – ما يقول بين ظهراني وضوئه – ورجحه النووي.

وكثرة صب الماء، وفي "الرسالة" وقلة الماء مع إحكام الغسل سنة، والسرف منه غلو وبدعة، يعني لمن يرى ذلك دينًا قيما وكمالاً من فعله، وقد تذكر رسول الله ﷺ الجنابة بعدما أقيمت الصلاة وقام الناس لها، فقال: على رسلكم، ثم دخل بيته، ثم خرج ورأسه يقطر ماء، ولم يأمر بإعادة الإقامة، قال ابن الحاج: فيه رد على الموسوسين، وأن السنة التخفيف في الطهارة، وقد مر الكلام على بعض ما يتعلق بالوسوسة، وأن خير الوسوسة ما أدى إلى التحفظ في القوت، وقل من يفعله وهذا على سبيل المبالغة، وإلا فالوسوسة شر كلها، في أى باب كانت.

ومن جهالات العوام في الوضوء لطم الوجه بالماء لطمًا، ولا يفعله إلا جهال الرجال، وضعفة النساء، وصب الماء من دون الجبهة حتى لا يصل إليها إلا البلل وأكثر العوام يفعله ولا يشعر، ونفض اليد قبل إيصال الماء إلى العضو، وذلك مسحٌ لا غسل، والمبالغة في الدلك بعد جفاف المحل من الماء، وذلك أمر لا فائدة فيه، إذ إزالة الوسخ الذي لا يضيف الماء ولا يتعين في العضو، ولا يكون حائلاً عنه ليس بمطلوب.

وقد نص ابن حبيب على كراهة المبالغة في مسح الأذنين، لأن المسح مبني على التخفيف، وبعض الناس لا يزال يُدلِّك فيهما حتى يكاد الدم يخرج منهما.

فأما غسل الرجلين فقلَّ أن يسلم متدين من الوسوسة فيهما لما يتعلق بهما من الأوساخ وما فيهما من التكاميش لاسيما مع الوعيد الوارد في ذلك.

فأما وسوسة الشك فأصلها خبال في العقل وقد تَعْرِض من العجلة في الفعل، ونحو ذلك، وفي ذلك مبالغة بعض الناس في الرواجب والبراجم إلى حد يخرج عن

القياس والحد.

وقد سمعت بعض الفضلاء من أهل بلادنا يقول: سأل رجل الشيخ الفقيه الإمام العالم مفتي المسلمين أبا عيسى بن علال عن رؤوس الأنامل مشيرًا إلى المبالغة، فأجابه الشيخ رحمه الله بأن قال: " اللقيمة يا أبا عبد الله اللقيمة " مشيرًا إلى الورع في المطعم والمشرب.

وكثير من المتدينين يصب الماء في أذنيه في الغسل فيضر نفسه، فأما وسوسة زوال النجاسة فلا حديث على أصلها، والقاعدة الكلية في هذا الباب أن الله سبحانه إنما يطالبنا بما نعلمه بوجه صحيح، أو غالب ظن، ولم يأمرنا بتحصيل الأشياء في علمه، إذ لا وصول لنا إليه وبالله التوفيق].

والثاني من الأمور التي اجتزأها الشيخ زروق لكي ينبه إلى البدعة فيها وهى من مجال العبادات – الصلاة-.

والمتأمل في صلاة الناس كلما تأخرت العصور وجد أمورٌ من البدع نحتاج جميعًا إلى التنبيه عليها بقصد التخلص منها.

فمن الجهالات الواقعة في الصلاة [مزاحمة الأوقات وإن كان أول الوقت مطلوبًا، فمقدار الطهارة معتبر، وكذا الأذان ونحوه، وقد قال ﷺ لبلال: " اجعل بين أذانك وإقامتك مقدار ما يفرغ الآكل من أكله والمتطهر من طهارته" الحديث.

ومن ذلك التراخي بها إلى حد الفوات، فقد قال ﷺ: " تلك صلاة المنافقين يقعد أحدهم حتى إذا كانت الشمس بين قرني الشيطان نقر أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلاً " الحديث. وفي الحديث: "أول الوقت رضوان الله، وأوسطه رحمة الله، وآخره عفو الله "].

ومن المجالات التي داهمتها البدعة ما دخل منها على المشروع من الأذان.

والأذان هو: إعلام بدخول الوقت يقوم به المؤذنون من خلال كلمات مشروعة أقرها الشرع واعتمدها المشرع، وقد ثبت عليها من المؤذنين من ثبت، وأدخل بعضهم عليها من الكلمات واللحن من جهل حقيقة الشرع في الأذان.

فأما جهالات المؤذنين في الأذان فكثيرة جدًا.

[**منها:** لحنهم بعد ألف الله، وياء أكبر، وكلاهما لحن فأحسن، وكذا ضم ياء أكبر، وميله بها إلى الكسر، وإبدال همزتها وأداء، وقد استخفه بعض العلماء للضرورة.

ومنها: إشباع همزة أشهد، ومد الهاء وتشديدها، ومد الدال حتى يصير أمرًا للجماعة، أو تسكينها فيكون أمرًا للواحد، وفتح الدال أو الراء من أكبر وإعرابها وهو مستخف للاختلاف فيه.

ومنها: فتح أن مع التشديد أو إبدال ألفها واوًا أو إسقاطها وصلاً.

ومنها: ضم دال محمد بعد ذلك أو كسرها، وكذا إظهار تنوينها، ولاسيما مع كسر لام رسول أو فتحها وإدغامها في لام الله، مع عدم الإشعار بالألف في الاسم المبارك.

ومنها: إسقاط الترجيع أو كتمه بحيث لا يُسمع أصلاً، وقوله: هى بإشباع الياء أو بإشباع الخاء أو بتخفيف الياء أو بكسر الحاء أو الياء، ثم إسقاط الهاء من الصلاة أو إثباتها تاء اعتبارًا بالإعراب. وفيه ما في الذي تقدم، كذلك إسقاط جاء الفلاح أو كسر فائه، أو حائه، وقولهم لا إلاها إلا الله بزيادة مد، وهذا من أفحش اللحن، وما يدعوهم لأمثال هذا إلا الجهل وطلب التلحين والتطريب الذي يكاد صاحبه أن يكون به خارجًا عن الأذان في فعله بل هو خارج عنه عند جماعة من العلماء، منهم الإمام أحمد وغيره، إذ قالوا: يعيد الأذان مَن فِعْله كذلك].

ومن المجالات العملية التي دخلتها البدع كذلك الذكر وقراءة القرآن، فمن مواقع أمور الناس] ذكر الأعشار القرآنية بطريقة الأشعار الغزلية والحركات الزجلية مع أمور لا حاجة لنا بذكرها لما يُخشى منها.

ومن ذلك ترسلهم في الإقامة مع أن سنتها الحد، وأذانهم للصلاة في وقت الضرورة فضلاً عن آخر وقت الاختيار، ولا يفعله غالبًا إلا من لا علم عنده ممن يظن الأذان من سنة الصلاة لذاته وليس الأمر كذلك

فأما تذكير ليلة الجمعة وبعد العشاء والتصلية بعد الفراغ من الأذان، والتحضير لكل صلاة أو لبعضها، وكذا التثويب، وضرب البوق في التسحير

بالصومعة، وإنشاد المنشد بعده في المسجد إلى الفجر ونحو ذلك، فقد تكلم الأئمة عليه فلا نطيل به].

ومن البدع الإضافية التي نص عليها الشيخ زروق، وذكر أقوال العلماء في حكمها، ما يفعله بعض المؤذنين في بعض البلدان من أنه يستغفر الله ثلاثًا قبل الإقامة، والاستغفار مشروع، ولكنه في هذا الموضع غير وارد.

ومنها: التسميع أو التبليغ على اختلاف اللقب بين المذاهب، حيث لا ضرورة له، وهو عند الشافعية جائز وعند المالكية ومن وافقهم فيه كلام طويل، وفي صلاة فاعله قبول ورد. والتبليغ ذكر، وهو في مصلحة الصلاة، لكنه في هذا المجال غير وارد.

ومنها: الدعاء بعد الصلاة يفعله الناس بكيفية معلومة، والداء مخ العبادة كما نعلم، غير أن للعلماء في الدعاء بعد الصلاة كلام، خاصة إذا كان الدعاء على كيفية معينة، كأن يدعو الإمام ويؤمن المصلون، ومع أن هذه الكيفية وأمثالها مرفوضة عند بعض الأئمة، إلا أن بعضهم قد أجازها وله حجته من نحو حديث رسول الله ﷺ والذي أخرجه الحاكم وقال على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وهو قوله فيما روى [حبيب بن مسلمة ؓ، قال ﷺ: " لا يجتمع قوم مسلمون فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم إلا استجاب الله دعاءهم "].

ومنها: رفع الأيدي جهة السماء عند الدعاء، ومسح الوجه باليدين عقب الدعاء. والدعاء مخ العبادة، وقد ورد في رفع الأيدي عند الدعاء أحاديث استوفى فيها من ادعى مشروعيتها أنها متواترة تواترًا معنويًا؛ حيث بلغ رواتها من الصحابة كما قال السيوطي نحو سبعين صحابيًا، ولكنها في هذا المجال موضع خلاف بين العلماء.

ومنها: الاستغفار بعد الصلاة، وفيه نظر لما روى ثوبان عن النبي ﷺ أنه كان كلما انصرف من الصلاة استغفر ثلاثًا، وهو من مرويات الإمام مسلم.

ومنها: قول المنصرف من الصلاة لأخيه يدعو له: " تقبل الله منا ومنكم"، وربما قبّل يده. قال زروق: [وهذه بدعة لا أصل لها من السنة، ولا حقيقة لها في

الشرع، ولا شبهة من الحق].

ومنها: تنفل الإمام في محرابه وتعمقه في المحراب حين يصلي إمامًا، ودخوله المحراب قبل تسوية الصفوف، وطول قيامه بين الإقامة وتكبيـــرة الإحـــرام، وأن تكون قراءته بعد الفاتحة في الركعة الثانية أطول من قراءته في الركعة الأولـــى... إلى غير ذلك مما ذكرناه ومما لم نذكره.

* * *

الربــط

الآن وقد انتهينا إلى المقصود من كتابة هذه الصفحات عن الشيخ زروق.

والمقصود أن نكتب في أمور تعد توطئة لما سنكتبه من شرح علـى قواعـد التصوف.

أو قل إنا كنا نقصد إلى كتابة موضوعات عن الشيخ زروق تكـون بمثابـة الكشاف يهدي الساري في طريقه إلى حل معضلا ت ربما تقابله وهو يطـالع مـا كتبه الشيخ زروق في قواعده استهدافًا للاختصار وجمعًـا لمـشكلات التـصوف وتسجيلاً لتجربته الصوفية.

وما خطر لنا ببال أن نكتب عن شخصية الشيخ/ أحمد زروق كتابة شاملة تلم بجميع جوانب شخصيته.

وإذا كان الأمر على ما قلت، فإن ما كتبناه في هذه السيرة والمسيرة- وإن كانت كتابة غير جامعة – إلا أنها تعد في إجمالها صالحة لهداية من يطـالع فكـر زروق لفهم ما يريده الشيخ زروق من كتاباته.

وربما نطمع عند فراغ البال وانحصار العوالق وتـوفر الأسـباب وارتفـاع الموانع ونحظى باللطف من الله والتوفيق أن نعود في هذه الحال إلى مجالسة الشيخ زروق مرة أخرى نستوهبه ما كتب ثم نبصره ونبصر معه حاله إن اسـتطعنا ثـم نجعل ذلك كله في خدمة كتاب يقدم الشيخ زروق للقارئ على قدره.

ولإن كان الشيخ زروق لم يحظر بنفح الطيب في حياته كما لـم يحـظ بـنفح الطيب فترة من الزمن بعد وفاته فلعل الله عز وجل قد هيئ له أناسًا اليوم يبحثـون عن تاريخه وعن آثاره ومجهوده في التصوف ليتقدموا بذلك كله للناس صافيًا مـن الشوائب خاليًا من الرياء.

وعلى كل حال فإني أقدم للقارئ هذه الصفحات ليقرأها في مدة وجيزة لأنـي أطمع في فضل ربي أن يوفقني إلى إخراج الجزء الأول بعد هذه التوطئة من "شرح قواعد التصوف" على قدر ما يرزقنا الله من الفهم لها والقدرة على خدمتها.

والحمد لله الذي تتم بفضله الصالحات.

وقع الفراغ من إملائه منتصف ليلة الثلاثــاء ٢١/ذو الحجــة/ ١٤٣٣هــــــ- ٦/١١/٢٠١٢م.

أ.د/ طه حبيشي

* * *

تم بحمد الله

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

* * *